الإسلام
الأسس



كولين تيرنر



الشبكة العربية للأبحاث والنشر

ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING



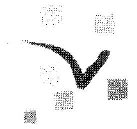
الإسلام
الأسس



الإسلام الأسس

كولين تيرنر

ترجمة: نجوان نور الدين
مراجعة: سعود المولى



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

الفهرسة أثناء النشر - إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

تيرنر، كولين

الإسلام: الأسس/كولين تيرنر؛ ترجمة نجوان نور الدين؛ مراجعة سعود المولى.

٣٦٠ ص.

ببليوغرافية: ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

ISBN 978-9953-533-09-4

١. الإسلام ـ تاريخ. ٢. الفلسفة الإسلامية . أ. نور الدين، نجوان (مترجم). ب. المولى، سعود (مراجع). ج. العنوان.

297

Islam: The Basics

Authorised Translation From the English Language
Edition published by Routledge, a member of the Taylor & Francis Group

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٩

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بناية «سادات تاور»، شارع ليون، ص.ب.: ٥٢٨٥ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٧ ٤٠٠١ ـ لبنان
هاتف: ٧٨٩٤٥٣ (١ ـ ٩٦١)
فاكس: ٧٨٩٤٥٤ (١ ـ ٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com

الإهداء

إلى مهشد، الذي مع ما يمنحه من حب وإلهام،
ليس هناك مستحيل...

المحتويات



ملحوظة للقارئ

إن تصميم هذا الكتاب لواضح ويعبر عن نفسه بنفسه بشكل عام؛ فتسلسل الفصول جاء في تتابع بسيط، بدءاً من قصة رسول الإسلام محمد [ﷺ]، مروراً برسالته نفسها وأساسها القرآن، وانتهاءً بالأهداف والمعتقدات والممارسات ذات الصلة بهذه الرسالة. فهذه بالفعل هي أساسيات الإسلام وأسسه، أي مضمون ما يوحي به عنوان هذا الكتاب.

ولقد كان الاهتمام الحالي بمختلف تظاهرات الإسلام الـمُسيَّسة سبباً في ضم الفصل السادس الذي يبحث دور الجماعات الإسلامية المتطرفة وأيديولوجياتها في عصري الحداثة وما بعد الحداثة. فعلى الرغم من ضعف صلة هذا الاتجاه السياسي الإسلامي بأساسيات الإسلام كما هي موضحة بالقرآن، فإن هذه الظاهرة المعاصرة لا يمكن تجاهلها وكان هذا سبباً في ختم الكتاب ببحث لعالم المسلم المعاصر.

وبالمثل، كان الاهتمام بأصول الدين والشريعة الإسلامية، وإن كانا لا يُعدّا فعلياً من الأسس، فقد ظهرا في عدد من الملحقات المفصّلة.

وأخيراً، في ما يخص المراجع القرآنية، فلقد استخدمت ترجمة عبد الله يوسف علي (وهو المترجم التي تُعدّ ترجمته للقرآن إلى الإنكليزية الأكثر انتشاراً بين قرّاءه)، وذلك من خلال مختلف الطبعات لكتابه **معنى القرآن الكريم** وهو عمل واسع الانتشار في الغرب، وبالتالي لن يصعب على القارئ إيجاد نسخة منه. وعلى هذا، فإن أي إشارة إلى القرآن في كتابنا **الإسلام: الأسس** يرجع إلى ترجمة يوسف علي ما لم يوضح غير ذلك.

وأخيراً، كما يفترض هذا الكتاب عدم المعرفة المسبقة بالإسلام، فهو يفترض أيضاً عدم الإلمام باللغة العربية، لغة القرآن. إلا أنه قد ضم لمن لديهم الإلمام بهذه اللغة لدرجة ما مفردات باللغة العربية في ما له صلة، ولكن دائماً مع ما يقابلها باللغة الإنكليزية.

مقدمة

«قد لا أعد مسلماً بالمعنى المتعارف عليه، ولكني أتمنى أن أكون «مسلماً»، بمعنى الاستسلام لله. إلا أنني أرى أن القرآن وغيره من النصوص التي تعبر عن الرؤية الإسلامية، تنضوي على قدر وافر من الحقائق الإلهية التي ما زال أمامي أنا وغيري من أهل الغرب الكثير والكثير لنتعلمه منها؛ فالإسلام من وجهة نظري يعد بلا شك من أهم وأقوى المعتقدات التي سوف توفر إطاراً أساسياً للدين الواحد في المستقبل»(١).

بادئ ذي بدء، أود أن أحذر كل من يقرأ هذا الكتاب تحذيراً بسيطاً: إنَّ هذا الكتاب ليس الهدف من وراء وضعه «شرح» أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، فلقد خططت لتأليف هذا الكتاب قبل

---

(١) انظر: W. Montgomery Watt, *Islam and Christianity Today*, foreword by Shaikh Ahmed Zaki Yamani (London: Routledge and Kegan Paul, 1983).

ذلك الثلاثاء المشؤوم في مانهاتن بمدة طويلة، والذي جاء ليتخلى معه العالم فجأة عن رجاحة العقل.

ومما لا شك فيه أن الهجمات الإرهابية على برجي التجارة العالمية، قد غيرت وجه الساحة السياسية العالمية إلى الأبد، ما نتج منه وبصورة مباشرة ما حدث في أفغانستان من عرقلة وشلل للحياة، إضافة إلى المأساة المستمرة حتى الآن المتمثلة في تدمير العراق. ولم يقتصر الأمر على التغييرات في الساحة السياسية فحسب، بل امتد أيضاً لينال من عالم النشر والتأليف، فلقد شهد هذا العالم كسواه العديد من الاضطرابات العنيفة، وإن كانت نتائجها تختلف بلا شك عن نظيراتها في الساحة السياسية، على الرغم من أنها قد لا تقل عنها إزعاجاً في بعض الأحيان؛ فلقد تحول فجأة من دون مقدمات ما كان يتسم به ما يتناول الإسلام والعالم الإسلامي حتى هذا اليوم من سلاسة كما قد يبدو، إلى طوفان حقيقي؛ فلقد قال لي أحد الزملاء في ذلك الوقت ساخراً: استمع بإنصات في ما وراء قعقعة المدافع، ستسمع صوتاً أكثر إزعاجاً يظهر ويرتفع عن غيره: إنه صوت عربة موسيقى كبيرة قديمة يطأها أعداد غفيرة من الأقدام المحمومة. لقد استيقظ الإسلام على ما يبدو من سباتٍ عميق وظهر فجأة مثل وحش البحر «كراكِن»، وأسرع الجميع ليشرح الكل ـ من وجهة نظره ـ لماذا اندفع بهذا العنف فجأة.

لم تكن كل الكتب التي ظهرت كردة فعل لأحداث ١١ أيلول/سبتمبر بغرض التكسب وتصيد الفرص فحسب، فقد أدت تلك الأحداث أيضاً إلى إعادة ظهور بعض الكتب القيّمة التي كان قد

توقف نشرها منذ أعوام عديدة. وكباحث ومدرّس في مجال الدراسات الإسلامية، ليس بمقدوري أن أشكو من علو الشأن المفاجئ الذي حظي به مجال دراساتي وخبرتي واهتمامي الأكاديمي. إلا أن الحقيقة المحزنة التي تؤكد أن معظم الكتب التي ظهرت في الأسابيع والشهور التالية لأحداث ١١ أيلول/سبتمبر، نظرت إلى الإسلام على أنه سبب لمرض خبيث له العديد من الأعراض، والتي تعتبر الأصولية والإرهاب والهجمات الانتحارية ومسألة أسلحة الدمار الشامل من أبرزها.

وسيظل فخراً دائماً على مر السنوات لدار النشر «راوتليدج»، أنها قامت بنشر هذا الكتاب الذي بين أيدينا في التوقيت الذي نشرته فيه، بعد مرور العديد من السنوات على أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؛ وبهذا أعطت الفرصة لهذا الكتاب للتميز كعمل أكاديمي يهدف إلى دراسة أحد أهم الديانات في العالم، ولا يربط بين ديانة الإسلام، ومعتقدات وأهداف وأفعال أقلية متناهية الصغر تدعي العمل تحت لواء الإسلام؛ فعلى كل حال، لن يعجب الجمهور بكتاب عن الكاثوليكية يهدف إلى تفكيك نشاطات جيش الجمهورية الإيرلندية (Irish Republican Army IRA)، أو بكتاب عن الديانة اليهودية يسعى إلى إصباغ شيء من المنطق والعقلانية في ما يخص الجرائم الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، وعلى هذا، لما سيختلف الأمر بالنسبة إلى الإسلام؟

وبدلاً من ذلك يعطي كتابي **الإسلام: الأسس**، القارئ الغربي الفرصة للتعرف إلى المبادئ الحقيقية للإسلام كدين؛ وبهذا نعني مفهوم

الإيمان كما صوره القرآن الكريم، وأوضحه الرسول [ﷺ] بالتفصيل، ومارسه الملايين من معتنقيه بطريقة سلمية على مر القرون ـ وذلك قبل وقت طويل من إضفاء الطابع السياسي على بعض أهداف المعتقدات الإسلامية، ما أدى إلى ظهور حركة الإسلاميين ـ وهو الأمر الذي له كل الصلة بالصراع على السلطة، أو صلة بالكاد بالإيمان بالله ومفهوم الاستسلام الواعي والفردي للقدرة الإلهية، وهما ما يشكلان بالفعل حقيقة الإسلام والقلب النابض للوحي فيه. وفي الوقت الذي خلطت فيه عقول الكثيرين بين أفعال أقلية صغيرة من المسلمين وبين تعاليم القرآن وأهداف وغايات ومعتقدات وممارسات الإسلام، أصبحت الحاجة ملحة لتقديم أسرع الديانات انتشاراً في العالم ـ وإن كانت أكثر ما أسيء فهمه بشكل مثير للجدل ـ بصورة واقعية معتدلة وموضوعية. ويُعدّ كتاب **الإسلام: الأسس،** محاولة لتلبية تلك الحاجة.

وكما هي طبيعة الحال بالنسبة إلى المحاولات، لم يكن الأمر سهلاً. بخلاف معظم من أشرت إلى مؤلفاتهم، فإنني لا أدّعي تقديم ما قد يعبّر عن ماهية الإسلام بالتحديد سواء في الوقت الحالي أم في الماضي أم ما يجب عليه أن يكون الإسلام بالضرورة. قيل لي ذات مرة: «لم أعتقد أني لا أعرف ماهية الوقت حتى طلب مني أحدهم أن أعرفه»؛ والأمر نفسه ينطبق على الدين بصفة عامة؛ حيث لم يستطع البشر الإجماع والاتفاق على ماهية الدين إلى الآن. وهو بالطبع ما ينطبق من وجهة نظري بشأن الإسلام، الذي سيظل بالنسبة إلي دائماً ظاهرة مثيرة لكثير من الجدل والنقاش.

ويكمن جزء من المشكلة في تنوع واختلاف أساليب تناول الوحي في الإسلام «القرآن»، من الناحية الفكرية والمنطقية والعاطفية والسياسية الاجتماعية، والتي تجتمع في النهاية تحت مظلة واحدة مناسبة. إلا أن الأمر لا يتطلب الكثير للتعرف إلى الحقيقة الفعلية للإسلام؛ فبمجرد إزاحة الغطاء الخارجي، سنجد أن الإسلام ليس بالكتلة الحجرية الأحادية، بل هو كيان ضخم متعدد الجوانب، تختلف طرق التعبير عنه وتتعدد باختلاف وتعدد المعبّرين عنه. ومن هنا، فمن المستحيل أن نتحدث عن الإسلام من دون توصيفه.

وعلى سبيل المثال، هناك في الإسلام مذهبان: السنة والشيعة، واللذان يراهما البعض انقساماً سياسياً، في حين يراهما البعض الآخر انقساماً دينياً. وفي إطار هذين المذهبين تندرج طوائف وتقسيمات أخرى (وليس بالضرورة أن تنطوي كلمة «تقسيمات» على معنى سلبي يسيء إلى ذلك التصنيف، فهي تأخذ المعنى الفعلي للكلمة من تقسيم، وليس بالضرورة أن يكون معناها جماعات متفرعة متضادة أو منفصلة بعضها عن بعض ما لم يذكر غير ذلك صراحة). والمذهب السنّي في الإسلام يضم أربعة مذاهب فقهية، واختلاف هذه المذاهب يعني أن من يتبع أحدها سيختلف اختلافاً بسيطاً في طريقة ممارسته وتطبيقه للأوامر والجوانب الفقهية للدين عن تابعي المذاهب الأخرى. أما على الصعيد الآخر، عند الطائفة الشيعية التي تُعدّ ذات مدرسة فقهية خاصة بها، فمن يتبعون هذا المذهب يحاكون الأئمة الفقهاء في كل ما يقومون به من حيث الممارسات الدينية، والأئمة الفقهاء كُثُر. وتتعدد الفرق التي تندرج تحت الطائفة الشيعية، ومنها

على سبيل المثال «الفرقة الإسماعيلية»، والتي تنضوي معتقداتها على الكثير من الاختلافات من حيث العلوم الدينية والنواحي السياسية.

ثم هناك «الصوفية»، التي تضم العشرات إن لم يكن المئات من «الطرق» التي تشترك كلها في معتقداتها الأساسية، لكنها تختلف حول التفاصيل أو حول الأمور المفاهيمية الأوسع نطاقاً ذات الصلة بالعقائد والارتقاء الروحي الشخصي. وهناك من الصوفية من يتبعون المذهب السُنيّ، بينما هناك من يتبع المذهب الشيعي، بل هناك أيضاً من الصوفية من يدعي عدم اتباعه لأي من المذهبين. وكما إن هناك تداخلاً بين مختلف هذه المذاهب في الإسلام، فقد تعددت أيضاً الفروق والاختلافات الداخلية من حيث النواحي العقائدية والفقهية داخل كل من تلك الطوائف والفرق، بحيث قد يعتقد المرء ـ كما يظن الكثيرون ـ أن أشكال الإسلام تتنوع وتتعدد بقدر ما يوجد في العالم من مسلمين. ولكن بما أن البشرية ما هي إلا مجموعة من الأفراد يفهم كل منهم العالم من حوله بطريقته الخاصة، فهل يعد هذا التنوع في مذاهب الإسلام وفرقه مثيراً للدهشة بالفعل؟ على النقيض تماماً، هذا التنوع ليس متوقعاً فحسب، بل يجب أيضاً استحسانه. وفي الأحوال كلها، ألم يكن الرسول محمد [ﷺ] هو القائل: «اختلاف أمتي رحمة». ومن هنا، اعتمد هذا الكتاب على التنوع في قلب التجربة الإسلامية كفرضية أولى.

أما الفرضية **الثانية**، التي نستند إليها هنا، هي ضرورة فصل الدين عن الوحي الذي نما من خلاله؛ فالقرآن بمبادئه وقيمه شيء، والتجاوب المجتمعي له في صورة «دين منظم» شيء آخر. قد يتناقض

في معظم الأحيان الإسلام ـ أو على الأقل مع ما يقدمه القرآن عن الإسلام ـ مع واقع تصرفات وسلوكيات المسلمين، وهو أمر يجب إدراكه وإقراره؛ إذ ليس من المعقول أن يحاسب الإسلام من جراء ما يقوم به من يعتنقوه. وهناك العديد ممن يؤيدون هذه الفكرة، ومنها ـ وإن كان ليس أقلها وضوحاً ـ ما يفرده القرآن ذاته من سبب وهو أن معظم من يدّعون الإسلام بعيدون تماماً عن الصورة المثالية للإسلام التي جاءت في القرآن. وفي النهاية، إن تحديد مفهوم الإسلام استناداً إلى تصرفات وسلوكيات عدد من المسلمين، سيؤدي بنا إلى الوقوع في الشرك الذي حرصنا منذ بداية هذه **المقدمة** على تفاديه.

أما الفرضية **الثالثة**، التي اعتمد عليها الكتاب، هي أن كل ما جاء به من تفسيرات وشروح نابعة من شخصي أنا. ولمن يهمه الأمر، فإن تلك التفسيرات التي قد تكون شخصية تستند إلى سنوات من الدراسة الأكاديمية للقرآن والدين الإسلامي، وخبرة عملية قضيتُ فيها نصف عمري، واكتسبتها من الحياة وسط أناس يصفون أنفسهم بالإسلام سواء في بريطانيا أم في خارجها. وبطبيعة الحال، هذه الخبرة لا تجعل من تلك التفسيرات تفسيرات نهائية لأنني في الواقع لا أعتقد أن هناك أي تفسيرات نهائية لهذه القضية. لكن في أفضل الأحوال، يمكننا أن نقول إن رؤيتي للإسلام ستكون محاولة للاقتراب بشكل أكثر من الرؤية القرآنية للإسلام، بخلاف تفسيرات الآخرين ممن تأثرت نظرتهم ومفهومهم للإسلام بالناحية المادية فحسب، ما قد يجعلهم على استعداد للتغاضي عن أمور مهمة مثل الأمانة الفكرية والأدبية والأكاديمية، كلما ارتفعت المبيعات.

وهكذا أرحب بكم لنبدأ معاً استكشاف الإسلام من خلال كتاب **الإسلام: الأسس**، وهو عبارة عن دراسة لظاهرة الإسلام المتمثل من خلال الوحي القرآني من جهة، وعقائد وممارسات الإسلام التي يعتنقها الملايين من الناس حول العالم من جهة أخرى.

كولين تيرنر
دورهام، صيف ٢٠٠٥

■ **لمزيد من القراءة والاطلاع**

ولمن يهتم بمزيد من المعرفة عن هذا الموضوع، هناك مؤلفات تقدم فكرة أولية عامة عنه، تتضمن الإسلام كدين من ناحية، وسياسات وتاريخ المسلمين في العالم أجمع من ناحية أخرى.. ومن أوسع هذه المؤلفات انتشاراً بين القرّاء وأكثرها موضوعية مؤلَّف جي. إل. إسبوزيتو (J. L. Esposito) **الإسلام: الصراط المستقيم** *(Islam: The Straight Path)* (١٩٩٤)، وهو يتناول قصة نشأة المجتمع الإسلامي، إضافة إلى مبادئ الإسلام ومسألة التناقض بين السُنّة والحداثة، وكذلك موضوع انتشار الإسلام في القرن العشرين. أما بالنسبة إلى الباحث عن مقدمة مختصرة لتاريخ العالم الإسلامي، فكتابي **عالم المسلم** *(The Muslim World)* (٢٠٠٠)، يُرى كواحد من أفضل الكتب الموجزة المتوافرة التي تعطي فكرة عامة الموضوع؛ فهو يأخذ القارئ في رحلة تمتد على مدى مئة صفحة فحسب، تبدأ بولادة محمد [ﷺ] عام ٥٧٠ بعد الميلاد، وتنتهي بعام ٢٠٠٠. ولقلة عدد صفحاته، يمكن للقارئ الانتهاء من قراءته خلال جلستين أو ثلاث. وأخيراً، هناك كتاب نيل روبنسون (Neal Robinson) **الإسلام: مقدمة مختصرة** *(Islam: A Concise Introduction)* (١٩٩٩)، وهو يجمع بين تناول عام للتاريخ الإسلامي، مع إضافة آراء فطنة تخص بعض أمور الدين والعقيدة والممارسة.

الفصل الأول

رسول الإسلام

«إنه محمد... مؤسس عشرين إمبراطورية دنيوية أرضية وإمبراطورية روحية واحدة؛ فبكل ما يقاس به عظمة الإنسان من مقاييس، قد نتساءل هل هناك من هو أعظم منه على وجه الأرض؟

لامارتين(*).

إذا ما كان هناك فرد مثل محمد يتولى حكم العالم المعاصر وحده، فهو بلا شك الوحيد القادر على حل مشاكله كافة، الأمر الذي سيعود على العالم بما هو في أشد الحاجة إليه، السلام والسعادة.

جورج برنارد شو.

«قد يأتي اختياري لمحمد ليكون على رأس قائمة أبرز من أثروا في العالم كمفاجأة للبعض ومدعاة للتساؤل والشك من البعض الآخر، إلا أنه الوحيد الذي نجح نجاحاً منقطع النظير على الصعيدين الديني والدنيوي.

مايكل ج. هارت(**).

(*) Alphonse de Lamartine, *Histoire de la Turquie.*

(**) Michael H. Hart, *The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History* (New York: Hart Pub. Co., 1978).

في اعتقادي، ليس هناك في العالم من لم يسمع بمحمد [ﷺ] إلا أقل القليل؛ فبالنسبة إلى المسلمين، هو بالطبع ذلك اليتيم الذي أصبح رسولاً لله، والذي أبلغ البشرية أجمع رسالة التوحيد ومفتاح معضلة وجود الإنسان: الإسلام أو هذا الاستسلام التام الواعي لإرادة الله الإله الواحد الحق مالك الملك. أما بالنسبة إلى من لم يختر اتباع تعاليمه، فهو ذلك الرجل الذي كان أساس ومحور قيام إمبراطورية هائلة امتدت من إسبانيا إلى الهند، وهو المؤسس الغامض والمثير للجدل في كثير من الأحيان لدين عالمي يعتنقه أكثر من مليار شخص على وجه الأرض. وعلى هذا، فإنه يشاد به في معظم الأحيان ـ وحتى من معارضيه ـ كرسول ورجل دولة، كشخصية من تفردها وتميزها اختيرت على يد مجموعة من الكتّاب والأكاديميين الغربيين لتكون الأكثر تأثيراً في تاريخ العالم؛ فمن الصعب أن تجد من لم يكوّن فكرة ما عن محمد [ﷺ] عند القراءة عنه، وإن وجدوا فهم قلة، بل إن العديد ممن لم يقرأ عنه شيئاً، غالباً ما يغامرون بتكوين على أي حال رأي عنه قد يتأثر بآخر الأخبار عن «الحركات الأصولية الإسلامية»، أو ببساطة لأن الطبيعة البشرية غالباً ما تدفع الإنسان إلى إسباغ صفة القدسية على كل ما يتجاوز مداركه. لكن من هو محمد [ﷺ] في الحقيقة؟ وما هو دوره في نشأة واستمرار ذلك اللغز المسمى بالإسلام؟

أولاً: ماذا نعرف عن محمد [ﷺ] وكيف حصلنا على هذه المعلومات؟

يرى البعض ـ وهو رأي له ما يبرره ـ أن ما لدينا من معلومات عن محمد [ﷺ] يفوق بكثير ما لدينا من معلومات عن أي رسول أو

مؤسس آخر لأي دين؛ فإن قدر المعلومات المتوافرة عن مختلف نواحي حياة هذا الرجل ليثير الدهشة، بدءاً من السرد المفصل عن دوره كرسول للأمة، حتى أكثر اللحظات الحميمية في حياته الخاصة؛ فنحن نقرأ ليس عن المحاولات والصعاب التي واجهها لتحقيق رسالته وعن الحروب والغزوات التي خاضها دفاعاً عن المجتمع الدولة الذي أقامه في المدينة فحسب، بل يمكننا أيضاً أن نبحر في أعماق حياته الخاصة لنكتشف الكثير مما هو مذهل عن مختلف نواحي سلوكه كإنسان عادي؛ لنرى كيف كان يأكل وكيف كان يشرب، وكيف كان يتعامل مع الغرباء، وكيف كان يعامل أسرته. بل أيضاً كيف كان يقضي حاجته وكيف كان يتوضأ وكيف كان يتعامل مع زوجاته في اللحظات الحميمة؛ فعلى ما يبدو لا يوجد أي محظورات حول هذا الرجل، ليس هناك باب في حياة هذا الرجل المتفرد سواء أكانت خاصة أم عامة وإلا كان مفتوحاً أمامنا لنجول في ما وراءه.

إلا أن هذه المعلومات لا نجد إلا القليل منها (إن وجدت) في القرآن؛ فالقرآن لا يشير إلى محمد [ﷺ] إلا في أضيق الحدود، والقرآن قد يكون مرجعاً لأمور للناس كافة، لكنه ليس بأي حال من الأحوال مجمعاً لحياة محمد النبي [ﷺ]، لا بل في الحقيقة إن قدر المعلومات الفعلية الثابتة المتوافرة عن حياة محمد [ﷺ] في القرآن لا يتعدى بضعة آيات قد لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة، بل إن اسمه لم يذكر في القرآن كله إلا أربع مرات فحسب. وهكذا إن لم يكن هذا القدر الوافر من المعلومات المفصلة عن محمد [ﷺ] مصدرها القرآن فما هو مصدرها إذاً؟ أي باختصار، كيف توصلنا إلى ما نعرف من معلومات عن رسول الإسلام؟

١ ـ الحديث

لم يشتهر عرب مكة وقت محمد [ﷺ] بالأدب المدوّن: فبينما كان موطن قوتهم وتميزهم الشعر، إلا أنه كان يتناقل في ما بينهم شفاهة وأقل القليل منه ما كان يدوّن، ولهذا كانت ملكة الحفظ والاستظهار شيئاً يقدّره العرب أعظم التقدير؛ فأساطير الماضي وتاريخ كل قبيلة كان يأخذ من أبيات الشعر شكلاً تتناقله الأجيال شفاهة.

واستمرت هذه الثقافة الأدبية الشفهية السائدة قائمة حتى في عهد ظهور محمد [ﷺ] مع أواخر القرن السادس الميلادي وبقوة. إلا أنه مع نمو وتطور مراكز التجارة مثل مكة، إضافة إلى استقرار البدو التدريجي في المدن، قامت صحوة تتناسب مع هذا التطور العمراني في تعلم القراءة والكتابة، وكذلك في تقدير العامة لأهميتهما ومكانتهما. ولهذا، فمن غير المعقول ألا يكون ظهور رسول لله له ما يميزه قد دوّن في بعض الكتابات، أو علق بشأنه من قبل الكتّاب والمؤرخين في ذلك الوقت. كما إنه من غير المعقول أيضاً ألا يرغب الصحابة والتابعين المقربين له في تدوين ما جاء على لسانه من أقاويل لتتناقلها الأجيال بعدهم، وهو من قال عنه القرآن إنه ﴿**رسول الله للناس أجمعين**﴾.

ويعتقد المسلمون اليوم بالفعل أن معظم ما قام به الرسول من أعمال، أو ما قاله قد دوّن لتعرفه الأجيال القادمة وتعرف هذه الروايات المدونة منفردة بـ «الأحاديث»، ومجمعة بالحديث (وعادة ما كان يترجم ذلك إلى الإنكليزية بمسمى التراث النبوي).

وترجع المشكلة الرئيسة في ما يخص الأحاديث النبوية أن ما سُجِّل منها كتابة لم يظهر إلا بعد مئتي عام من وفاة الرسول [ﷺ]، حيث ظهرت ستة أجزاء موثقة، يضم كل واحد منها الآلاف من الأحاديث. وعلى هذا، فإن كانت الروايات عن حياة الرسول [ﷺ] قد دوّنت في حياته، ولما لم يظهر دليل على وجودها إلا في منتصف القرن التاسع الميلادي، اختلفت التفسيرات وتعددت في ما يخص هذا الصدد، ومنها ما يلي:

أ ـ على الرغم من أن هذه الروايات قد دوّنت في حياة الرسول [ﷺ]، فهي لم تجمع إلا في منتصف القرن التاسع الميلادي. وحين ظهرت الأجزاء الستة المجمعة النهائية، فقدت المصادر التي جمعت هذه الأجزاء تدريجياً. وعلى هذا لم يتبقَ لدينا الآن سوى هذه الأجزاء المجمعة من دون أي دليل على المصادر التي قامت عليها.

ب ـ هذه الروايات لم تدوّن في حياة الرسول [ﷺ]، بل كانت تتناقل من جيل إلى جيل شفاهة. إلا أنه وجد في نهاية الأمر، حتى يتم تجنب وقوع أي أخطاء في تناقلها، أن يتم تدوينها.

ج ـ غياب أي من المصادر المدونة قبل أواسط القرن التاسع الميلادي، جعل من المرجح عدم وجود شيء له أهمية مدوناً في حياة الرسول [ﷺ]، إلا أن هذا لا يمكن إثباته بشكل نهائي؛ فبعض الأحاديث التي دونت بعد وفاة الرسول بعامين اعتمدت على الأقاويل، وقد ترجع بالفعل إلى عهد محمد [ﷺ]، إلا أن معظمها روايات مختلقة من عهد لاحق تمت لأغراض سياسية وأيديولوجية.

ويرى المسلم القويم المعتقد أن معظم ما ظهر من أحاديث منذ عام ٨٥٠ بعد الميلاد صحيحة، سواء أكانت مصادرها مكتوبة أو شفهية، إلا أن بعض المسلمين يقبل احتمالية وجود تزييفاً لاحقاً ولهذا السبب يتعاملون مع الأحاديث بقدر من الحذر المشوب بالاحترام. أما من انتقد الحديث من غير المسلمين، فيميل بعضهم إلى قبول روايات المسلمين وإن كان مع بعض التحذيرات، أما البعض الآخر فيرفضه تماماً ويراه اختلاقاً تم في عهود لاحقة. ومما لا يساعد أيضاً هو اختلاف كل من السُنّة والشيعة من حيث قبول الصحيح من الأحاديث.

وإذا ما أمعنا النظر في تاريخ وبنية الحديث النبوي، قد يساعد ذلك على إيضاح لماذا هذا الموضوع يثير الجدل بهذا الشكل.

تعتبر المجموعتان اللتان جمعهما كلاً من محمد بن إسماعيل البخاري (عام ٨٧٠) والإمام مسلمٌ بن حجاج (عام ٨٧٤)، المجموعتان الرئيستان بالنسبة إلى السُنّة، وهو الأمر الذي يزيد من التخبط حقاً. يحتوي **صحيح البخاري** على حوالى تسعة آلاف حديث، بينما يحتوي **صحيح مسلم** على حوالى أربعة آلاف حديث، وتتضمن المجموعتان العديد من الأحاديث المكررة. إن إطلاق كلٍ من الإمامين على مجموعته اسم **الصحيح**، تدل على قناعتهما أن ما قد جمعاه هو الصحيح.

وهنا عدد آخر من جامعي الأحاديث وبالأخص جامعي الأحاديث من الشيعة، قد قبل وجود بعضاً من الأحاديث المحرفة التي قد دخلت ضمن هذه الأحاديث.

ويعد **صحيح البخاري** بالنسبة إلى معظم المسلمين أهم النصوص الدينية بعد القرآن الكريم. أما السُنّة، فهم يرون في **صحيح مسلم** مجموع الأحاديث الصحيحة. ويضم **صحيح البخاري** حوالى تسعة آلاف حديث في تسعة مجلدات تم تصنيفها وفقاً للموضوعات، وهي تتناول أقوال محمد [ﷺ] وأفعاله في كثير من الأمور كالإيمان والصلاة والوضوء والزكاة والصوم والحج والتجارة والمواريث والجرائم والعقوبات والوصايا والقسم والحرب والأكل والشرب والزواج والصيد. أما بالنسبة إلى **صحيح مسلم** ـ الذي يضم حوالى أربعة آلاف حديث ـ فقد قسم إلى ٤٢ كتاباً يتناول كلٌّ منها موضوع مختلف.

وتتشابه الموضوعات التي يغطيها **صحيح مسلم** مع موضوعات **صحيح البخاري**؛ فالفارق بين المنهجين لا يذكر. وقد اشتهر الإمام البخاري بدقته المتناهية في التحقق من مدى صحة الحديث وتتبع «تسلسل تناقل الحديث»؛ فهو من استحدث النظام المعروف بـ «علم الرجال»، ويتناول هذا العلم الدراسة التفصيلية لمن قام بنقل الحديث من الرواة شفاهةً. أما مسلم بن حجاج، فقد قام بتقسيم الأحاديث إلى ثلاث فئات رئيسة تبعاً لمستوى معرفة وخبرة وتميز شخصية الراوي، وكذلك مدى خلو الحديث من التناقضات أو الأكاذيب أو المزاعم.

ويضم كل حديث منهما جزئين: **أولهما**، المحتوى الأساسي من النص، والمعروف في اللغة العربية باسم «المتن»، ويحتوي متن الحديث على الرواية المضبوطة لما قاله أو فعله الرسول [ﷺ].

وثانيهما، هو «الإسناد» أو «سلسلة الرواة»، ويضم قائمة من روى هذا الحديث وصولاً في القِدَم إلى أحد صحابة الرسول [ﷺ] ممن تناقلوا رواية الحديث شفاهة عبر التاريخ. وعلى سبيل المثال، تبدأ معظم الأحاديث بالجملة التالية:

«حدثنا فلان عن فلان عن فلان أن فلان سمع الرسول [ﷺ] يقول:...»

يشير نص الحديث السابق إلى مقولة لمحمد [ﷺ] سواء قالها كتعليق عام أو، كنصيحة أو، كرد على سؤالٍ ما. وهذه الأقاويل المحفوظة لم يقلها في إطار صفته كرسول، وبالتالي لا ترقى إلى المستوى نفسه لما جاء بالقرآن.

ولا تسجل الأحاديث أقوال الرسول [ﷺ] فحسب، بل هي أيضاً تسجل أفعاله كما شهدها من حوله. ويظهر هذا النوع من الأحاديث كالشكل التالي:

«حدثنا فلان عن فلان عن فلان أن فلان رأى الرسول [ﷺ] يقوم بـ...»

وعلى هذا، فإن صيغة الحديث نفسها قد تفتح الباب لبعض التحريف سواء أكان الأمر بسبب فكرة تناقل الحديث من لسان إلى آخر، وما قد يتبع ذلك من أخطاء، أو بسبب إمكانية التعديل والتحريف لمن يرغب أياً كان السبب أو الغرض في وضع كلمات على لسان الرسول [ﷺ] لم يقلها. وما زال حتى يومنا هذا الجدل

قائماً حول صحة نصوص الأحاديث النبوية، مع وجود مجموعات ترى بحدة في تقييمها للأحاديث النبوية أنها مصدراً موثوق به بشأن سيرة الرسول [ﷺ]، ولكن أيضاً حجر الزاوية للشريعة الإسلامية من حيث النظرية.

٢ ـ سيرة رسول الإسلام

تعتبر «السيرة النبوية» مصدراً من مصادر سيرة الرسول [ﷺ] الذاتية، إلا أنها هي الأخرى تدور حولها المشكلات والجدل نفسه الذي يدور حول الأحاديث.

وتأتي إشكالية سيرة محمد [ﷺ] الذاتية في أنها لم تدوّن إلا بعد وفاته بقرن. وجاء ذلك على يد ابن إسحق وهو من سكان المدينة، حين كرّس الكثير من وقته لجمع الحديث وأقاويل وذكريات حول السنوات الأولى للمجتمع الإسلامي وحياة محمد [ﷺ] بخاصة. ولم يصمد المؤلَف نفسه الذي ظهر في أوائل القرن الثامن طويلاً، إلا أن العديد من المؤرخين المسلمين الأوائل استشهدوا بالكثير منه، وبالتالي كان من السهل إعادة تجميع معظم كتاب ابن إسحق عن طريق استخلاص ما جاء به من مؤلفات الآخرين.

وعلى الرغم من الأهمية التاريخية الكبيرة للسيرة كأول مصدر معروف للمعلومات عن حياة الرسول [ﷺ]، فلقد هاجمها العديد من المؤرخين ـ بعضهم من المسلمين ـ ورأوا أنه لا يمكن التعويل عليها، افتراضاً كما هو الحال بالنسبة إلى الحديث ورأيهم

بعدم الثقة بما جاء فيه. ولهذا يجب على المرء عند تناول السيرة المحمدية، توخي الحذر عند محاولة جمع أجزاء هذا اللغز الذي يشكل حياة أهم الشخصيات في العالم.

وهناك بالفعل الكثير من الجدل المثار بين المؤرخين ممن قاموا ببحث فترة مولد الإسلام وقيام العالم الإسلامي حول إمكانية الاعتماد فعلياً على المصادر التاريخية أول الإسلام، حتى إن بعض النقاد وصلوا إلى درجة قول إن حياة محمد [ﷺ] غير قابلة للتجميع، بينما يدعي البعض الآخر أن الكثير مما تتناقله الأجيال على أنه تاريخ الفترة الأولى للإسلام ما هو إلا نتاج روايات مختلقة لاحقاً.

إلا أنه مع غياب بدائل أخرى تصلح، فهي تعد كما غيرها من المصادر التاريخية بهذا القدم نفسه من حيث التعويل عليها أو عدم التعويل عليها وعلى هذا، يجب علينا أن نحسن الظن برواية المسلم السماعية، والتي تُعدّ جديرة بالثقة مثلها مثل ما روي، أو أكثر مما روي بعدها بقرون على يد بعض المؤرخين المنقحين الذي في نفس كل منهم ما يروم إليه. ولنبدأ معاً بالسيرة النبوية، علينا الرجوع إلى أكثر من ١٤٠٠ عام إلى مكة مسقط رأس محمد [ﷺ] ومهد دين الإسلام والتي تقع في شبه الجزيرة العربية.

٣ ـ شبه جزيرة العرب قبل الإسلام

إن الفكرة القديمة التي ترى في الإسلام ديناً للصحراء، موجّه خصيصاً لعقلية ساكنيها، هي واحدة من تلك الأساطير التي ما زال

هناك من يعتقد بها حتى بعد أن ثبت زيفها، مثلها مثل مقولة إن الإسلام انتشر بالسيف. هناك اعتقاد شبه راسخ أن تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب نفسه، وأنه قبل قدوم محمد [ﷺ] لم يكن للعرب تاريخ يستحق الحديث عنه. لكن الإسلام لم يأتِ من فراغ، وكذلك لم يكن مؤسسه أو المجتمع الذي نشأ فيه من دون ماضٍ يسبقه. إنه هذا التاريخ ـ تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ـ الذي يجب علينا أن ننقب عنه حتى يمكننا التعرف إلى عقلية محمد [ﷺ] وفي أي إطار تولدت وتعمقت، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ظهور الإسلام ونشأة الحضارة الإسلامية وهو ما سيسهل علينا استيعاب هذه الأمور وإدراكها.

على الرغم من معرفة مؤرخي العصر القديم بالعرب وبشبه الجزيرة العربية، فإننا، لغرض هذا الكتاب، سنبدأ القصة من منتصف القرن السادس الميلادي، أي بعد وفاة المسيح عيسى [عليه السلام] بخمسمئة عام. وتدور الأحداث في منطقة شبه الجزيرة العربية، وهي مساحة صحراوية صخرية شاسعة تمتد إلى حوالى ٧٠٠ ميل عرضاً و١٠٠٠ ميل طولاً. لقد كانت حياة من عاش هناك بشق الأنفس، حيث الشمس الحارقة وظروف المعيشة الصعبة، ولهذا كان الاستمرار في الحياة تحت هذه الظروف يعد إنجازاً في حد ذاته. إلا أن سواحلها كانت تمتلئ بالموانئ الصغيرة والتي أصبحت ملاذاً للمغامرين من البحارة، مشكّلة جزءاً مهماً من شبكة التجارة التي ربطت الهند وبلاد الرافدين بشرق أفريقيا ومصر ومنطقة البحر المتوسط. كما إن منطقة جنوب شبه الجزيرة قبل ميلاد المسيح [عليه السلام]

بمئات السنين، بل وبعد ميلاده، موضعاً للعديد من الممالك المزدهرة التي كانت مؤسساتها الاجتماعية توازي في تطورها ما كانت عليه غيرها من الممالك في ذلك الحين. إلا أن ظهرت مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي أدت إلى التغير التدريجي في البنية الديمغرافية للجزيرة العربية. ومن هذه العوامل يمكننا أن نذكر ـ ونستند في ذلك إلى المؤرخين في ذلك الوقت ـ انفجار وتحطم سد مأرب في اليمن. وهو ما اضطر على أثره سكان المنطقة إلى الهجرة نحو الشمال، حيث فقدوا ذلك التأثير الحضاري لإمبراطوريتي المنطقة العظيميين ـ الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية ـ ما جعل مجتمعهم مجتمعاً قبلياً يعتمد على رعي الأغنام والترحال كالبدو. كانت هذه هي الظروف في الجزيرة العربية أثناء عهد محمد [ﷺ]... الجزيرة العربية التي لم تتغير كثيراً منذ ذلك الوقت.

٤ ـ المجتمع العربي وثقافته

بينما عملت بعض القبائل العربية في التجارة بين دول منطقة البحر المتوسط والبحار الجنوبية، كان العدد الأكبر منهم يعمل على أن يحيا حياته وإن كانت صعبة بالإغارة على القبائل الأخرى، أو الاستيلاء على القوافل التجارية، أو برعي قطعان الجمال أو الخراف والماعز في حياة سادها الترحال المستمر. إلا أن الصورة القديمة للبدوي غير المتحضر إلى حد كبير مضللة؛ ففي الحقيقة، كانت تلك الحياة الصحراوية معروفة بقيمها ومُثُلها العُليا، وكانت صفات

الرجولة والشجاعة والكرم وحسن الضيافة، من الأمور التي يقدّرها العرب كثيراً. حتى أن الغارات ومحاولات الثأر بين القبائل كانت تتم وفقاً لقواعد محددة وإن كانت غير مكتوبة. وكان العرب يعشقون الشعر، فأنتجوا تراثاً غنياً من الأدب الراقي الذي كان ينتقل من الآباء إلى الأبناء ومن قبيلة إلى أخرى شفاهة. بل في الحقيقة ما كان يمثل أساس هذه الحياة البدوية هو ذلك الولاء التام للقبيلة وما يمثله من قيم؛ ففكرة أن تتكون للفرد شخصية مستقلة بعيداً عن قبيلته لم يكن أمراً مطروحاً في الأذهان آنذاك.

وفي نهاية القرن السادس، بدأت الأمور تتغير، ازداد عدد السكان ما أدى إلى البحث عن الاستقرار. وكانت مكة إحدى هذه الواحات، حيث الاستقرار في ذلك الحين؛ فمع موقعها بين طريقين رئيستين للتجارة، تمتعت مكة بدرجة من المكانة العالية منذ قديم الزمان. لكن الأهم من ذلك هو تميزها كأكثر المدن قدسية في الجزيرة العربية ككل، وهي مكانة لا تزال مكة تتمتع بها حتى الآن وإن كانت الظروف المحيطة قد تغيرت.

وغالباً ما وُصف العرب قبل الإسلام بالوثنيين، وهو الأمر المضلل؛ فلقد آمن العرب بمجموعة من آلهة الطبيعة والشياطين والأرواح. وكان مركز عبادتهم الكعبة، وهي بناء مكعب يقع في وسط مكة، وكان البناء الأول والأصلي لها على يد النبي إبراهيم [عليه السلام]، وذلك وفقاً لما أدعاه المسلمون في ما بعد. وكان حول الكعبة العديد من التماثيل التي وصل عددها في الأصل إلى حوالى

٣٦٠ تمثالاً، والتي كان العرب يصلّون لها ويقدمون لها القرابين. ويراقب كل هذا «الإله» وهو ما اختصر بعدها ليصبح «الله».

لكن «الله» عند العرب قبل الإسلام يختلف اختلافاً كبيراً من حيث المفهوم عن الله الذي ظهر بعدها؛ فلقد كان بالفعل الإله الأعظم، ولكنه كان من وجهة نظرهم بعيداً عن أحوال الحياة اليومية، ولقد رأوا فيه الإله الخالق للسماوات والأرض، لكنه ليس المعبود الأوحد؛ فالبدو لم يكونوا مشركين بالله كما صُوّروا عادة، بل كانوا يؤمنون بوجود العديد من الآلهة مع وجود رب رئيس. إن الفارق بين الشرك بالله والإيمان بتعدد الآلهة، بسيط، وإن كان الأخير يصف ما كان عليه دين أهل مكة قبل ظهور الإسلام.

كانت فترة الأشهر الحرم، وهي أربعة أشهر، حرّم فيها القتال بين القبائل، هي الفترة التي تستقبل فيها مكة في هيكل آلهتها الحجاج من أنحاء الجزيرة كافة، حيث كانت رحلتهم إلى هناك لتقديم فروض الطاعة لمعبوداتهم. وبجانب أهمية الحج في منح العرب مركزاً محورياً للتفاعل والارتباط بآلهتهم، كان مصدراً مهماً للدخل لأهالي مكة الذين شهدوا تطور مدينتهم لتصبح أكثر مدن المنطقة ازدهاراً.

إلا أنه مع تزايد ثراء مكة والصفوة بها، تزايد الفارق بين أغنيائها وفقرائها، وهو الأمر الذي أدى إلى إلقاء بعض الشك على هذا الولاء التام للقبيلة نتيجة متطلبات التجارة وتزايد الاستهلاك.

ويروي لنا المؤرخون أن المجتمع المكّي قد تحول قبل ظهور الإسلام بقليل إلى غابة هجرت فيها القيم القبلية السامية وظهرت مكانها ثقافة البقاء للأقوى، يغذّيها الحقد، ويدعمها الجشع. وإنه في خضم هذا كله، ظهر رسول اللّه ومخلّص البشرية محمد [ﷺ].

٥ ـ مولد محمد [ﷺ] وطفولته

تؤكد الروايات الإسلامية أن محمداً [ﷺ] قد ولد في مكة عام ٥٧٠ ميلادية. ومات والده عبد الله قرب مولده، أما أمه آمنة فقد توفيت بعد ولادته بأعوام قليلة. ويشير القرآن صراحةً إلى حقيقة أن محمد [ﷺ] كان طفلاً يتيماً: ﴿**ألم يجدك يتيمًا فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى**﴾[1].

ولا يذكر القرآن أي شيء عن جوانب حياة محمد [ﷺ] في طفولته وأعوامه الأولى، لذا للتعرف إلى تطور شخصية محمد [ﷺ]، علينا الاعتماد على روايات الحديث المذكورة آنفاً ـ وإن كان الأمر ينبغي ألا يخلو من بعض الحذر. ووفقاً لهذه الروايات، تلازم حمل آمنة بمحمد [ﷺ] وولادتها له مع العديد من المعجزات والعلامات؛ فعلى سبيل المثال، حكى بعض الناس عن رؤيتهم لضوء يسطع من بيت آمنة يمكن من خلاله رؤية قصور سوريا البعيدة.

وقد لازمت المعجزات البينة محمداً [ﷺ] طوال سنوات عمره الأولى؛ إذ كانت أعراف مكة في ذلك الحين تقضي بأن يبعث الطفل

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الضحى،» الآيات ٦ ـ ٨.

اليتيم إلى مرضعة من البادية لترعاه. وتروي الأحاديث الكثير عن مرضعة محمد [ﷺ] وكيف كان اللبن يملأ ثدييها دائماً وكيف شفي حمارها المريض، وكيف ازدهر وبصفة عامة حال قبيلة تلك المرضعة كلها نظراً إلى التواجد الميمون للطفل محمد [ﷺ].

٦ ـ الشباب وسني الرشد الأولى

لم يذكر القرآن الكثير عن شباب محمد [ﷺ] أو أوائل فترة النضج، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الأحاديث؛ فمحمد [ﷺ] الآن في العشرينيات من عمره، أَلِفَ العمل بالتجارة وحياتها في مكة. وكان من النزاهة والخبرة ما جعلهم يطلقون عليه «الصادق الأمين». وربما كانت تلك الصفات السامية هي التي لفتت نظر السيدة خديجة بنت خويلد ـ وهي سيدة أعمال وأرملة مكية ـ فاستأجرته ليدير لها أعمالها التجارية، ودفعها سلوكه المثالي وقدرته على التصرف إلى الإعجاب به والتقدم لخطبته بعد ذلك. ويعترف محمد [ﷺ] بنفسه أنَّ زواجه من خديجة التي كانت تكبره بخمسة عشر عاماً كان الزواج الأسعد من بين كل زيجاته.

لم يظهر في كتب التاريخ أي أخبار عن محمد [ﷺ] في الفترة من الخامسة والعشرين من عمره حتى الأربعين من عمره، وحتى هذا الحد الزمني لم يكن هناك ما يدل في شخصيته أو في ظروفه على أن حياته لن تكون سوى الحياة المعتادة على الأقل في إطار مكة في هذه الحقبة الزمنية، أي في القرن السابع. إلا أن هذا كله تغير وتغير معه محمد [ﷺ] نفسه وتاريخ البشرية كله بشكل لا يدركه عقل.

٧ ـ الوحي

يروي ابن إسحق في **السيرة النبوية**، وتؤكد روايته الأحاديث، أن محمداً [ﷺ] كان شاباً جاداً متأملاً لم يتواءم أبداً مع ما انتشر في المجتمع المكي من قيم وثنية. يؤكد المؤرخون الدينيون من المسلمين أن محمداً [ﷺ] رفض عبادة الأصنام منذ طفولته، معتنقاً دين النساك الموحدين من الأحناف، وهم من يؤمنون بوجود إله واحد من دون اعتناق اليهودية أو النصرانية. أما بالنسبة إلى محمد الأمين [ﷺ]، فرأى أن اضطراب المجتمع واختفاء العدالة والمساواة الاقتصادية كانت تلحق بالمجتمع الضرر نفسه الذي تلحقه به أعرافهم من عبادة الأصنام والتي كانت تعتبر جزءاً أساسياً من ذلك المجتمع.

إلا أن الشبه مؤكد من تصرفات محمد [ﷺ] هو أنه، وتماشياً مع التراث البدوي، قد أخذ فترات طويلة للتأمل والعزلة والتي كان يتأمل ويفكر خلالها في أسرار وجود الإنسان، ويدعو خلالها ربه أن يهديه. وفي أثناء إحدى خلواته التأملية التي كان يقصد فيها غار حراء، تلقى محمد أولى زيارات الوحي وهي رؤيا، وفيها ظهر أمامه جبريل، سيد الملائكة ـ كما وصفه محمد [ﷺ] نفسه ـ يحيطه النور من كل جانب وقرأ عليه ما يلي: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[٢].

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة العلق،» الآيات ١ ـ ٥.

وعلى الرغم من أن محمد [ﷺ] كان رجلاً بالغاً ـ لكنه كان، بحسب الروايات، في الأربعين من عمره حينما نزل عليه الوحي لأول مرة ـ إذ تركته هذه التجربة يرتعش كالطفل المرتبك. ومن فرط خوفه من هذه الرؤيا المدهشة، اعتقد محمد [ﷺ] في البداية أن مسه مساً من الشيطان. ومع امتلاء عقله بالكثير من الشكوك والريبة، واشتعال قلبه بالرعب والخوف، هبط محمد مسرعاً من الجبل ليدخل في أمان مكة الوثنية، معتقداً أن الشياطين التي تسكن البرية في الصحراء قد أوقعت به غدراً.

إلا أن زوجته خديجة أكدت له أن الأمر ليس كذلك، ومع تكرار زيارات جبريل، ازداد يقين محمد [ﷺ] بأنه اختير من دون الجميع ليحمل هذه الرسالة النبوية، وانتهى إلى أن مصدر ما يصل إليه ليس سوى الله، الله الواحد الذي ظهر لإبراهيم وموسى وعيسى من قبله، وليس للشياطين يد بالأمر.

٨ ـ بداية الرسالة

لم تذكر السيرة تحديداً كم بقي محمد [ﷺ] في حيرته وصراعه مع أفكاره قبل أن يوحي له الله على يد جبريل مرة أخرى؛ فالبعض قال ستة أشهر، والبعض الآخر قال عامان، ومهما طالت أو قصرت هذه المدة، لا بد من أنها كانت بالنسبة إلى محمد كأبد الدهر، ولا يستطيع المرء أن يتخيل إحساس الإحباط والوحدة التي شعر بهما محمد [ﷺ] في هذه الفترة. وعندما زاره جبريل للمرة التالية حاملاً

إليه كلمات الله، أحس محمد [ﷺ] بارتياح كبير، ولم تبق في قلبه ذرة شك سواءً في مصدر الرسالة أم في طبيعة المهمة.

﴿يا أيّها المزّمّل. قم اللّيل إلاّ قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً. إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾(٣).

ومما يبدو أن محمداً [ﷺ] قد تلقى أمراً بتعديل عباداته الروحية والتعبد في جزء من الليل فحسب. كما إنه أمر أيضاً بتكرار ما أوحي إليه من الآيات بحذر شديد، حيث كان من الواضح أن تلك الليلة كانت بداية لسلسلة من الوحي على وشك أن تبدأ. وكانت تلك هي المرة الأولى الذي استطاع فيها محمد [ﷺ] أن يجد مسمىً لتلك الكلمات التي توحى إليه: ألا وهو القرآن أو الذكر. كان عليه أن يرتل ما كان يتلقاه من كلمات أولاً لنفسه ثم لمن حوله من المقربين؛ فما أهمية الترتيل ـ وبخاصةً ترتيل «قولاً ثقيلاً» ـ إن لم يكن لآذان الآخرين؟ وعندما نزل الوحي على محمد [ﷺ] بعد فترة قصيرة من تلك المرة، تأكد واقتنع تماماً أن هذه الرسالة لم تكن ليحتفظ بها لنفسه لفترة أطول: **﴿يا أيّها المدّثّر. قم فأنذر. وربّك فكبّر. وثيابك فطهّر. والرّجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربّك فاصبر﴾**(٤).

٩ ـ أول من آمن

وفي الأيام والأسابيع القليلة التالية ومع نزول المزيد من الوحي، اجتهد محمد [ﷺ] مع من حوله من المقربين، وهم زوجته

(٣) المصدر نفسه، «سورة المزمل،» الآيات ١ ـ ٥.
(٤) المصدر نفسه، «سورة المدثر،» الآيات ١ ـ ٧.

خديجة، وابن عمه الصغير علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] الذي تربى في بيته، وصاحبه الأقرب أبو بكر [رضي الله عنه]، التاجر الثري الذي كان هو الآخر مهتماً بالتأمل والتفكر، وكذلك مولاه زيد بن حارثة. حتى كانوا أول من آمن بما جاء من رسالة:

وهكذا تكوّن أول مجتمع مؤمن في التاريخ الإسلامي على يد المقربين من عائلة محمد [صلى الله عليه وسلم] ومجموعة اتسعت ببطء شديد من أصحابه المقربين الذين استطاع محمد [صلى الله عليه وسلم] أن يثق بهم لكتمان سر الرسالة التي كلّف بها. وتتناول السور المكيّة الأولى من القرآن بشكل خاص المبادئ الأساسية التي تتضمن الرؤية القرآنية للعالم، بما في ذلك وحدانية الله، نبوة محمد [صلى الله عليه وسلم]، ومسألة الثواب والعقاب على أفعال العباد، وحتمية يوم القيامة الذي لا ريب فيه، والحياة الآخرة بعده في الجنة أو النار. ومن أهم السمات التي تميز الحقبة المكيّة من رسالة محمد [صلى الله عليه وسلم] هو التأكيد على أهمية التوحيد وسلامة العقيدة التي لا يصحّ من دونها القيام بالشعائر الدينية. وبالنسبة إلى المجتمع الإسلامي الأول، كان المغزى هو روح القانون وليس نصه؛ إلا أن هذا لا ينفي وجود ما يعبر عن هذا الإيمان القلبي ظاهرياً، فكانت الصلاة سواء الفرد أم الجماعة، إلا أن السور المكية نادراً ما تناولت العبادات في نصها.

١٠ ـ إعادة ترسيخ فكرة الصلاة

في عهد محمد [صلى الله عليه وسلم]، كان الشكل الأصلي لصلاة إبراهيم قد طواها النسيان، ولم تكن الصلاة التي يؤديها سكان مكة لآلهتهم ﴿**إلا مُكاءً وتصديةً**﴾[٥]. فعمل محمد [صلى الله عليه وسلم] على إحياء طريقة النبي الكريم

(٥) المصدر نفسه، «سورة الأنفال،» الآية ٣٥.

العظيم لتأدية الصلاة عن طريق تعليم أهل بيته أولاً كيفية القيام والركوع والسجود لله، مع قراءة أجزاء من القرآن أثناء تأدية تلك الحركات. ومع أن الشكل المبدئي للصلاة قد تعدل وتغير في ما تلا من أعوام، فالشكل العام للصلاة التي أداها محمد [ﷺ] وأهل بيته سراً لم تختلف كثيراً عما يؤديه المسلمون من صلاة في وقتنا هذا.

وأداء الصلاة سراً كانت دليلاً واضحاً على مدى حساسية الموقف في هذه الآونة؛ إذ تمتع محمد [ﷺ] بمكانة عالية وسط أقاربه والمجتمع المكي بصفةٍ عامة، وبخاصة مع ما اشتهر به من الصدق والأمانة، وحقيقة أنه لم يعان يوماً اضطراباً نفسياً أو مرضاً عقلياً يدفع أي شخص للشك في ما يقوله. ومن المنطقي، أن تعمل هذه المكانة التي تمتع بها وسط مجتمعه لصالحه، وأن يكون لها الأثر الكبير في إقناع حتى الأشخاص الأكثر تشككاً بصدقه. لكن طبيعة الرسالة التي جاء بها محمد [ﷺ]، وما تنطوي عليه من تأثيرات في المجتمع المكي ككل لم تكن السمعة الطيبة التي اشتهر بها محمد [ﷺ] تكفي لحمايتها.

١١ ـ الجهر بالدعوة

﴿فاصدع بما تُؤمر وأعرض عن المشركين. إنّا كفيناك المستهزئين. الّذين يجعلون مع اللّه إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾(٦).

وهكذا عندما تأكد محمد [ﷺ] من صدق الرسالة وسموّها، جاء الأمر له بالجهر بالدعوة على الرغم مما راوده من شكوك وقلق.

(٦) المصدر نفسه، «سورة الحجر،» الآيات ٩٤ ـ ٩٦.

وأوضح القرآن تماماً أهمية نشر هذه الرسالة في العالم أجمع مطمئناً محمد [ﷺ] داعماً إياه: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين. فإن عَصَوْك فقل إنّي بريء ممّا تعملون. وتوكّل على العزيز الرّحيم**﴾[٧].

وتروي السيرة أن أولى محاولات محمد [ﷺ] للجهر بالدعوة، كانت حين صعد أعلى تل بالقرب من مكة حيث تجمع حشد صغير لسماعه، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقين»، فأجابوه جميعاً بصوت واحد بـ «نعم»؛ فلقد كان الجميع على علم بما اشتهر به محمد [ﷺ] من صدق وأمانة، «قال فلتعلموا، إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ما لم تتركوا عبادة الأصنام وتؤمنون بالله الواحد الأحد».

أما ثاني محاولاته، فكانت أثناء وليمة دعا إليها عائلته وقبيلته في بيته. ومرة أخرى، لم يكن الرد على دعوته تلك سوى الصمت التام الذي تخلله السخرية من علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]، ابن عم محمد الصغير الذي قام ليدعم دعوة محمد [ﷺ] ويعلن مناصرته له.

وعلى مر الأيام التي تلت، انتشرت في المجتمع المكي الأخبار عن محاولات محمد [ﷺ] لدعوة ذويه وعشيرته بترك عبادة الأصنام، كما انتشرت الأخبار أيضاً عن زيادة عدد المعتنقين لذلك الدين الذي جاء به محمد [ﷺ]. وكلما زاد عدد أتباع محمد [ﷺ] ممن دخلوا

(٧) المصدر نفسه، «سورة الشعراء» الآيات ٢١٤ ـ ٢١٧.

الإسلام، ازداد معه رعب السادة من قريش. فإذا كان محمد [ﷺ] جاداً في رسالته وينوي بالفعل أن يضم الناس إلى جانبه، فإن حياة قريش بأكملها ستكون في خطر جسيم.

١٢ ـ التهديدات الواقعة على قريش

كانت قبيلة قريش تعتبر من أهم القبائل في مكة، حيث كانت تحتل مكانة عالية، وكان لها من الهيمنة السياسية على المجتمع ما لم تكن تنوي التخلي عنه بسهولة. كذلك، كانت قريش تعتبر الراعي غير الرسمي للكعبة، ما أدى إلى اكتسابها مكانة القيادة الدينية في مكة أيضاً؛ إذ تولى أفراد من قبيلة قريش إدارة المنطقة المقدسة والإشراف على الشعائر الدينية التي كانت تؤدى في مكة حتى لقبوا بـ «أهل الله». وبما أن الحج لمجمع الآلهة الموجود حول الكعبة كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باقتصاد مكة، كان من المهم أيضاً أخذ الاعتبارات المادية لقريش بالاعتبار.

من هنا، فإن رفض محمد [ﷺ] لطريقة حياة قريش بأكملها كان في الواقع تهديداً للقبيلة على صُعد كثيرة. إلا أن أكثر ما أزعج قريش في هذا الوقت كان ذلك التأثير النفسي الذي ولّده الحماس المصاحب لرسالة محمد [ﷺ] في نفوس الكثيرين ؛ فمحمد [ﷺ] لم يشكك في طريقة إدارتهم السياسية للبلاد أو كسبهم للأموال فحسب، بل شكك في نظرتهم العامة إلى الحياة وفي نظام القيم الخاصة بهم؛ فعندما ندد محمد [ﷺ] بما تعبده قريش من أصنام، فهو

ندد كذلك بكل ما اعتبره القرشيون مقدساً، بدءاً بالانتساب إلى القبيلة، حتى تبجيلهم لأعراف الصحراء، ومن عبادتهم للعالم الطبيعي من خلال وساطة الأصنام، وحتى اعتدادهم بالأخلاق البدوية التي اعتبروها مثالية مثل الكرم والرجولة وشرف العائلة. شككت رسالة محمد [ﷺ] في أهمية كل ما سبق، وهو ذلك اليتيم غير المعروف، الأميّ الذي تحول إلى تاجر نسبياً، والذي يبدو أنه قد عزم على قلب عالم قريش رأساً على عقب.

١٣ ـ الهروب إلى الحبشة

استمر اضطهاد قريش لمحمد [ﷺ] وأصحابه، وهو ما بدأ على شكل مواقف متفرقة من الشتائم والرمي بالحجارة، حتى اتخذ شكلاً أكثر قسوة عندما استهدفت قريش المسلمين الأكثر ضعفاً وفقراً، وبخاصة أولئك العبيد الذين رحبوا برسالة محمد [ﷺ] وانضموا إلى صفوف المسلمين الأوائل، ولا سيما أنها لا تستطيع عقاب محمد [ﷺ] أو إيذائه بصورة مباشرة. ومن هؤلاء المعذبين الضعفاء كان عمار بن ياسر. كان المشركون يخرجونه هو وأمه سميّة وأباه ياسر إلى الفلاة، تحت لهيب الشمس ليرتدّوا عن دين محمد [ﷺ] وللأسف كانت سميّة الأكثر عرضة لهجمات الطغاة، فباتت الشهيدة الأولى في تاريخ الإسلام.

وكان لاستشهاد سميّة أثره النفسي في تطور المجتمع المسلم، ودفعت هذه الحادثة بمحمد [ﷺ] وأصحابه إلى التفكير في مستقبلهم

بمزيد من الحذر. وبالطبع، كانت إحدى الخيارات التي دارت في أذهانهم هو الهروب من مكة جماعة، لكن لم يصدر أمراً إلهياً بذلك حتى لو قرروا الهجرة، فأين سيذهبون؟ إلا أن الاستمرار في مكة بظل هذه الظروف كان سيعتبر تحدياً للقدر، ما كان سيجلب عليهم المزيد من القهر والقمع؛ فكلما زاد عنف المعارضة من قريش، زادت احتمالية ترك المسلمين الجدد الإسلام؛ أو دفع هذا المجتمع إلى العودة إلى اعتناق عقيدة الإسلام سراً.

عاش المسلمون في حيرة لفترة حتى توصلوا إلى حل وسط باركه محمد [ﷺ] لإنقاذ الوضع؛ إذ تقرر إرسال مجموعة من المسلمين، مكوّنة من أحد عشر رجلاً وأربع نساء إلى الحبشة في سفينة للتجار؛ حيث اشتهر النجاشي، حاكم بلاد الحبشة بالتسامح والكرم، وهكذا أبحرت مجموعة المهاجرين الأُوَل من المسلمين إلى الساحل الأفريقي، أملاً في الحصول على الملاذ الآمن في بلاط هذا الحاكم.

وإذا ما استرجعنا ما حدث، فسنجد أن الهجرة الأولى إلى أفريقيا قد تبدو كمحاولة مبكرة لنشر رسالة الإسلام أكثر منها إجراء للهروب من الاضطهاد؛ حيث إن الكثير ممن عانوا التعذيب والاضطهاد، اختاروا الاستمرار بالعيش في مكة. واعتقاداً أن يكون هذا هو السبب، **أرسلت قريش إلى النجاشي** لتناشده إعادة المسلمين إلى مكة، مدعية أن العقيدة الإسلامية التي لا تحترم المسيح [عليه السلام]، جاءت لتقف ضد المسيحية. إلا أن النجاشي أراد أن يكشف الأمر

بنفسه، فدعا المهاجرين المسلمين طالباً منهم الدفاع عن أنفسهم أمام ما اتهمهم به القرشيون. وبعد أن ارتضى بما ذكروه عن أنفسهم وعن عقيدتهم، طالب من جاء من القرشيين بالرحيل ودعا المسلمين للبقاء في الحبشة بقدر ما يشاءون. ومع مثل هذا الترحاب، توافدت مجموعات أخرى من المسلمين المهاجرين إلى أفريقيا على مر السنوات القليلة التالية.

١٤ ـ الحصار

في السنة السابعة من بعثة محمد [ﷺ]، قرر قادة قريش حصار محمد [ﷺ] ومن يتّبعونه وأفراد عشيرة عمه أبي طالب المسؤول عن حمايته؛ حيث قاموا بعزلهم عن العالم الخارجي وحصارهم في شعب أبي طالب، وقطعوا عنهم المؤن الغذائية، وحذروا باقي العشائر من عدم الاختلاط بهم اجتماعياً أو تجارياً؛ وأصر من حرّض على هذا الحصار على استمراره حتى يتخلى أبو طالب، عم الرسول، عن حمايته لابن أخيه، وهو ما يعني تسليمهم محمد [ﷺ] ورفاقه فعلياً. إلا أن حماية أبي طالب ومناصرته لابن أخيه لم تهتز أو تكلّ طوال الثلاث سنوات التي استمر فيها حصار المشركين للمسلمين في شعب أبي طالب التي كان لها أثرها البالغ في المسلمين. وفي النهاية، تأثر بعض كبار قريش لما أصاب المحاصرين من فقر، واعتبروا الحصار لاغياً.

وفي هذه الفترة، قل عدد الداخلين الجدد في دين الإسلام ما كدّر الرسول [ﷺ]. لكن هذا العام كان مليئاً بالأحزان الأخرى التي

جعلت منه عاماً مظلماً في حياة الرسول [ﷺ]، إنه «عام الحزن» الذي توفي فيه عمه أبو طالب وزوجته خديجة [رضي الله عنها] بعد فترة وجيزة؛ فمع فقده لعمه أبي طالب، فقد محمد [ﷺ] مصدره الوحيد للدعم السياسي أمام قريش؛ ومع فقده لزوجته الحبيبة خديجة، فَقَد الرسول أيضاً مصدره الوحيد للدعم النفسي والعاطفي في رحلته الطويلة، ذلك الدعم الذي لا يستطيع الرسول أن يقلل من شأن أهميته بالنسبة إليه.

١٥ ـ رحلة الإسراء والمعراج

عاش محمد [ﷺ] بعد ذلك ما قد يعد أصعب الفترات في حياته، وفي ذلك الوقت مر بأكثر التجارب الروحية وطأة على نفسه، حيث قيل إنه ترك جسده وصعد إلى العلا حيث مر بتجارب نفسية روحية عدّة. وتصف آيات القرآن الكريم هذه التجربة برحلة الإسراء والمعراج، مع تأكيد أنها تمت أثناء نومه، وجاءت الرواية القرآنية مختصرة كالتالي: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير**﴾(٨).

وللاطلاع على المزيد من الحقائق في ما يتعلق برحلة الإسراء والمعراج، علينا الرجوع إلى السيرة النبوية والحديث مع اتّباع الحذر المعهود. حيث تروي السيرة أن محمداً عاش تجربة روحية بَعُدَ فيها عن

(٨) المصدر نفسه، «سورة الإسراء،» الآية ١.

جسده، وقيل إنه قد التقى في هذه الرحلة السماوية بجميع الرسل والأنبياء الذين سبقوه، بدءاً من آدم، ماراً بنوح وموسى وداود وعيسى ونفسه. وكان لهذه الرحلة الأثر الكبير في تأكيد ثقته بنبوته، وتأصيل لاستمرارية رسالة الإسلام.

وسواء كان محمد قد عاش هذه التجربة الليلية جسداً أم روحاً فهذا لا يهم، كما لا يهم أن المسجد الذي أُسري إليه هو المسجد الأقصى في القدس ـ كما يدّعي معظم المسلمين ـ أم كان ذلك دلالة عن الدرجة العالية من الاستسلام لله وهو ما وصفه آخرون، إذ كانت هذه الرحلة حقيقية بالفعل لمحمد، فهي كانت بالنسبة له التأكيد والتصديق على صحة رسالته، وجاءت في وقتها ما أمده بالقوة النفسية والروحية اللازمة لمجابهة ما سيأتي من صعاب.

١٦ ـ البحث عن الدعم وواحة يثرب

بعد أن فقد محمد [ﷺ] الدعم السياسي الذي كان يوفره له عمه أبو طالب، كانت دائماً ما تسبقه سيرته أينما ذهب، لكن للأسف لم يكن معروفاً للناس على أنه النبي والرسول، بل عرف على أنه ذلك المجنون الذي يسب آلهة القبائل ويندد بطريقة حياة البدو. وعندما أتى المدد لمحمد [ﷺ] كما وعده ربه، جاء من حيث لم يحتسب: جاء المدد من واحة تقع شمال مكة يعيش فيها العديد من اليهود وتملؤها الصراعات ما بين القبائل؛ إنها واحة يثرب.

كان سكان يثرب في ذلك الوقت يتبعون إما إحدى القبيلتين العربيتين الأساسيتين الأوس والخزرج، أو مجتمع اليهود الكبير العدد ساكن الواحة. لم يكن التوحيد أمراً جديداً على اليهود. وحقيقة أنهم كانوا في انتظار ذلك النبي المنتظر، جعلهم يحاولون التعرف إلى أخبار هذا الرسول المكي الذي يدّعي عبادته لله الواحد مع حذر مشوب بالتفاؤل. وبعد عشر سنوات من بعثته، استطاع الرسول [ﷺ] أن يترك أثراً كبيراً في بعض أفراد قبيلة الخزرج عند أدائهم الحج في مكة، حيث تركوا مكة ومعهم الدعوة إلى الإسلام، وبعدها بعام عاد عشرة من أفراد قبيلة الخزرج يعلنون قبولهم لدعوة الإسلام وإيمانهم بنبوة محمد [ﷺ] . وبعد اثني عشر شهراً، جاء فريق يمثل أهل يثرب عدده ٧٢ شخصاً يعلنون قبولهم الدخول في الإسلام، وهو ما سمي في ما بعد بـ«بيعة العقبة»، وبهذا انتهى بحثه عن الدعم.

١٧ ـ الهجرة إلى يثرب

تعتبر مرحلة هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب نتيجة اشتداد التعذيب والاضطهاد في مكة، وهي نقطة تحوّل نفسية ذات أهمية قصوى في السيرة. وتتميز الهجرة بهذه الأهمية الكبيرة لأنها تعتبر الحد الفاصل بين تحوّل أقلية مؤمنة مضطهدة إلى دولة ومجتمع إسلامي صغير، وأخيراً إلى نواة أساسية لامبراطورية كاملة. وقد أدت الهجرة دوراً مهماً في إدراك المسلمين الأوائل، حتى إن تاريخ الهجرة قد استخدم في ما بعد لتحديد بداية التقويم للعام القمري، والذي يستخدمه المسلمون في كل أنحاء العالم الإسلامي حتى اليوم.

بدأ مسلمو مكة يهاجرون الواحد تلو الآخر ببطء شديد في البداية وبشكل غير ملحوظ. وفي النهاية، اكتشفت قريش ما كان يحدث من دون علمها، لكن لم يكن قد بقي من المسلمين إلا محمد [ﷺ] ومجموعة صغيرة من الصحابة. ولما كانت قريش منتبهة إلى أن هجرة المسلمين إلى بلد آخر ستتسبب في نشر رسالة الإسلام إلى أجزاء أخرى من الجزيرة العربية، عقد أشرافها وسادتها اجتماعاً عاجلاً لبحث هذه المسألة. وكانت النتيجة التي توصلوا إليها في ذلك الاجتماع هي ضرورة إيقاف الإسلام وبشكل نهائي وذلك عن طريق قتل محمد [ﷺ].

وتروي لنا العديد من الأحاديث، كيف علم الرسول بتلك المؤامرة التي حيكت في الظلام لقتله، وكيف وضع خطة محكمة ليهاجر بنفسه بعد ذلك من مكة إلى المدينة؛ وفي الليلة التي تقرر فيها قتل الرسول، قام علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] بالنوم في سرير الرسول ليخدع القادمين لقتل محمد. وعند اقترابهم من مكان نوم محمد [ﷺ] اكتشفوا أن الصغير علي هو من يغط في نوم عميق. وفي هذه الأثناء كان محمد [ﷺ] وصاحبه أبو بكر [رضي الله عنه] قد بدءا رحلة الهجرة على ظهر الجمال. وتروي الروايات بعد ذلك كيف لجأ الرسول [ﷺ] وصاحبه أبو بكر [رضي الله عنه] إلى غار في أحد الجبال حتى لا يراهما من يتبعهما، في حين كان من السهل جداً على متتبعيهما الواقفين أمام الغار رؤيتهما لولا أنهم خدعوا بالعنكبوت التي خاطت عشها على باب الغار، فأعطت الانطباع أن أحداً لم يدخل الغار منذ حين طويل. وفي اليوم التالي، أكمل محمد [ﷺ] وصاحبه الرحلة إلى يثرب، وعندما

وصلا كان ينتظرهما استقبالاً كبيراً وحافلاً من مهاجري مكة ومن الأنصار، وهم أهل يثرب الذين ساعدوا المهاجرين واستضافوهم.

١٨ـ تأسيس المدينة: تخطيط لإنشاء مجتمع تعددي

بعد الهجرة، سُميت يثرب باسم المدينة. ويقال إن ذلك الاسم هو اختصار «لمدينة رسول الله». وقد تلا ذلك التغيير في الاسم والهوية، تغيير جذري آخر في التوجهات السياسية والاجتماعية والقيم الدينية، عندما بدأ محمد [ﷺ] في وضع بعض التغييرات التي حوّلت ما يعرف اليوم بـ «المجتمع الإسلامي» (الأمة) إلى «مجتمع المدينة». وفي النهاية، كانت المدينة بوتقة تجمع بين القبائل الوثنية واليهودية، وجاءت إليها الأفواج المسلمة المهاجرة كأقلية. وكانت المهمة التي بانتظار محمد [ﷺ] هي التوفيق بين هذه العناصر المختلفة وتوحيدها بالعدل والحكمة قدر الإمكان.

وبما أنه رسول الله، كانت قيادته الدينية للمسلمين مقدرة من قبل القدرة الإلهية. إلا أن مركز محمد كرسول لله لم يكن مبرراً لاستلامه مقاليد الحكم والسلطة بصفته قائداً سياسياً للمدينة بالنسبة إلى الأعداد الكبيرة من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد. ومن هنا، فقد اكتسب حكم الرسول للمدينة سواء للمسلمين من أهلها أم غير المسلمين، شرعيته من خلال مجموعة من الاتفاقات التي عرفت في ما بعد باسم «ميثاق المدينة»، ذلك الميثاق الذي تدعمه الوثائق والمخطوطات التي وصلتنا عن طريق كاتب السيرة النبوية ابن إسحق.

يوضح الميثاق ـ الذي يشار إليه في بعض الأحيان باسم «دستور المدينة» ـ الحقوق والواجبات التي اتفق عليها المهاجرون والأنصار وقبائل اليهود في المدينة.كما ينص على أن هذه العناصر المختلفة ستمثل أمةً واحدة تمتاز عن غيرها وبالأخص مشركي مكة، العدو الأكثر تشبثاً. أما بالنسبة إلى غير المسلمين من أهل المدينة، فترك لهم حرية الاختيار بالانضمام إلى ذلك المجتمع المدني مع المحافظة على شروط الميثاق، وإذا لم يختاروا الانضمام إليه فإن لهم حرية الحياة في المجتمع المدني طالما كفوا أيديهم عن الإسلام.

ويعتبر ميثاق المدينة ذا أهمية كبيرة، فهو يقدم إلينا أحد الأمثلة المبكرة لتخطيط المجتمع التعددي الحق: وهو المجتمع الذي تحظى فيه مختلف الفئات بالحماية والحقوق والكرامة المتساوية بغض النظر عن أصولهم العرقية أو اتجاهاتهم الدينية. وقد كان هذا المجتمع المدني العادل سابقة في تاريخ العرب، حيث كانت المبادئ الأساسية التي يعتمد عليها مبادئ تعتمد على الإيمان ـ بالمعنى الأشمل ـ وليس على قرابة الدم أو الأحلاف بين القبائل.

١٩ ـ تحويل القبلة: من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام

نزلت العديد من الآيات القرآنية على الرسول خلال السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة تأمره بتحويل القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم؛ فلقد أمر القرآن محمداً [ﷺ] وأصحابه بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة، أو المسجد الحرام محل ميلاد الرسالة القرآنية والدعوة المحمدية.

ويمثل تحويل القبلة الذي أمرت به آيات القرآن أهم الأحداث في تطور المجتمع المسلم الناشئ في المدينة؛ حيث يعتبر نقطة تحوّل ساعدت في تمييز الأمة المسلمة من حيث المفهوم عن اليهود الموحدين، وهو ما أسهم في تكوين الهوية الدينية المميزة للمسلمين في المدينة عن غيرهم. كما إنها قد تسببت أيضاً في تهدئة الوضع بصورة ملحوظة بين محمد [ﷺ] واليهود في المدينة، حيث بدأت أعدادٌ منهم بنقده علناً.

وعلى كل حال، لم تكن كراهية اليهود لمحمد [ﷺ] بعنف معارضة المشركين من قريش نفسها، إنها نتيجة أفعال قامت بها مجموعة مسلحة وأدت إلى اشتعال أول مواجهة عسكرية بين مسلمي المدينة وكفار قريش بمكة. وسميت الموقعة في ما بعد باسم «غزوة بدر»، التي كانت أول سلسلة من الغزوات التي خاضها المسلمون وتكللت بالنصر؛ ما أكسبها مكانة خاصة لكونها نقطة تحول نفسية غيرت تاريخ المجتمع المسلم المتزايد، وهو أمر لا يمكننا إغفاله.

٢٠ ـ غزوة بدر، وغزوة أُحُد، وغزوة الخندق

كانت غزوة بدر أولى المواجهات الحربية الواسعة النطاق بين المسلمين وقريش. وكانت البداية مع مجموعة صغيرة من المسلمين المسلحين ذهبت لتعترض طريق قافلة تابعة لقريش في كانون الثاني/يناير ٦٢٤، أثناء أحد الأشهر الحرم، حيث حرم سفك الدماء. وقد اعتبرت الغارة حركة استفزاز لا بد من الرد عليها. وجاءت

فرصة الرد في آذار/مارس ٦٢٤، على طريق الساحل ما بين سوريا ومكة عند موقع يسمى بـ «بدر».

كان الهدف الرئيس لمحمد [ﷺ] هو اعتراض قافلة أخرى لقريش أثناء عودتها إلى مكة، وتلقى مشركي مكة من خلال جواسيسهم أخباراً عن نية محمد [ﷺ] وواجهوا الأمر بإرسال قوة تضم حوالى ألف رجل من مكة إلى بدر، وكان الهدف من ذلك هو سحق قوة المسلمين الصغيرة العدد لمنعهم من اعتراض طريق قوافل قريش مرة أخرى.

من المؤكد أن انتصار المسلمين على الكفار في غزوة بدر، أظهر معونة الله للفئة المؤمنة وتأييدها على عدوها وتأكيداً على الموافقة الإلهية على رسالة محمد السامية. إلا أن ابتهاج المسلمين لم يدم طويلاً؛ فخلال السنة التالية، تجمع المشركون مرة أخرى وعزموا على الانتقام للخزي والمهانة التي تعرضوا لها من جراء هزيمتهم في المرة السابقة. وعندما وصلت الأخبار إلى محمد [ﷺ] أن قريشاً تجتمع بهدف الإغارة على المدينة، تشاور مع الصحابة والتابعين في ما يتعلق بالاستراتيجيات الممكنة للمعركة. في الحقيقة، كان مبدأ المشورة أو «الشورى» جزءاً لا يتجزأ من أسلوب قيادة محمد الاجتماعية والسياسية منذ البداية؛ فعلى الرغم من أنه لا ينطق عن هوى فهو رسول الله، إلا أنه كان يفضل دائماً الأخذ بمشورة من حوله من الصحابة الحكماء في الأمور الدنيوية، وبخاصة في أمور خطط الحروب والسياسات الاقتصادية. إلا أن

بعض الجنود تجاهلوا نصيحة النبي [ﷺ] وتركوا حصونهم وسارعوا بالنزول في المعركة طلباً في قتال المشركين وطمعاً في الغنيمة.

لم تكن خسارة المسلمين الحربية في **غزوة أُحد** بتلك البشاعة التي رسمها بعض المؤرخين؛ إذ كان هدف أهل مكة في هذه المعركة هو القضاء على المجتمع الإسلامي الناشئ وقتل محمد [ﷺ] وهو الأمر الذي لم يتحقق؛ فبعد أن ارتضوا بتمريغ أنف المجتمع الإسلامي كله في التراب، أمر أبو سفيان، قائد جيش قريش، بالرجوع إلى مكة. ومن الناحية العسكرية، لا نستطيع أن نجزم من المنتصر في غزوة أحد. وعلى كل حال، بالنسبة إلى المسلمين، اعتبرت أُحُد هزيمة روحية وأخلاقية جماعية للمسلمين تسببت بها حماسة وطمع بعض الجنود وطمعهم.

لم يستطع قادة مكة الشعور بالثقة الكافية لخوض حرب أخرى إلا بعد عامين آملين أن تكون هذه هي الضربة القاضية للدولة الإسلامية. وفي آذار/مارس ٦٢٧، قام جنود مكة بحصار المدينة المنورة بجيش يتعدى العشرة آلاف رجل، لكنهم لم يتمكنوا أبداً من دخول المدينة. سميت الغزوة باسم «غزوة الخندق»، بسبب فكرة أحد الصحابة من الفرس الذي أشار بحفر خندق كبير حول المدينة لإحباط محاولات فرسان مكة من بلوغ المدينة، ما أدى إلى انتصار المسلمين.

٢١ ـ محمد [ﷺ] ويهود المدينة

تخبرنا الآيات القرآنية عن طريقة تعامل الرسول مع المسيحيين واليهود؛ حيث تؤكد أن عقيدة أهل الكتاب من الموحدين هي «الإسلام». ينص ميثاق المدينة على تعايش اليهود والنصارى من أهل الكتاب الذين يؤمنون جميعاً بالله الواحد، في تناغم وسلام مع المجتمع الإسلامي في المدينة.

في الحقيقة، كان الوضع مختلفاً بعض الشيء؛ فمع مرور الوقت، وبعد أن كان اليهود يرون في محمد [ﷺ] النبي المنتظر، وبعد أن شهدوا تطورات المجتمع الإسلامي بتفاؤل حذر، بدأ اليهود في التغير. وتحول الأمر تدريجياً في قلوبهم إلى حدة في التعامل. وكما تروي لنا المصادر أن يهود المدينة تحالفوا في مرات عدة مع أهل قريش في محاولة منهم لاقتلاع المجتمع الإسلامي من جذوره.

كانت أهم الخلافات بين الرسول [ﷺ] ويهود المدينة هي تلك التي ظهرت خلال غزوة الخندق؛ حيث نقض يهود بنو قريظة عهدهم مع الرسول [ﷺ] وتحالفوا مع أهل مكة في محاولة لفك الحصار. ولو أنهم كانوا قد نجحوا في ذلك، لكانت المدينة قد وقعت في يد قريش ولكان المجتمع الإسلامي قد دُمّر. ولم تكن هذه الخيانة الصريحة من اليهود نقضاً لميثاق المدينة فحسب، ولكنها كانت نقضاً لقانون اليهود الذي سمح لهم من خلاله بالعيش داخل المدينة. وعلى هذا اتخذ القرار بمعاقبة بني قريظة، ولم يعد هناك نقاش مع هؤلاء الخونة، فصودرت ممتلكاتهم وأُسِر أطفالهم وأعدم بعض رجالهم.

٢٢ ـ الحرب والسلم

قد يعتقد البعض أن الحال الطبيعية للإنسان ـ الحال التي يشير إليها القرآن أنها المثالية الكبرى للبشر ـ هي السلام. وأنَّ أضمن الطرق وآمنها لضمان تحقيق هذا السلام هو الاستسلام الكامل لإرادة الله، أي الإسلام. إلا أنه مع تداخل الكثير من الأمور العسكرية مع تطور مجتمع المدينة، لم يدعم مقولة إن الإسلام دين السلام، ويتكرر هذا الكلام في كل مرة يرغب فيها من يدافع عن الإسلام عن فصلهم عما يتم من أحداث إرهابية التي يدّعي العالم أنها من صنع الإسلام.

وعلى كل حال، لا يمكن للمرء أن ينفي حقيقة أن القرآن يحتوي على آيات لتسوية النزاع المسلح الذي قد يقوم بين الأفراد أو المجتمعات. كما يقدم قوانين صارمة للحرب، ويدعو إلى بذل كل الجهود الممكنة لمنع تفشي النزاعات والخصومات وبخاصة بين المؤمنين، وبين المؤمنين وغير المؤمنين أيضاً. ومن الواضح أنه لا توجد آيات في القرآن تؤيد الادعاء الباطل أن الإسلام يجب أن ينتشر بالسيف؛ فعندما نرى التأكيدات القرآنية المتتالية على أن الإيمان يجب أن يكون اختياراً حراً لا إكراه في الدين، سنجد إن ذلك الادعاء الباطل لا أساس له من الصحة.

ومن هنا، يمكننا القول إن الإسلام على مر التاريخ كان ومازال ديناً محباً للسلام لكنه لا يعارض الحرب: والمثال الذي يقدمه محمد [ﷺ] نفسه، يوضح لنا إنه في حال عدم إمكانية تجنب الحروب فعلى المسلمين خوضها، شرط مراعاة كل الشروط والالتزام بالقواعد

السلوكية القانونية والأخلاقية والمعنوية كافة التي تحكم النزاع المسلح بدقة.

٢٣ ـ حلول السلام: صلح الحُديبية

﴿وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكّل على اللّه إنّه هو السّميع العليم﴾(٩).

حوالى السنة السادسة من الهجرة، خرج محمد [ﷺ] ومجموعة كبيرة من أصحابه من المدينة غير مسلحين لإظهار سلامة النية والمسالمة، عاقدين العزم على أداء فريضة الحج في ذلك العام في مكة، لكن أهل مكة لعدم ثقتهم بسلامة نوايا محمد [ﷺ] أرسلوا وفداً من فرسانهم لاعتراض الحجاج. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الرسول، نزل في مكان يدعى الحُديبية حتى يستطيع إعادة التفكير في الوضع الجديد. وبعد انقضاء بضعة أيام من المفاوضات الصعبة بين المسلمين والمشركين، تأكد المشركون من أن وفد المسلمين قد جاءوا مسالمين لا يريدون الحرب، وتوصل كلا الطرفين إلى اتفاق عرف بـ«صلح الحُديبية».

في الحقيقة، جاء الصلح ـ الذي يصفه القرآن بأنه **﴿فتح مبين﴾** ـ في صالح الدولة الإسلامية، حيث أدى إحلال السلام إلى السماح للقبائل التي كانت قريش قد منعتها حتى الآن من دخول المدينة بالسفر إلى الدولة الإسلامية بهدف الاستماع إلى الرسالة النبوية والتعرف إليها

(٩) المصدر نفسه، «سورة الأنفال،» الآية ٦١.

بأنفسهم من محمد [ﷺ] شخصياً. وأعطت سنوات السلام التي تلت هذا الصلح للمجتمع الإسلامي المتنامي فرصة للتوسع والنمو من دون التعرض للتهديد المستمر من الاعتداء الخارجي. واستغل المسلمون هذه الفترة السلمية في تقوية المجتمع المسلم في المدينة من ناحية، ونشر رسالة الإسلام في ما وراء حدود المدينة إلى القبائل والمجتمعات المنتشرة بطول الجزيرة العربية وعرضها من ناحيةٍ أخرى. إضافة إلى ذلك، بعث محمد [ﷺ] مجموعة من الرسل والوفود إلى العديد من القادة والحكام خارج الجزيرة العربية ـ مثل ملوك الروم ومصر والفرس، يدعوهم إلى الاستماع إلى رسالة الإسلام والدخول في الدين الحق ـ إذا قبلوا بالرسالة. وعلى الرغم من أن الاستقبال العام لهذه الرسائل من الملوك لم يكن سلبياً تماماً، إلا أن أحداً من هؤلاء الملوك لم يقبل الدخول في دين الإسلام في تلك المرحلة. وعلى كل حال، شعر الرسول بالرضا لأنه قام بواجبه في توصيل الرسالة إلى غير المسلمين. وفي الحقيقة، إن عدم اعتداء الرسول على أحد من الحكام غير المسلمين، يثبت ويؤيد الطبيعة المسالمة لدين الإسلام ورسالته.

٢٤ ـ التغييرات الاجتماعية في مجتمع الدولة

لم تعتبر الغزوات التي خاضها الرسول [ﷺ] ضد أعدائه من المكيين الحدث الأكثر أهمية في العهد المدني من البعثة النبوية، بقدر ما تضمنت هذه الفترة أهدافًا أسمى وأموراً أهم كانت في الحسبان؛ إذ عزم الرسول [ﷺ] على تحقيق مجموعة مهمة من الأهداف، وبخاصة

تلك الأهداف التي تتعلق ببناء مجتمع عادل يتمتع فيه النساء والرجال المؤمنين بفرصة للتعبير عن إيمانهم وعقيدتهم صراحة ومن دون خوف أو قيد. إضافة إلى ذلك، كان المجتمع المدني في ذلك الوقت يحتاج إلى تطهيره من تلك الممارسات التي كانت تعتبر عرفاً في المدينة: مثل بعض القوانين والعادات الاجتماعية والأعراف التي كان يجب أن تختفي من المجتمع تماماً، وتستبدل بغيرها من العادات التي تتناسب مع المجتمع المؤمن الموحد.

ولهذا السبب، كان على محمد [ﷺ] أن يهتم اهتماماً كبيراً بتسيير المجتمع تبعاً للتعاليم الإسلامية سواءً كانت أخلاقية أم معنوية أم اجتماعية أم سياسية. وستعتمد هذه التجربة الاجتماعية الجديدة، من كل قلبها، على الإيمان بالله وليس على التعصب القبلي كما كان الحال في مكة قبل الإسلام. وفي هذا المجتمع المؤمن، كان الجميع سواسية أمام الله. حتى أولئك من غير المؤمنين بالقرآن من أهل الكتاب كانت لهم مكانة خاصة وجديدة في المجتمع، كما ينص دستور المدينة.

من هنا، نجد لمعظم الآيات المدنية في القرآن طبيعة تشريعية، تحتوي على الإرشادات والأمور التطبيقية في الدين مثل الصلاة والصوم والزواج والطلاق والبيع والشراء والزكاة والميراث. وهكذا، تطور مفهوم الإسلام لينتقل من الدين المعتمد على استسلام الفرد لإرادة الله إلى الاستسلام الجماعي الكامل للمجتمع لإرادة الله. ولهذا السبب، نزلت آيات من القرآن تدعو إلى بعض التغييرات

الطويلة المدى في النسيج المجتمعي، مع وجود بعض الحدود التحريمية التي من شأنها المساعدة في التخلّص من المظالم التي طالما تأصلت في المجتمع قبل الإسلام. ومن أهم التغييرات التي طرأت على المجتمع المسلم هي الحفاظ على المرأة وضمان حقها كفرد من أفراد المجتمع يتساوى مع الرجل أمام الله. وسنقوم في الفقرة التالية بشرح هذه النقطة بشيء من التفصيل غير المبالغ فيه، واعين تماماً أهمية قضية المرأة وموضوع حقوق الإناث.

٢٥ ـ المرأة: الرؤية القرآنية

على الرغم من حقيقة عدم مساواة المرأة بالرجل من حيث المعاملة في معظم أنحاء المجتمع الإسلامي اليوم، فإن ذلك يُعدّ بصورة أكبر عرضاً من أعراض الثقافات المفرقة وغير العادلة المنتشرة في العالم الإسلامي ـ والتي يدعي مناصروها أنها تطورت كنتيجة للإسلام ـ وفي الحقيقة إن الإسلام ونصوص الإسلام العادلة بريئة من مثل هذه الممارسات والادعاءات؛ فالقرآن يؤكد المساواة بين الرجل والمرأة أمام الله من الناحية الروحية والجسدية والاجتماعية. وللأسف، إن حقيقة أن الإسلام يُرى من خلال العادات والثقافة المحلية قد جعل من هم خارج هذا النطاق يرون في الدين الإسلامي أساساً لهذه التفرقة بين الجنسين. والحقيقة، أن سوء فهم العادات الثقافية ذات الطابع الديني يؤدي بالفعل إلى الالتباس ليس في سياق التفرقة بين الجنسين فحسب: ففي بعض الأحيان يربط البعض خطأً بين بعض الممارسات

والعادات التافهة مثل عادات الأكل واللبس والتصرف وغيرها من الممارسات التي يعتاد عليها الأشخاص في ظل ثقافة معينة وبين التعاليم الدينية لديانة ما؛ فعلى سبيل المثال إن النقاب، وهو ملبس النساء في الدول الإسلامية حيث يغطين كامل جسدهن من الرأس حتى القدم، يوصف بالزي الإسلامي، في حين أنه يستخدم رمزاً للتفرقة في المكانة الاجتماعية قبل ظهور الإسلام بكثير.

وعلى سبيل المثال، هناك العديد من الجوانب المتنوعة من الحياة في البلاد الإسلامية التي يراها البعض أنها «إسلامية»، على الرغم من أنها في الحقيقة مجرد نتاج طبيعي للثقافة المحلية أو الثقافة الإقليمية. إن ما يقوم به المسلمون من حيث المأكل والمشرب واللبس ليس بالضرورة انعكاساً لتعاليم الإسلام، كما هو الحال بالنسبة إلى الغربيين، إن عاداتهم وتقاليدهم ليست بالضرورة نتاج تعاليم الدين المسيحي. وباختصار، فإذا لم تعامل النساء المسلمات بالمساواة المطلوبة مع الرجال المسلمين، فإن السبب ليس بالضرورة هو الإسلام.

٢٦ ـ المتعة الجنسية طبقًا للتعاليم الإسلامية

ومما اتهم به محمد [ﷺ]، وبخاصة من قبل معارضيه المسيحيين في العصور الوسطى، تهمة الانغماس في الملذات الجنسية، وأن تعدد الزوجات الذي يسمح به الإسلام ما هو إلا عرض من أعراض هوس محمد [ﷺ] باللذات الحسية؛ إذ رأى هؤلاء المعارضون

أن زواج محمد [ﷺ] أكثر من إحدى عشرة مرة، كان تأكيداً على حريته الزائدة. إضافة بالطبع إلى وعود القرآن بـ «الحور العين» الذي سيحظى بهن المؤمن في الجنة. وهكذا ليس من الصعب رؤية الأسباب التي استغلها المغرضون لمهاجمة الإسلام واتهامه بأنه دين يدعو إلى الفساد الأخلاقي والمجون.

إلا أن هذا لا يعني أن ما قالوه صحيح؛ فالإسلام طالما اتبع سياسة التغيير التدريجي. ويمكننا أخذ مسألة تحريم الخمر كمثال لهذه النقطة: كان العرب معتادين على شرب الخمر بصورة كبيرة قبل الإسلام. ولذلك، لم يكن تحريم الخمر ليفرض عليهم دفعةً واحدة؛ حيث حرم شرب الخمر تدريجياً وعلى مراحل امتدت لعدة لشهور أو سنوات. وكذلك هو الحال مع قضية تعدد الزوجات، فإن الإسلام لم يحرّم تعدد الزوجات، ولكنه وضع له شروطاً وقيوداً صارمة بحيث لا يسمح به إلا في أضيق الحدود.

وفي ما يتعلق بالمتعة الجنسية نفسها، فإن الإسلام يعتبر واقعياً لدرجة مدهشة. فعلى الرغم من قصر الإسلام العلاقة الجنسية على الزوجين داخل رباط الزواج المقدس فحسب، فإن الإسلام يبيح كل شيء تقريباً ـ جنسياً ـ بين الرجل وزوجته بمجرد زواجهما. ويعتبر اللواط أو الإتيان من الدبر هو الأمر الوحيد المحرّم في العلاقة الجنسية في الإسلام، وبعيداً عن هذا، فإن للزوجين الحرية للاستمتاع ببعضهما البعض بالطريقة التي يريدونها طالما كانت تلك المتعة بالتراضي بينهما؛ فعلى سبيل المثال، يُذكّر الرسول [ﷺ] الرجال

بأنهم ليسوا العنصر الوحيد في العلاقة الجنسية، وأن للنساء الحق في الاستمتاع بالعلاقة بدرجة الرجال نفسها، ولتحقيق هذا الهدف ينصح الرسول [ﷺ] الرجال بالمداعبة قبل العلاقة الجنسية لضمان حصول النساء على أكبر قدر ممكن من الرضى والاستمتاع في العلاقة. وكما هو الطبيعي، فإن القرآن على كل حال ينصح بعدم التمادي في أي شيء وبالاعتدال اللازم، لأن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده.

بالطبع، إن ممارسة العلاقة الجنسية خارج نطاق الزواج يعتبره الإسلام والقرآن أمراً محرماً، بل ويستوجب العقاب الشديد لهؤلاء الذين يرتكبون الزنا، إلا أن الرجم بالحجر لم يذكر في القرآن وبالتالي يُعدّ تجاوزاً.

إضافة إلى ذلك، إن العلاقة الجنسية بين أفراد النوع الواحد من الرجال أو النساء هي علاقة يحرمها القرآن تماماً، ولكن القرآن لم يحدد في هذه الحال عقاباً لهذا الجرم. ومن ناحية أخرى، فإن آيات القرآن لم تناقش مسألة العادة السرية ـ الاستمناء ـ إلا أن هناك بعض الأحاديث التي تحرمها.

٢٧ ـ زيجات محمد [ﷺ]

دام زواج محمد [ﷺ] من زوجته **الأولى** سيدة الأعمال الثرية السيدة خديجة [رضي الله عنها] حوالى ٢٥ عاماً. وتؤكد المصادر أن زواجهما قام على علاقة حب حقيقية في مجتمع كان يعتبر الزواج فيه أمراً له

علاقة أكبر بالتوافق الاجتماعي والأهداف السياسية، ولا يتعلق بالرومانسية والعاطفة.

أما زوجته **الثانية** سودة، فكانت من أوائل المسلمين، وهي أرملة لأحد الصحابة المقربين. وبعد الهجرة إلى المدينة، تزوج الرسول حوالى تسع مرات، كانت معظمها من أرامل الصحابة الذين استشهدوا في الغزوات ضد قريش. هذا، وتزوج الرسول مرتين لأهداف سياسية: كانت **أولاهما** من ماريا القبطية، وكانت **الثانية** من إحدى اليهوديات التي أسرت في إحدى الغزوات.

وعلى كل حال، إن أكثر زيجات الرسول إثارةً للجدل بين النقاد غير المسلمين هي زيجته من السيدة عائشة [رضي الله عنها] ـ (ابنة صاحبه المقرّب أبو بكر [رضي الله عنه]) وزيجته من زينب، مطلقة زيد بن حارثة ولده بالتبني. عقد محمد [صلى الله عليه وسلم] قرانه على عائشة [رضي الله عنها] قبل أن تبلغ العاشرة من عمرها تقريباً. ولا تذكر المصادر التاريخية سنها مباشرة عند الزواج، لكنها تذكر أن عائشة كانت تقضي معظم وقتها عند انتقالها إلى بيت الرسول وهي تلعب بدميتها، وكثيراً ما كان يشاركها الرسول اللعب بنفسه.

في الحقيقة، قد تثير العلاقة بين رجل في نهاية الخمسينيات من عمره، وطفلة لا تتعدى العاشرة من عمرها تعجب الكثيرين اليوم ـ وبخاصة من عقليات العالم الغربي الذي يعاني حساسية اعتداء البالغين على الأطفال القاصرين. ومن دون اندهاش، فمن التهم التي وجهها قادحو الرسول إليه كانت علاقته بعائشة باعتبارها اعتداءً صريحاً على

الطفلة. ومن الناحية الأخرى، فإن زواج رجل كبير ناضح من فتاة صغيرة كان ولا يزال أمراً طبيعياً في المجتمع البدوي، وينتشر حتى الآن في العديد من المجتمعات حول العالم؛ إذ كان من المعتاد عند العرب في عهد محمد [ﷺ] خطبة الأولاد والبنات لبعضهم بمجرد ولادتهم، ولا سيما إذا كان هذا الجمع ذا أهمية سياسية مباشرة للعائلتين المعنيتين. وعلى كل حال، إن مثل هذه الزيجات لم تكن تتم إلا بعد بلوغ ونضج العروسين. وهنا لنا وقفة، فمن المهم أن نعلم أن العرب في القرن السابع الميلادي كانوا يبلغون في سن مبكر عن السن التي يبلغ فيه أبناء الغرب اليوم. ولهذا، فإن من المؤكد أن الرسول [ﷺ] لم يمارس حقوقه الشرعية مع عائشة [رضي الله عنها] إلا بعد بلوغها أوائل سني المراهقة على الأقل، الأمر الذي كان يعتبر مناسباً تماماً لأعراف المجتمع في ذلك الوقت، وفي سياق لا يمسه العيب من قريب أو بعيد.

٢٨ ـ أواخر أيام محمد [ﷺ]: فتح مكة

شهد العام الثامن من الهجرة نقضاً لميثاق المدينة عندما قامت إحدى القبائل المتحالفة مع قريش بالاعتداء على قبيلة من القبائل المتحالفة مع المسلمين. وأدى ذلك إلى توجه جيش من المسلمين إلى أبواب مكة بحثاً عن العدالة. ولكبر عدد جيش المسلمين، لم يكن أمام قريش خيار آخر غير الاستسلام على الفور؛ وبالتالي، السماح لمحمد [ﷺ] بالحصول على مكة مسقط رأسه من دون إراقة نقطة دم واحدة، وهكذا أصبحت مكة قلب الإسلام مرة أخرى.

كان أول ما فعله الرسول [ﷺ] بعد فتح مكة، هو إعلان الصفح عن كل من أساء إليه وعارضه من قبل. ومع هذا الموقف، تأثر العديد من أهل مكة ودخلوا الإسلام على الرغم من أنه كان جلياً أن محمد [ﷺ] لم ولن يجبر أحداً على الدخول في الإسلام. وبعدها، قام الرسول بتحطيم الأصنام كلها التي كانت منتشرة حول الكعبة ليؤكد رفض الإسلام للوثنية. وعلى الرغم من أن الرسول حطم الأصنام التي تمثل العلامات الملموسة للوثنية، فإن مسألة التخلص من الوثنية من قلوب الكفار كان أمراً متروكاً لهم. إن القرآن يؤكد دائماً أن الإيمان يجب أن يترك لاختيار الشخص الحر ولا يأتي أبداً بالإكراه. ثم ألقى الرسول [ﷺ] بعد ذلك خطبة على أهل مكة من وسط البيت الحرام، أكد فيها أن لا إكراه في الدين، وأن من لم يدخل الإسلام له حرية الحياة في مكة وممارسة أشغاله من دون إعاقة أو تعطيل بشرط أن يتعامل مع الآخرين بالاحترام نفسه.

٢٩ ـ حجة الوداع

في العام العاشر من الهجرة، جذب أداء الرسول لفريضة الحج الآلاف من المسلمين إلى مكة، حيث دخل الآلاف من العرب في الإسلام وساد السلام أجواء مكة.

وقف محمد [ﷺ] على تل عالٍ في موسم الحج يسمى «جبل الرحمة» في صعيد عرفات، وألقى على المسلمين خطبة بدت وكأنها وصية لهم ونعياً للرسول [ﷺ] حتى بالنسبة إلى أولئك الذين لم يشكّوا في الأمر وسمي الموقف بـ «حجة الوداع».

تميزت الخطبة بالوصايا كما لو كان الرسول [ﷺ] يعلم أنه لن يطيل البقاء بين أصحابه والتابعين له من المسلمين كثيراً. وعندما جاءت النهاية، كانت قصيرة وسريعة، وذلك من رحمة الله بعبده التقي؛ توفي محمد [ﷺ] في ربيع عام ٦٣٢ الموافق العام ١١ للهجرة، بعد معاناة مع الحمى. ويستطيع المرء تخيل مدى الإحباط والحزن الذي أصاب المجتمع الإسلامي أجمع إثر وفاته، وبخاصة أن الأمة الإسلامية في المدينة لم تبلغ إلا عقدها الأول؛ حيث رفض بعض المسلمين من أثر الصدمة أن يصدقوا رحيل الرسول [ﷺ] إلى الأبد، واعتقدوا بأنه سيرجع في يوم من الأيام، لكن خليل الرسول أبا بكر [رضي الله عنه]، قام فخطب في الناس، محذراً إياهم من الانسياق وراء الأهواء قائلاً: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

٣٠ ـ محمد [ﷺ] الإنسان: صفاته وشخصيته وهيئته

على الرغم من أن القرآن رسم صورة واضحة لمحمد الرسول [ﷺ] بكل الخصال والمزايا التي ترفع من مكانته النبوية، مثل الصدق والأمانة والنزاهة والثبات على الحق وغيرها من الصفات الحميدة الكثيرة التي لا يتسع المجال لذكرها كلها، لا يزال محمداً [ﷺ] كاللغز أمام الجميع.

على كل حال، فإن كتب الحديث تحتوي على وصف مفصل لرسول الإسلام يغطي جوانب حياته كلها، حتى أدق تفاصيل حياته

الخاصة. حيث يخبرنا الحديث كيف كان يبدو وكيف كان يمشي، وماذا كان يرتدي وماذا كان يحب ويكره. إضافة إلى ذلك، تخبرنا روايات الحديث كيف كان يستحم ويطهو طعامه ويخيط ثيابه، وحتى كيف كان يرتدي ثيابه ويتوضأ ويغتسل. بل إن بعض الروايات تصف لنا بالتفصيل دخوله الخلاء برجله اليسرى وخروجه برجله اليمنى، وتحكي لنا ما إذا كان يصلي ويداه موضوعتان فوق صدره أم مرسلتان إلى جانبيه. بل إن الروايات والأحاديث تحكي لنا أنه لم يقم علاقة أبداً مع زوجاته من دون المداعبة أولاً، لعلمه التام بحق المرأة في الحصول على المتعة الجنسية.

كذلك، فإننا نعلم من تلك الروايات أنه لم يكن سريع الغضب ولم يتسرع أبداً في إطلاق الأحكام، وأنه كان خفيف الظل ولديه حس الدعابة. وتصف الروايات عشقه للأطفال وأن موت ابنه الرضيع الحبيب إبراهيم [عليه السلام] كان من أكثر اللحظات ألماً في حياته؛ وكم كان يحب ابنته فاطمة [رضي الله عنها] وولديها ـ الحسن والحسين [رضي الله عنهم] من زوجها علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]، ابن عمه. وتصف الروايات أيضاً كيف كان الرسول يمشي مسرعاً وكأنه نازل من على تل، وكيف كان يلتفت إلى من يكلمه بكل جسده حتى يعطيه كامل انتباهه. وهكذا، تخبرنا روايات الصحابة هذه الحكايات والمزيد. لذلك، قولنا إن حياة محمد [صلى الله عليه وسلم] قد أُرِّخت بشكل تفصيلي قد يكون تقليلاً من شأنها: حيث لا يوجد بالفعل منطقة من حياة محمد لم يلاحظها الصحابة المقربون الذين كانوا يلاحظون ويدوّنون كل ما رأوه يفعله أو سمعوه يقوله.

لا توجد صورة شخصية مرسومة للرسول [ﷺ]، حيث إن هناك تحذيراً غير مكتوب يعلمه جميع الرسامين المسلمون بصفة خاصة، والمسلمون جميعاً بصفة عامة، يحرّم محاولة رسم شكل يشبه الرسول، وبالتالي فإن أي رسم تصويري للرسول سيكون مجرد تخمين، وسيتحول عاجلاً أم آجلاً إلى أيقونة، على الرغم من تحذيرات الإسلام الواضحة بعدم تأليه الرسل والأشخاص. وقد يكون من الحقيقي وضع البعض محمد [ﷺ] في مكانة التبجيل أو التأليه، ولهذا السبب يرفض المسلمون وبشدة استخدام الغرب في الزمن القديم لمصطلح «المحمدية» لوصف دين الإسلام.

إنَّ الطابع المحمدي الوحيد الذي يمكن العثور عليه في الإسلام هو السنّة النبوية. حيث تمثل السُنّة النبوية النواحي التطبيقية والفقهية للإسلام، ويشجع الإسلام المسلمين على اتباع السُنّة وبناء حياتهم طبقاً لها. ولهذا السبب، فإن الاهتمام بمعرفة التفاصيل عن كل حادثة في حياة محمد كان دوماً شديداً، لأن معرفة ما فعله الرسول في كل موقف هي بالفعل معرفة لما يجب أن يفعله أي مسلم يتعرض للموقف نفسه. وفي الحقيقة، يحاول بعض المسلمين تقليد الرسول في كل الأمور حتى أصغرها مثل طريقة ارتداء الملابس والأحذية وخلعها، طمعاً بالثواب.

يصف القرآن محمد [ﷺ] بأنه ﴿**على خلق عظيم**﴾، وبالطبع فإن على المسلمين اتباع سُنّة الرسول [ﷺ] وهديه في صفاته المعنوية

والأخلاقية السامية، بدلاً من الإسراع في محاكاته في الأمور الأقل أهمية كتنظيف الأسنان وربط العمامة. إن سُنّة الرسول [ﷺ] التي ورثها من اتبعوه من بعده تمثل في الحقيقة ـ بعد القرآن ـ قلب الإسلام. وفي الفصول التالية من الكتاب، سنحاول اكتشاف أهمية السُنّة النبوية في الإسلام.

٣١ ـ محمد [ﷺ] ثوري أم مصلح

من الأسئلة المشهورة في امتحانات كلية الدراسات الإسلامية في الجامعة التي أدرّس بها: «هل محمد ثوري أم مصلح؟»، وكما هو الحال مع موضوعات التاريخ كلها، لا توجد إجابات صحيحة أو خاطئة بشكل جازم لهذا السؤال؛ فالأمر يعتمد بشكل أكبر على وجهات النظر الشخصية وبخاصة عند الحكم على الأحداث التي لم يختبرها المرء بنفسه مع اختلاف أطر المصادر والمرجعيات وحتى الاختلاف الشاسع في تعريف المصطلحات نفسها؛ فعلى سبيل المثال، سيختلف بالطبع مفهوم مصطلح «الحرية» عند العرب في القرن السابع الميلادي عن مفهوم الحرية عند الغرب اليوم. كذلك، فإن السؤال: «هل كانت الدولة الإسلامية الأولى في المدينة دولة ديمقراطية؟» من الأسئلة المكررة في الامتحانات أيضاً، وهو سؤال ليس له معنى في الحقيقة، وبخاصة أن مفهوم «الديمقراطية» يعتبر أمراً غير معروف نهائياً في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ناهيك عن العقليات البدوية.

من ناحية، تعتبر مفاهيم «الإصلاح» و«الثورة» غير مناسبة للتطبيق على حال رسول الإسلام، لكن هذا بالطبع لم يمنع المؤرخين في العصر الحديث من مناقشة حياة محمد [ﷺ] ورسالته من هذه الوجهة وباستخدام هذه المصطلحات. وفي ما يبدو أن الآراء تتغير وتتبدل في هذا الصدد بين عام وآخر: فتارةً كان محمد [ﷺ] بالنسبة إلى المؤرخين ولعدة سنوات الثوري الذي قام بالتخلص من الشرك وفساد المجتمع في مكة وقدم لهم نظاماً حياتياً اجتماعياً وسياسياً جديداً يعتمد على الدولة الإسلامية القائمة على الدين في المدينة بدلاً من القيم الصحراوية البائدة. وانتشرت وجهة النظر هذه بين المحللين الإسلاميين في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. إلا أن الفترة التي تليها شهدت رأياً أكثر تحفظاً، حيث يرون في احتفاظ محمد [ﷺ] ببعض الشعائر الدينية الموجودة قبل الإسلام دليلاً على أهدافه الإصلاحية؛ إذ اعتاد العرب قبل ظهور الإسلام على حج البيت الحرام في مكة، إلا أن محمداً [ﷺ] قد أضفى على ذلك الطابع الإسلامي، مع احتفاظه بالحج السنوي بعد التخلص من الأصنام التي كانت موجودة حول الكعبة، وتطهير المناسك القديمة بحيث تتناسب مع مبادئ التوحيد. وهكذا كان الأمر مع بعض الشعائر الأخرى التي استمرت مع إضفاء الطابع الإسلامي عليها. إلا أن الإسلام أدخل بعض الإصلاحات الاجتماعية في ما يخص النساء واليتامى والفقراء على سبيل المثال.

ركزت التحليلات التاريخية بصورة كبيرة على أفعال الرسول [ﷺ]: فإذا قام محمد بإبطال عرف معين ــ مثل وأد البنات ــ فهو في

هذه الحال ثوري مغير، أما إذا قام بتعديل ذلك العرف بصورة ما من دون إبطاله تماماً ـ مثلما فعل في حال قوانين الزواج ـ فإنه في هذه الحال مصلح، وهكذا. إلا أن الصعب هو الحكم على ما تم من تغيير نفسي وشخصي؛ فإن كان احتفاظ محمد [ﷺ] بالحج كشعيرة يعد بالنسبة إلى البعض إصلاحاً لما سبق، فإن التخلص من الأصنام كان نقطة فاصلة من الناحية النفسية في حياة العرب الدينية. قد يصح أن نصف أسلمة بعض الشعائر الدينية الوثنية على أنها نوع من الإصلاح، إلا أنه عندما نفنّد مثل هذه الظواهر والتأثيرات التي لا بد وأنها تركت أثرها في نفوس المجتمع المكي، فإن الطبيعة الكلية للتغير تظهر بوضوح أكبر. ومن هنا، فإن محمداً [ﷺ] كان مصلحاً لبعض الأمور، ومغيراً جذرياً لبعض الأمور الأخرى تماماً، وهو الأمر المتوقع من رسول موحد، هدفه الأول والأسمى هو تسهيل عملية إعادة بناء النفس البشرية، وهي ذلك الكيان المعقد الذي يستقبل التغيير تارة والإصلاح تارةً أخرى، لكن نادراً ما يكون أحدهما على حساب الآخر.

٣٢ ـ محمد الرسول [ﷺ]

لطالما اعتقد الكثيرون أن عظمة الرسل تكمن في قدرتهم على مساعدة الناس على فهم العالم من خلال قدراتهم التي اختصهم بها الله سبحانه وتعالى ـ تلك القدرات التي تختفي عندما يسلم المرء نفسه للدنيا والهوى وليس لله الذي خلقه وإليه مرجعه. يتحلى جميع

الرسل والأنبياء بخاصية تمكّنهم من مساعدة الآخرين على تبنّي منظور مختلف لحل المشاكل القديمة ولتحقيق الفهم الأعمق لطبيعة الكون الذي يعتبر الإنسان جزءاً منه، وكذلك إدراك مدى قصر الحياة التي وهبها الله للبشر على ظهر الأرض. وباختصار، فإن مهمة الرسول هي تعليم كل إنسان كيف يعيش تجربته في الحياة وكيف يستفيد منها. ومن هذا المنطلق، فإن مهمة الرسل هي التفسير والحل، فقد بعثهم الله ليفهموا الناس حقيقة الوجود الإنساني مبشرين ومنذرين، ليعلم الناس أن الحياة قصيرة وبعدها يأتي الحساب الذي لا مفر منه.

ومن هنا، فإن عظمة رسول الإسلام محمد [ﷺ] لا تخفى على أحد سواء المؤمنين به أم حتى غير المؤمنين به؛ فبمقارنة محمد [ﷺ] مع غيره من القادة والزعماء والأنبياء ـ سواء كانوا قادة دينيين مثل المسيح [عليه السلام] وبوذا، أم علمانيين مثل ماركس وغاندي ـ فإن محمداً هو الوحيد الذي كان لديه من الشجاعة ما دفعه إلى تحدي الوضع الراهن على الصُعد كافة، والمخاطرة بالكثير أثناء هذا التحدي من أجل إثبات الحقيقة التي آمن بها؛ فعندما كشف الرسول عن زور عبادة الأصنام والطبيعة الدنيوية للحياة التي كان يعيشها أهل مكة ـ الذين أنكروا الحياة الأخرى، وبالتالي تطاولوا على العديد من القوانين وكأن حياتهم على الأرض هي الحياة الأبدية ـ فتح محمد [ﷺ] عيون الكثيرين ممن حوله على الغرض الحقيقي من وجود الإنسان، وبالتالي ساعدهم على فهم القضايا المهمة في حياتهم.

كذلك، إن هذه العظمة التي يتسم بها رسول الإسلام تنسب أيضاً إلى من أوصلوا إلينا هذه المعلومات القيمة عنه واحتفظوا بعظمته على مر السنوات. إذ استمرت مكانة الرسول العظيمة في أعلى المراتب لأكثر من ألف وأربعمئة سنة، ويبدو أنها في علو المكانة نفسها اليوم التي طالما كانت عليها منذ سنوات. ويعتمد الأمر في الحفاظ على صورة الرسول [ﷺ] ومكانته في مجتمع اليوم على أتباعه من المسلمين المطبقين لسُنّته. وفي الفصول التالية، سندرس الكتاب الذي احتفظ بهذه الصورة بأفضل الطرق وعلى مر السنين: إنه **القرآن الكريم**.

■ **لمزيد من القراءة والاطلاع**

يعتبر كتاب و. مونتغمري وات (W. Montgomery Watt)، الأكاديمي والسهل في الوقت نفسه **محمد: الرسول ورجل الدولة** *(Muhammad: The Prophet and Statesman)* (١٩٦١)، من أفضل الكتب التي من خلالها بداية التعرف إلى حياة وإنجازات محمد [ﷺ]. يعتبر وات من أعظم الدارسين البريطانيين للدين الإسلامي، ويعتمد على منهج متعاطف، ولكن حذر في الوقت نفسه، حيث إنه من المعجبين غير المسلمين بالرسول [ﷺ] والسيرة الإسلامية. أما لمن يبحث عن منهج أكثر تقليدية في تناول حياة محمد [ﷺ]، فعليه قراءة كتاب مارتن لينغز (Martin Lings) **محمد: حياته وفقاً للمصادر الأولى** *(Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources)* (١٩٨٣)، وهو مرجع يعتمد على الحديث والسيرة في تجميع قصة حياة محمد [ﷺ] ورسالته.



الفصل الثاني

الرسالة

على الرغم من أن القرآن يتحدث عن الله والإيمان وقدر الإنسان في الحياة الآخرة، إلا أنه ليس عملاً لاهوتياً بحتاً؛ حيث يحتوي على قصص عن الرسل السابقين والمجتمعات المؤمنة والأمم السابقة، إلا أنه أيضاً ليس كتاباً تاريخياً؛ وأخيراً فإن القرآن يتضمن ابتهالات وأدعية، ولكنه ليس كتاباً خاصاً بالصلاة والدعاء فحسب.

إضافة إلى ذلك، على الرغم من أن القرآن يناقش العديد من القضايا القانونية إلا أنه ليس كتاب قانون؛ وعلى الرغم من أنه يخبرنا كيف خلق الله الكون وجعل الأرض تدور حول نفسها إلا أنه ليس بحثاً في العلوم الكونية؛ ويصف القرآن تعاقب الليل والنهار وكيفية تطور الجنين في رحم أمه، لكنه بالطبع ليس تلخيصاً للعلوم الطبيعية.

وكذلك، يستكشف القرآن خبايا العقل والقلب البشري والصراع بين الجسد والروح، إلا أنه ليس عملاً من أعمال علم النفس المتعارف عليه.

إن القرآن يجمع بين هذه العناصر كافة، لكننا لا نستطيع نسبه إلى أيٍ منها. في الحقيقة، إنَّ القرآن المعجز هو الكتاب الوحيد الذي لا نستطيع أن نصفه ببساطة بأنه عبارة عن مجموعة من الأجزاء التي تكونه... إنه أعظم من ذلك بكثير.

أولاً: القرآن هو حجر الأساس للإسلام

على مر تاريخ البشرية المسجل، لم يترك أي حدث من الأحداث أثراً بالغاً في المجتمع البشري بطبيعة الأثر نفسها الذي تركه القرآن، أو كما يسميه الباحث اللاهوتي المسيحي كينيث كراغ «حدث القرآن». بدأ القرآن كمجموعة مركبة من الآيات التي يؤمن المسلمون أن مصدرها هو الله سبحانه وتعالى، ودوّنت كتابةً على مر السنوات على مجموعة متنوعة من الخامات مثل جلد الغزال وعظم الجمال، ثم تطورت مكانة وتأثير القرآن حتى أصبح ـ بعد قرن فقط من وفاة الرسول [ﷺ] بؤرة الاهتمام الثقافية والعاطفية لمجتمع إيماني يمتد من الهند حتى إسبانيا.

وبعد مرور ألف وأربعمئة عام بالفعل لم يتغير شيء ـ بما في ذلك نص القرآن نفسه الذي يقرأ الآن بالشكل والطريقة نفسها التي كان يقرأ بها في عهد محمد [ﷺ]، كما يؤكد المسلمون. ولا يزال

القرآن هو المحور الذي يتمحور حوله المجتمع المسلم العالمي. واليوم وبعد أن أصبحت الأمة الإسلامية تتعدى الـمليار نسمة، وتعدى مفهوم الكتاب المقدّس إلى ما بعد حدود المجتمع المؤمن الذي يعتبر جزءاً لا يتجزأ منه، فلا يوجد من غير المسلمين من لا يعرف أن القرآن هو الكتاب المقدّس للمسلمين.

وعلى الرغم من الاختلاف في وجهات النظر والمناهج والأفكار بين المسلمين، إلا أنهم جميعاً يجتمعون على الإيمان أن القرآن هو كلمة الله الخالدة التي نزلت على محمد [ﷺ] منذ ألف وأربعمئة سنة في صورة سلسلة من الوحي الذي نزل به جبريل على قلب محمد [ﷺ] على مدى ٢٣ عاماً هي عمر البعثة. ومن هنا، فإن القرآن يعتبر حجر الأساس ليس بالنسبة إلى النظرة العالمية والمنظومة الإيمانية للمسلمين فحسب، ولكن أيضاً بالنسبة إلى النواحي القانونية والدينية والفلسفية من الدين الإسلامي وأيضاً ـ في السنوات الأخيرة ـ بالنسبة إلى معظم جوانب السياسة الاجتماعية والنظريات السياسية الإسلامية. وبالطبع، لا يمكن أن تعتبر كل العناصر السابق ذكرها موحدة: فمع معرفتنا بمدى التنوع في العالم الإسلامي، سيكون من الأكثر دقة أن نتحدث عن «النظرة العالمية أو الأنظمة والأفكار والنظريات»؛ حيث إنه سيكون من السذاجة أن نعتقد أن جميع المسلمين في كل أنحاء العالم يؤمنون بالأشياء نفسها وبالطريقة نفسها، أو ينظرون إلى الحقائق أو التطبيقات بالطريقة والمنهج نفسيهما. وعلى كل حال، فإن جميع المسلمين يؤكدون أنه مهما اختلفت وتنوعت مناهجهم وطرقهم فإنها كلها تؤدي إلى القرآن الكريم.

وحتى لو اختلف المسلمون في تفسير القرآن، وحتى لو أساء البعض تفسيره ـ عمداً أو عن غير عمد ـ لخدمة مصالحهم الشخصية أو السياسية، فإن الحقيقة الدامغة التي ستبقى دائماً مهما حدث، هي أن القرآن هو محور العالم الإسلامي، حيث يحتل القرآن مكانة في الإسلام توازي المكانة التي يحتلها المسيح [عليه السلام] في المسيحية. وكما إن المسيح [عليه السلام] كان كلمة الله، فإن القرآن هو كلمة الله الخالدة التي سمح للإنسان بقراءتها.

ثانياً: القرآن والتقوى

يؤمن المسلمون أن القرآن هو الأداة التي تنقل كلام الله إلى الإنسان. وعلى الرغم من أن القرآن هو الكتاب المفترض أن يحتوي على «كلمة الله الخالدة» في الصورة المادية ـ وهو كتاب يحتوي على مجموعة من الأوراق كتبت عليها كلمة الله بلغة الإنسان المقروءة وحفظ بين غلافين ـ فإن الكتاب من دون الكلام بداخله لن يكون مقدساً في حد ذاته.

وهكذا، فإن القرآن بالنسبة إلى المسلمين ليس كتاباً عادياً فحسب، ولكنه كتاب مقدّس من النواحي كلها. إن عدم مقدرة أو عدم رغبة المسلمين المتدينين بالتفرقة بين الكتاب والمادة التي يحتوي عليها، تعتبر بلا شك مظهراً من مظاهر نزعة الإنسان إلى تبجيل الأشياء المادية الملموسة أكثر من ميله لتقديس وتبجيل الأشياء المعنوية. ومن هنا، فإن المسلمين جميعاً يقدسون القرآن سواءً الكتاب نفسه أم الكلام الذي يحويه على حدٍ سواء.

وبغض النظر عن تقديس العامة للقرآن، فإن معظم المسلمين في العالم يتعاملون مع القرآن على أنه الكتاب المقدس. وفي معظم، بل في كل البيوت المسلمة، يحتل القرآن مكاناً عالياً بالمعنى الحرفي والمعنوي للكلمة، حيث يوضع القرآن عادةً في أعلى الرفوف فوق الكتب الأخرى كلها تكريماً وتعظيماً له. وعلى الرغم من أن القرآن يعتبر نصاً صمم خصيصاً بحيث يقرأ ويتدبر في كل فرصة ممكنة، فإن بعض المسلمين يكرمونه بوضعه في أعلى الرفوف فحسب، من دون مراعاة التدبر والقراءة التي أمرهم الله بها. بل قد لا يقرأونه إلا في المناسبات مثل الولادة والوفاة والزواج، وقد يعتقد بعضهم أن مجرد وجود كتاب القرآن في المنزل يجلب الحظ الجيد لأهل البيت كتعويذة لمنع الحسد حتى وإن لم يقرأوه. وفي هذا الاعتقاد جهل كبير بالقيمة الحقيقية للقرآن. ويقوم البعض الآخر من المسلمين بوضع القرآن داخل قطعة من المخمل أو غيرها من الخامات المترفة، لأنه كتاب مطهّر، وكما ذكر في القرآن نفسه ﴿**لا يمسه إلا المطهرون**﴾[1]. ومن هنا، فإن المسلمين غير الطاهرين من الناحية الشعائرية ـ مثل النساء في فترة الحيض أو المسلم عامةً في حالة الجنابة، وقد يتجنب البعض أيضاً لمسه إذا كان غير متوضئ زيادةً في الورع ـ لا يحق لهم لمس صفحات المصحف الشريف. وقد يفسر البعض الطهارة المذكورة في الآية الكريمة بأنها طهارة القلب، ومن هنا، سيكون المعنى أن الذي يملك قلباً غير طاهر لن يستطيع التواصل مع القرآن لأن قلبه ليس مستعداً لقبول الحقائق التي يحتوي عليها الكتاب المقدس.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الواقعة،» الآية ٧٩.

ويرى بعض المسلمين أن القرآن كتاب «إرشادي» أرسله الله إليهم حتى يعرّفهم إلى خالقهم. وبالنسبة إلى هذه المجموعة من المسلمين، فإن القرآن هو كلام الله الخالد الذي يستطيع الإنسان النطق به، والذي أوحاه الله إلى النبي [ﷺ] ليوضح وضع الإنسان على الأرض وليساعده على فهم السبب من خلقه. وتعتبر وجهة النظر هذه أن القرآن هو وسيلة مساعدة لفك شيفرة الوجود الإنساني. ويؤمن المسلمون الذين يتبنون وجهة النظر هذه، بأن القرآن يمثل الحياة الدنيا والحياة الآخرة: فهو يمثل الحياة الدنيا لأنه مطبوع بالحبر على ورق في شكل كلمات يستطيع الإنسان الطبيعي قراءتها، وهو أيضاً تمثيلاً للدار الآخرة لأن مصدره هو الله المطلق عن الزمن والمكان والعالم المادي. وبهذه الطريقة، فإن القرآن يعامل بالاحترام المناسب لمثله من الكتب التي تتضمن النصوص المقدسة.

وأخيراً، فإن من المهم أن نتعرف إلى النظرات المختلفة التي ينظر بها المسلمون على اختلافهم إلى القرآن الكريم. حيث اختلف المسلمون أو من يدّعون الإسلام باللسان وليس بالقلب في نظرتهم إلى الكتاب المقدس؛ ولذلك فمن المهم التمييز بين وجهات النظر المفهومية والثقافية المختلفة. وعلى كل حال، من الأهم أن نتعرف إلى نظرة العدد الأكبر من المسلمين إلى القرآن والتي تعتبر النظرة نفسها التي يصف بها القرآن نفسه، وهي في النهاية النظرة الصحيحة التي يجب على كل مسلم التعامل مع القرآن من خلالها. إن القرآن هو كتاب الحكمة والرسالة المقدسة التي أرسلها الله إلى البشرية باللغة العربية، وهو «إمام ورحمة للعالمين».

ثالثاً: القرآن والقارئ الغربي

قد تعد تجربة قراءة القرآن بهدف اكتساب الفهم المبدئي لرسالة القرآن أمراً مثبطاً للهمة بالنسبة إلى القارئ الغربي غير المسلم وغير الملم باللغة العربية، الأمر الذي قد يترك انطباعاً أولياً سيئاً على أقل تقدير. من هنا، فإن الأفكار والتصورات المسبقة بشأن القرآن ودوره في الإسلام وأهميته بالنسبة إلى المسلمين أصبحت أمراً لا مفر منه وبخاصة مع صورة الإسلام والعالم الإسلامي التي تقدمها وسائل الإعلام الحديثة. إلا، أن هذا الأمر قد لا يكون في حد ذاته سيئاً؛ إذ قد يدفع هذا الناس إلى دراسة القرآن بأنفسهم وعدم الاعتماد على كل ما يقال.

على كل حال، حتى لو تمتع المرء بالشجاعة والرغبة في التخلي عن تصوراته السابقة ووضعها جانباً واكتشاف الحقائق بنفسه، لا يخفف من حدة المواجهة الأولى لأي أجنبي مع القرآن؛ فالقرآن كتاب صعب القراءة، وإذا توقع القارئ الغربي أنه سيبحر خلال الكتاب من الغلاف إلى الغلاف ويستخلص الرسالة المتضمنة في القرآن بسهولة، فسوف يصاب بلا شك بخيبة أمل كبيرة. حيث إن هناك العديد من العوائق التي تصعب الوصول إلى قلب القرآن ومعانيه الخفية. وعلى الرغم من أن الوصول إلى هذه النفائس والمعاني ليس مستحيلاً، فإن النظرة الأولى إلى القرآن تعطي الانطباع وكأن هناك خطة خفية لمنع الأشخاص غير المستعدين لفهم تلك المعاني من الحصول عليها في المقام الأول.

بالطبع، لا يوجد تأكيد أكثر من آيات القرآن نفسها لتخبرنا أن القرآن قد أرسل لهداية «العالمين»، ومن هنا فإن رسالته مفتوحة ومتاحة للجميع في كل الأماكن والأزمنة. وعلى كل حال، فإن الأشخاص الذين ينظرون إلى القرآن من خلال وجهات نظر مختلفة فكرياً أو عقائدياً، يجب أن يتوقعوا الحصول على معانٍ مختلفة: حيث يحصل المرء من القرآن مثل ما يأتي له به، ويشمل هذا المفهوم الأفكار المكونة سابقاً عن صحته وإمكانية الثقة به. ومن المفاهيم الخاطئة التي كثيراً ما يحملها القارئ للقرآن لأول مرة في عقله الباطن، هو أن القرآن في الأصل يخاطب هؤلاء الذين آمنوا بالفعل بالله، وهؤلاء الذين تأكدوا بالفعل من حقيقة رسالة محمد [ﷺ]، أو على الأقل يعتقدون باحتمالية أن يكون رسول الله. وفي هذا الصدد، يقول القرآن نفسه الآتي: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين. الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون. والّذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون**﴾(٢).

وإذا حاولنا وضع الأفكار المكوّنة مسبقاً عن الإسلام والقرآن جانباً، وإذا أخذنا في الحسبان أن القرآن ذو معنى فحسب لهؤلاء الذين يؤمنون بالله والرسول [ﷺ]، فستكون العقبة التالية التي يجب علينا تخطيها هي صعوبة اللغة. لا بد وأن الكاتب والمؤرخ الأسكتلندي الشهير توماس كارلايل، الذي كتب عن بطولة وكاريزما محمد [ﷺ] من خلال أكثر الكلمات اللامعة والمنمقة، إنه

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآيات ٢ ـ ٤.

قد واجه بعض الصعوبات في فهم الرسالة المكتوبة التي جاء بها محمد [ﷺ]، حيث وصف هذا الكاتب الشهير القرآن بما يلي:

«مزيج من الكلمات المحيرة المتعبة... فهو مليء بالتكرار والتفاصيل والاستطرادات المملة والمتشابكة وبالفجاجة والجفاء، أي باختصار بالغباء غير المحتمل».

وسيكون من السهل علينا تفهم هذا الانتقاد عند معرفة أنه لابد قد أُعيق بالصعوبة التي تواجه كل من لا يجيد العربية: فقد قرأ الرجل ترجمة القرآن بلغته، بل قد يكون قد قرأ ترجمة من ترجمة أخرى حتى وصل القرآن إلى لغته الأم. وسوف نتحدث عن مسألة ترجمة القرآن في جزء تالٍ من هذا الفصل من الكتاب.

أما الصعوبة الثالثة التي يواجهها القارئ الغربي أو الأجنبي للقرآن، فتكمن في صعوبة شكل القرآن أو بنيته. وفي الحقيقة، فإن من السهل دحض مثل تلك الاتهامات أو الانتقادات المتعلقة بصعوبة لغة القرآن وبخاصة عندما تأتي هذه الانتقادات من أناس لا يعلمون كيف يقرأون اللغة العربية الأصلية. وما لا شك فيه أن هذه الفئة من الأشخاص سيكون من الصعب عليها أيضاً فهم كيفية تقسيم القرآن؛ في الحقيقة، إنَّ أكثر الانتقادات شهرةً من الانتقادات التي يتهم بها الذين يعادون القرآن ذلك الكتاب الكريم، تتمحور حول البنية الشكلية للقرآن. إن الأجزاء والآيات المختلفة من القرآن الكريم تبدو وكأنها جمعت معاً في هذا الترتيب بهدف معين خفي. حيث لا تتوحد أيٌّ من السور الـ ١١٤ التي تكوّن القرآن الكريم في

الأماكن أو الأشخاص التي تختلف بسرعة وبطريقة مفاجئة من حين إلى آخر؛ بحيث قد يصعب على القارئ المعتبر القرآن قصة موحدة على تتبع الأحداث. وباختصار، قد يرى القارئ للقرآن لأول مرة أنه عبارة عن مجموعة من الآيات التي ترتبط بعضها ببعضها الآخر بشكل متبادل ظاهرياً، لكنها تختلف عن القصص السردية المعتادة. وقبل أن نؤكد أو ننفي وجهات النظر القاسية التي يدعيها النقاد الغربيون عن القرآن، وقبل أن نقرر ما إذا كانت البنية التكوينية للقرآن معجزة أم مفككة، يجب أولاً أن نتناول بالبحث بعض الموضوعات المهمة.

رابعاً: البنية الشكلية للقرآن

سنبدأ في النظر إلى القرآن كما يبدو اليوم قبل الرجوع إلى ما كان عليه شكله في التاريخ في عصر محمد [ﷺ]، ونرى كيف كان يبدو عليه عند نزوله أول مرة، وكيف حُفِظ على مر السنوات، وانتقل عبر الزمن حتى وصل إلينا في شكله اليوم.

ـ التقسيمات الداخلية للقرآن

يعتبر القرآن أقصر بقليل من الإنجيل من حيث الطول، وللقرآن تقسيمتان داخليتان هما «الآية» و«السورة»، وهما يمثلان التقسيمات المماثلة من حيث المفهوم والبنية للفصل والمزامير الموجودة في الإنجيل.

١ ـ آيات القرآن

إن المعنى الحرفي لكلمة «آية» هو العلامة المميزة أو الإشارة؛ ومن هنا قد يفهم البعض الآيات على أنها علامات مميزة تشير إلى الخالق مثل المعجزات، أو الدليل البشري على وجود الله في صورة الرسل والأنبياء، أو أيٍ من المخلوقات في الأرض وفي السماء التي يدل مجرد وجودها على أسماء وصفات خالقها. في الحقيقة، هناك مواطن كثيرة في القرآن الكريم يمكن فيها فهم الآيات على أنها معجزات أو علامات على وجود الله.

يمثل كل سطر من السطور التالية آية من آيات القرآن. وتكوّن الآيات معاً السورة القرآنية الأكثر شهرة في القرآن وهي «سورة الفاتحة»:

- ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**
- **الحمد لله رب العالمين**
- **الرحمن الرحيم**
- **مالكِ يوم الدين**
- **إياك نعبد وإياك نستعين**
- **اهدنا الصراط المستقيم**
- **صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾.

وتعتبر سورة «الفاتحة»، ابتهالاً أو دعاءً يكرره المسلمون كجزء أساسي من الصلوات الخمس التي يقيمونها في اليوم الواحد، أو في

أي وقت يشعر المسلم برغبة في مدح الله أو الثناء عليه. وسيرى القراء أن الآية القرآنية ليست بالضرورة قائمة بذاتها سواء من الناحية الشكلية للجملة أم من الناحية الموضوعية: حيث من الممكن أن تمتد جملة كاملة على مدى آيتين أو أكثر، بينما قد تحتوي بعض الجمل الأخرى على كلمتين أو ثلاث كلمات على الأكثر. وهكذا، فإن آيات القرآن تختلف في الطول والبنية؛ حيث تحتوي بعض السور على عدد قليل من الآيات، بينما تحتوي بعض السور الأخرى على المئات من الآيات؛ فعلى سبيل المثال، تحتوي سورة «البقرة» وهي السورة الثانية من سور القرآن على ٢٨٦ آية.

٢ ـ سور القرآن

تشير كلمة «سورة» أو «سور» في اللغة العربية إلى الشيء الذي من شأنه تحديد شيء ما وتمييزه عن غيره. ويحتوي القرآن على ١١٤ سورة تختلف في ما بينها في الطول؛ وتحتوي النسخ الحديثة المطبوعة من القرآن الكريم على عدد السور نفسها التي كان يحتوي عليها المصحف في عهد الخليفة عثمان بن عفان [رضي الله عنه] وقد تم ترتيب السور داخل المصحف الشريف تقريباً بحسب طول السور، حيث تأتي أولاً السور المدنية التي تزيد في الطول عن السور المكّية التي نزلت في مكة في بداية البعثة النبوية والتي يأتي معظمها في آخر المصحف. هذا بالطبع مع استثناء سورة «الفاتحة» وهي سورة مكية لكنها تأتي دائماً في صدر المصحف الشريف.

وفي معظم الأحيان، يشير الاسم الذي يطلق على السورة إلى الفحوى العام للسورة أو كنوع من الاختزال الموضوعي لأحد الموضوعات التي تحتوي عليها السورة؛ فعلى سبيل المثال، تأتي تسمية السورة الثانية من سور القرآن الكريم وهي سورة «البقرة»، كإشارة إلى البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها ليبين لهم كيف يحيي الله الموتى. وتبدأ كل سور القرآن الكريم بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم»، ما عدا سورة «التوبة». وتمثل البسملة الآية الأولى في سورة «الفاتحة».

على الرغم من أن معظم السور ـ وبخاصة السور المكية الأقصر التي نزلت على الرسول [ﷺ] خلال الفترة المكية من البعثة ـ نزلت على الرسول دفعة واحدة، فإن بعض السور قد نزلت كأجزاء وعلى مدى أيام عدة أو أسابيع أو شهور أو حتى سنوات. ويسمي البعض هذه السور بالسور المركبة، ما يعني ببساطة أنها تركب من مجموعة من الآيات التي نزلت في أوقات مختلفة ـ وفي بعض الأحيان من دون ترتيب ـ ثم تم ترتيبها بعد ذلك بحسب موضوعها.

خامساً: كيف نزل القرآن الكريم

من المستحيل أن نحدد كيف وأين ومتى بالتحديد نزلت كل آيات القرآن الكريم على محمد [ﷺ] حيث تخبرنا الأحاديث والسيرة النبوية عن بعض مواطن نزول الآيات.

تؤكد الأحاديث النبوية بالأدلة أن نزول القرآن على محمد [ﷺ] استمر في سلسلة متتالية امتدت على مدى ثلاثة وعشرين عاماً تبدأ منذ تجربته الأولى عندما كان في الأربعين من عمره داخل غار حراء، وتنتهي بنزول آخر الآيات عليه قبل وفاته بتسعة أو عشرة أيام فقط. وبغض النظر عن فترة انقطاع الوحي التي تعرض لها الرسول [ﷺ] في بداية البعثة عندما أصابته الحيرة والشك في أن الله قد هجره، فإن الوحي بالقرآن قد نزل على محمد [ﷺ] في صورة سلسلة متتالية، تارةً ما تكوّنت من آيات منفصلة أو مجموعة من الآيات المجتمعة وفي بعض الأحيان من سور كاملة.

يعتقد المسلمون أن الملك الذي كان موكلاً بتوصيل الوحي من الله إلى محمد [ﷺ] هو روح القدس جبريل [عليه السلام]، الذي ظهر لمحمد [ﷺ] في أكثر من صورة مختلفة في كل مرة من مرات الوحي. وقد حاول العلماء المسلمون التعرف إلى المواقف التي شهدت نزول آيات معينة خلال البعثة النبوية. وتسمى هذه المواقف «أسباب النزول» وهي مجموعة من الأحداث التي وقعت في الفترة التاريخية الأولى من الإسلام ـ مثل غزوة بدر الكبرى على سبيل المثال ـ والتي شهدت نزول بعض الآيات أو السور المعينة. وصدر العديد من الكتب التي تحاول تفسير أسباب نزول الآيات في مواقف أو أحداث وأوقات معينة. وعلى كل حال، فإن تتبع أسباب نزول الآيات لا يعتبر علماً قائماً بذاته. ومن ناحيةٍ أخرى، فإن البحث في أسباب نزول الآيات لا يتعارض مع إيمان المسلمين أن آيات القرآن تتوقف على السياق من

ناحية، لكنها في الوقت نفسه تلائم كل المواقف والأزمنة، ويجب تفسيرها من وجهة النظر هذه.

يعتقد المسلمون أن الحكمة من نزول القرآن في أجزاء على مدى عدد من السنوات تعكس الإدراك التدريجي للإنسان لحقيقة الرسالة التي يحتوي عليها القرآن. إضافة إلى ذلك، يعتقد المسلمون أن حكمة الله تتجلى في تجزيء نزول القرآن بهذه الطريقة رأفةً بالرسول الكريم [ﷺ] الذي كان يعاني معاناة شاقة عند نزول الوحي عليه، ومن ناحيةٍ أخرى فإن نزول القرآن بهذا الشكل التدريجي جعل من السهل على المسلمين حفظ آياته وتناقلها شفهياً، كما جرت العادة وقتها.

ـ تقسيم سور القرآن ما بين مكية ومدنية

هناك العديد من الفروق الموضوعية والشكلية بين السور التي نزلت في مكة وتلك السور التي نزلت في المدينة. وتدلنا الأحاديث النبوية على مصدر السور ـ سواء كانت مكية أم مدنية ـ كما تحتوي الطبعات الحديثة للقرآن الكريم على إشارة في بداية كل سورة إلى ما إذا كانت هذه السورة مكية أم مدنية. ولكن هناك بعض السور المركبة التي تحتوي على بعض الآيات المكية وأخرى مدنية ولذلك يصعب تسميتها ككل بالسور المكية أو المدنية. وعلى كل حال، هناك مجموعة من الطرق التي نستطيع من خلالها تحديد أصل السور ومكان نزولها.

١ ـ السور المكية

تتناول السور المكية بصورة أكبر الموضوعات المتعلقة بأصول الدين ـ مثل التوحيد والنبوة واليوم الآخر ـ أكثر من الموضوعات التي تتعلق بأركان الإسلام والشعائر والعبادات. ومن هنا، فإذا ركزت السورة على وحدانية الله أو على قصص الرسل السابقين، أو على خطورة عبادة الأصنام، أو أي نوع آخر من الفساد الأخلاقي، أو عن القدر والحياة الآخرة، فإن هذه السورة على الأرجح قد نزلت في الفترة المكية من البعثة النبوية.

إضافة إلى ذلك، فإن السور المكية تميل إلى كونها أقصر من السور المدنية، وتتميز السور المكية بالنواحي الجمالية والرمزية والمجازية في اللغة التي لا تخلو من الحس الدرامي. ومما لا شك فيه، أن استماع العرب في ذلك الوقت إلى الإعجاز اللغوي للقرآن قد أصابهم بالدهشة والذهول بالمعنى الحرفي للكلمة، بغض النظر عما إذا كانوا قد استوعبوا الرسالة الأخلاقية التي تحتوي عليها الآيات؛ فقد روت بعض الأحاديث كيف كان مشركو مكة يقعون ساجدين لمدى بلاغة الآيات فحسب؛ وقد صرح بعض مشركي مكة أنهم قد قبلوا القرآن بسبب البلاغة اللغوية والإعجاز اللغوي الذي يظهر في السور المكية فحسب.

٢ ـ السور المدنية

تتميز السور التي نزلت على الرسول [ﷺ] في الفترة المدنية من البعثة بأنها أطول وأكثر تعقيداً من السور المكية. وعلى الرغم من

تكرار السور المدنية لبعض الموضوعات التي تناولتها السور المكية من قبل، إلا أنها تعرضها بصورة مختلفة تماماً حفاظاً على التغير العام في الاتجاه في آيات القرآن منذ هجرة الرسول [ﷺ] من مكة إلى المدينة وبداية تأسيس الدولة الإسلامية.

على الرغم من أننا قد نبالغ في قولنا هذا في تبسيط الأمر، يبدو أن السور المكية أو الفترة المكية من البعثة بصفةٍ عامة ركزت بشكل أكبر على «التعرف إلى الله»، بينما ركزت السور المدنية أو الفترة المدنية من البعثة النبوية بصفةٍ عامة على «التعرف إلى قوانين الله». نزلت «الآيات التشريعية» ـ وهي الآيات القرآنية التي تتناول الشعائر الدينية والأمور الفقهية ـ في المدينة المنورة؛ حيث كان محمد [ﷺ] قد بدأ في المجتمع الإيماني وبالتالي فقد كان في حاجةٍ إلى تعزيز التعاليم الأخلاقية والمبادئ القانونية. وعلى الرغم من تميز السور المدنية بالبلاغة المعهودة في اللغة القرآنية، إلا أنها لا تحتوي على القدر نفسه من العبارات اللغوية المجازية والاصطلاحات التي تحتوي عليها السور المكية.

سادساً: لغة القرآن

يوضح القرآن نفسه أن الله يبعث لكل أمة رسولاً يتحدث بلسانها. وفي حال القرآن، كانت هذه اللغة المفهومة والمتعارف عليها بالطبع هي اللغة العربية. ولكن، لماذا اختار الله أن يتواصل مع الإنسان في هذه الرسالة باللغة العربية، أو عن طريق العرب؟ يميل

المسلمون إلى الرد عن هذا السؤال بقولهم إن الله قد أظهر إعجازه للبشر، ولو أنه فعل ذلك باللغة النرويجية ـ مثلاً ـ أو اللغة المنغولية لسأل الناس السؤال نفسه أيضاً. ويفضل البعض الالتزام بوجهة النظر القرآنية بخصوص هذا الموضوع، التي تؤكد أن القرآن لو نزل بأي لغة غير اللغة العربية لكان العرب قد رفضوا الاستماع له: ﴿**ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياته أأعجميٌ وعربيٌ**﴾[٣].

وتتباين وجهات النظر الأكاديمية الإسلامية حول مدى «نقاء» اللغة العربية المستخدمة في القرآن الكريم: حيث يعتقد البعض أن القرآن لا يحتوي على أي كلمة غير عربية تماماً، بينما يعتقد البعض الآخر أن القرآن يحتوي على بعض الكلمات المشتقة من اللغات الأخرى. ويميل بعض النقاد المعادين للإسلام من غير المسلمين إلى تأييد الاعتقاد القائل إن القرآن يحتوي على بضعة كلمات غير عربية الأصل، حيث يعتقدون ـ وبشدة ـ أنهم إذا استطاعوا إثبات عدم نقاء اللغة العربية التي يحتوي عليها القرآن فإنهم يستطيعون دحض أداء القرآن بأنه ﴿**لسان عربي مبين**﴾[٤].

ومثل غيرها من اللغات، من الطبيعي أن تكون اللغة العربية التي استخدمها العرب في مكة في عهد محمد [ﷺ] قد شابها بعض الكلمات ذات الأصل الأجنبي؛ إذ كان المهم بالنسبة إلى القرآن هو تمكن السامعين من فهمه وليس حصوله على النقاء اللغوي غير

(٣) المصدر نفسه، «سورة فُصّلت،» الآية ٤٤.

(٤) المصدر نفسه، «سورة النحل،» الآية ١٠٣.

المشكوك فيه. وفي الحقيقة، إنَّ احتواء القرآن على بعض الكلمات المشتقة من أصول فارسية أو شامية أو غيرها لا يقلل من قدسيته. ومن هنا فإن محاولات النقاد غير المسلمين لإثبات احتواء القرآن على كلمات غير عربية الأصل، والدفاع المقابل من علماء المسلمين الذين يسعون إلى إثبات النقاء اللغوي للقرآن من الكلمات المشتقة من أصول غير عربية، مجرد مضيعة للوقت لا فائدة منه.

سابعاً: الأسلوب اللغوي للقرآن الكريم

لطالما تجادل العلماء ـ المسلمون منهم أم غير المسلمين ـ حول مدى شرعية اعتبار القرآن الكريم نوعاً من أنواع «الأدب». وعلى الرغم من عدم انتماء القرآن الكريم لأي نوع من أنواع الأعمال الأدبية ـ الشعر أو النثر أو الملاحم أو المسرحيات أو الروايات أو القصص القصيرة ـ فإن القرآن يحتوي على بعض العناصر والمميزات التي تفسر على أنها «أدبية» وبشكل قاطع.

في الحقيقة، إن لغة القرآن الكريم تعتبر لغة فريدة من نوعها، وتميِّزه عن غيره من الأعمال الأدبية الدنيوية التي أصدرها العرب في العصور السابقة للإسلام من حيث بنية الجملة والهيكل النصي ككل. وكما يؤكد العديد من الخبراء في مجال الأدب العربي، فإن القرآن الكريم متميز من حيث الإبهار في الأصوات، والبلاغة في الألفاظ وجمال التعبير والمجاز والإعجاز في التجانس الصوتي، وتجنيس الأحرف في بدء الكلمات المتتابعة أو قافيتها، وكذلك في الوزن

والسجع والتسمية بحكاية الأصوات والتشبيهات الجمالية والحذف. وهكذا، فإن لغة القرآن الكريم قد وصلت إلى مستوى من الرقي والسموّ حتى إن بعض الشعراء العرب في العصر الحديث قد فشلوا في مجاراة بلاغة آيات الرسالة السماوية التي جاء بها محمد [ﷺ]، والتي اعتبرها العرب الأوائل معجزة.

ومن هنا، إذا نظرنا نظرة علمية بحتة إلى القرآن، فسنؤكد أنه ينتمي إلى الأدب بالمعنى الأكاديمي للكلمة، بل إنه ينتمي إلى نوعية الأدب الممتاز وليس الأدب العادي، في سياق الزمن الذي نزلت فيه الرسالة . وإذا قلنا إن القرآن هو كلام الله، إذاً هو كلام الله الذي وصله عن طريق اللغة الإنسانية. وعلى الرغم من أن القرآن ليس له الهدف والوظيفة نفسهما التي قد تؤديها مجموعة من النصوص الأدبية، فإن اعتبار القرآن نوعًا من أنواع الأدب من الناحية اللغوية فحسب ليس خطأً. إذا نظرنا إلى القرآن على أنه وحي إلهي من دون اعتبار الجانب الأدبي فيه، فإننا ننكر بذلك الجانب البشري في اللغة القرآنية والذي من دونه ما كانت الرسالة المقدسة ستصل إلى الإنسان أبداً. أما إذا نظرنا إلى القرآن مع الإيمان باحتوائه على كلا الجانبين المقدس والبشري، فإننا بذلك سنفهم كيف تتجلى كلمة الله وقدرته ليس من خلال اللغة البشرية فحسب، ولكن أيضاً من خلال المخلوقات كلها، وهي فكرة متأصلة في القرآن الكريم نفسه.

بالطبع، قد يقبل غير المسلمين فكرة أن القرآن نوعًا من أنواع الأدب من دون قبول فكرة أنه وحي من عند الله. وعلى كل حال،

يمكن للمسلمين وغير المسلمين إيجاد قاعدة مشتركة للحوار من خلال اعتقادهم بوجود ناحية أدبية في لغة القرآن. الأمر الذي قد يساعدهم على التخلّص من العديد من العوائق والأفكار القديمة التي كانت تعيق ذلك الحوار. ولهذا السبب، فإن من المهم إعادة النظر في الأفكار القديمة، من كلا الجانبين، المسلم وغير المسلم. ومن المبشر أن هناك بعض المؤشرات التي تؤكد أن مثل هذا الحوار المتفهم لن يكون أمراً مستحيلاً بعد اليوم ـ وبخاصة على صعيد العالم الأكاديمي.

ثامناً: معجزة الرسالة، الإعجاز في القرآن الكريم

يؤكد القرآن أن «المعجزات» كانت دائماً من أهم وأشهر الطرق التي استعان بها رسل الأمم السابقة لتأييد صدق رسالتهم ونبوّتهم. وتعتبر كلمة «معجزة» اشتقاقاً من فعل «معجز» الذي يحمل العديد من المعاني، من بينها معنى «استحالة الحدوث». وفي الحقيقة، صاحبت محمد [ﷺ] خلال رسالته العديد من المعجزات والأحداث النادرة. وعلى كل حال، فإن عدم ذكر القرآن لهذه المعجزات أو مناقشتها بالتفصيل قد جعل بعض الباحثين الإسلاميين يعتبرون القرآن نفسه هو المعجزة التي جاء بها محمد [ﷺ] لتأييد رسالته. ولكن من المهم أن نعلم أن أهم عناصر إعجاز القرآن الكريم تكمن في استحالة أن يكون مؤلفاً من قبل محمد [ﷺ]، إذ كان محمد [ﷺ] «أميّاً» لا يستطيع الكتابة، ما يعني أنه غير متعلم بالمعنى الحديث للكلمة. ومن هنا، فقد استحال أن يأتي محمد [ﷺ] بالقرآن من

عنده، وإنما هو كلام الله، ومن الواضح أن هذا السبب يعتبر كافياً لإسكات أكثر النقاد قسوةً على محمد [ﷺ].

ويصف المسلمون الجانب المعجز للقرآن الكريم باسم الإعجاز. ومن المؤكد أن القرآن الكريم لا مثيل له ولا نظير: فمهما حاول المرء جاهداً فلن يجد للقرآن الكريم مثيلاً من حيث البلاغة والجمال والحكمة.

ولم يحاول الكثيرون دخول هذا التحدي لعلمهم أنه لا مجال للتحدي من الأصل.

تاسعاً: موضوعات القرآن

لا يستطيع المرء تعريف القرآن، فهو مستعصٍ على التعريف أو التسمية أو التصنيف. ولهذا، فسنترك الأمر لهؤلاء الذين يريدون قراءة القرآن جزءاً جزء، وسورةً سورة، وآيةً آية، ليخبرونا عن المحتوى الأساسي للقرآن؛ فعلى الرغم من أن القرآن يحتوي على قصص عن الرسل السابقين والمجتمعات المؤمنة والأمم السابقة، إلا أنه ليس كتاباً تاريخياً؛ وعلى الرغم من أن القرآن يتضمن ابتهالات وأدعية، لكنه ليس كتاباً خاصاً بالصلاة والدعاء فحسب. إضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من أن القرآن يناقش العديد من القضايا القانونية إلا أنه ليس كتاب قانون؛ وعلى الرغم من أنه يخبرنا كيف خلق الله الكون وجعل الأرض تدور حول نفسها إلا أنه ليس بحثاً في العلوم الكونية. إن القرآن يجمع بين كل هذه العناصر، لكننا لا نستطيع نسبه إلى أيٍ

منها. في الحقيقة، إنَّ القرآن المعجز هو الكتاب الوحيد الذي لا نستطيع أن نصفه ببساطة بأنه عبارة عن مجموعة من الأجزاء التي تكونه... إنه أعظم من ذلك بكثير.

وعلى كل حال، فإن الحقيقة التي لا يمكن الخلاف عليها هي أن القرآن مستحيل تعريفه أو تصنيفه. وقد أدت الطبيعة المتميزة للقرآن ـ إضافة إلى الهياكل اللغوية والاستعارات الصعبة في أغلب الأحيان ـ إلى اعتبار بعض نقاده أنه غير قابل للقراءة أو التواصل. حتى بالنسبة إلى الدارسين المسلمين الذين يحاولون تفسير القرآن باللغة العربية ومعرفة ما يقوله القرآن عن مختلف الموضوعات التي يغطيها، فإن المهمة لن تكون سهلة. حيث إن الموضوعات التي يتناولها القرآن لا تتم مناقشتها بالتفصيل، إضافة إلى أنها ليست مرتبة ترتيباً تسلسلياً كما أوضحنا من قبل. ولمعرفة ما يقوله القرآن عن موضوع من الموضوعات، يستوجب على القارئ البحث عن الآيات التي تتحدث عن ذلك الموضوع بعينه بمساعدة كتب التفسير، أو بالاستعانة بفهرس الموضوعات ـ وهو أقل فائدة ـ ثم يجمع كل تلك المصادر المتفرقة في مجموعة واحدة.

ركز عدد من العلماء المسلمين على قضية موضوعات أو محتوى القرآن، وبعد البحث المفصل في الأعمال المهمة كلّها التي ركّزت على موضوعات القرآن، توصّلت في النهاية إلى نتيجة تؤكد أن القرآن الكريم يحتوي في الأساس على سبعة موضوعات أساسية تدور حولها معظم السور والآيات. وسأقوم بتناول هذه الموضوعات

السبعة بالتفصيل في الفصل الثالث من الكتاب، وبالتحديد في الجزء الخاص بـ «الإيمان ومتطلباته». وتتلخص هذه الموضوعات السبعة في ما يلي:

ـ الله، وتوحيد الخالق وقضية الإيمان والكفر.

ـ قصص الأمم السابقة، رسائل الأنبياء والرسل السابقين لمحمد [ﷺ].

ـ بعثة محمد [ﷺ] في مكة والمدينة.

ـ الدار الآخرة.

ـ الإنسان وعلاقته بخالقه والملائكة والجن والصراع الوجودي للإنسان في الحياة.

ـ الآيات التي تتحدث عن الظواهر الكونية.

ـ الآيات التشريعية: القوانين والإرشادات والمبادئ السلوكية والتعاليم الأخلاقية.

١ ـ الله ووحدانية الخالق

يجتهد القرآن الكريم لبيان حقيقة أنه على الرغم من كون الله سبحانه وتعالى بعيداً، بمعنى أنه مختلف ومتفرد عن جميع خلقه، فإن الله أقرب إلى العباد من حبل الوريد. ولتأكيد قضية تفرد الله، يركز القرآن على أن الله الخالق دائم الخلق، حيث يؤكد أن الله قد خلق

السماوات والأرض في ستة أيام، لم يعِ بخلقهن ولم يسترح في اليوم السابع؛ فعملية الخلق مستمرة طول الزمان، وفي الحقيقة، يستطيع المرء وصف عملية الخلق بأنه «الخلق المستمر»، أو بمعنى آخر الخلق المتواصل، من خلال محو وإعادة الخلق ثانية بثانية لكل الأمور. وسوف نعود إلى تناول موضوع الله الخالق مرة أخرى في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

لا يستخدم القرآن أي حجج فلسفية لإثبات وجود الله؛ ففي الحقيقة، إن القرآن لا يحاول بأي حال إثبات وجود الله، بل يركز بدلاً من ذلك على سرد قصص الأمم السابقة ورسلهم، ومن خلال سرد تلك القصص فإن القرآن لا يثبت وجود الله فحسب، بل يثبت أيضاً وحدانيته.

ولا يقتصر هدف القرآن على إثبات وجود الله ووحدانيته، بل يتعدى ذلك إلى محاولة كشف الصفات الإلهية التي يستطيع عقل الإنسان إدراكها. فعلى الرغم من أن الله بجلالته وعظمته لا يمكن لأحد أن يراه، فإن الله يتجلى للعباد من خلال مخلوقاته. ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت. وإلى السّماء كيف رُفعت. وإلى الجبال كيف نُصبت. وإلى الأرض كيف سُطحت**﴾[٥].

إن التأكيدات والحث الإلهي للإنسان على «التدبر» و«التأمل» و«التفكر» في «الآيات» العديدة في السماوات والأرض، ليس الغرض منها مجرد تعرف الإنسان إلى الكون من حوله لمجرد

(٥) المصدر نفسه، «سورة الغاشية،» الآيات ١٧ ـ ٢٠.

المعرفة والعلم، ولكن الهدف الأساس من تلك الآيات هي تشجيع الإنسان على دراسة الكون من حوله حتى يتعرف بصورة أكبر إلى خالقه وخالق ذلك الكون الشاسع؛ فالتعرف الحق إلى الله هو الوسيلة الوحيدة لتعلّم كيفية محبته، ومن خلال محبته يمكننا طاعته. إذ من المستحيل أن يحب الإنسان نفسه ويحب الله في الوقت نفسه، إن المسلمين والمسيحيين يتشاركون في مفهوم تمجيد الله، «حيث تمجد ملكوتك، تجلت مشيئتك». إلا أنه حتى يمجد ملكوت الله، يجب أن يتلاشى ملكوت الإنسان التخيلي، وحتى تتم مشيئة الله يجب على الإنسان أن يلتزم بالطاعة والانصياع. ومن هنا جاء تأكيد القرآن وحدانية الله وأهمية الاستسلام التام للخالق الذي يهدف إلى توضيح كيف يمكن لهذا الملكوت الوحداني أن يتواجد سواء في حياتنا تلك أم في الحياة الآخرة.

٢ ـ قصص الأمم السابقة

أما الموضوع الثاني في القرآن، فيدور حول قصص الأمم السابقة وكيف استقبلت تلك الأمم رسلها وأنبياءها الذين كانوا يدعون للإسلام والتوحيد. ويحكي القرآن هذه الروايات من خلال مجموعة من القصص القرآنية التاريخية التي يمكن أن نطلق عليها اسم «قصص الأنبياء»، وتروي قصص الأمم السابقة كيف اختار الله الأنبياء وبعثهم إلى كل المجتمعات المعروفة للإنسان، بعد أن تربوا بينهم، لينذروهم من خطر الشرك والكفر بالله، ويدعونهم إلى الإيمان

بالله وحده، واتباع الصراط المستقيم حتى يصلوا إلى النجاة والجنة. وتؤكد روايات الأحاديث النبوية، أن الله قد بعث ١٢٤ رسولاً ونبياً إلى أقوامهم في أنحاء الأرض منذ آدم أبي الأنبياء وحتى محمد [ﷺ] خاتم الأنبياء. يذكر لنا القرآن أسماء ما لا يقل عن ٢٤ نبياً وقصص بعضهم، وسيجد القارئ الغربي أسماء هؤلاء الأنبياء والرسل المذكورين في القرآن معروفة بالنسبة إليه أكثر من أنبياء ورسل العهد القديم والتوراة.

ومن المفترض ألا يتفاجأ القارئ الغربي للقرآن بذكر الكتاب الكريم للرسل الموجودين في الإنجيل مثل إبراهيم وموسى ويوسف وعيسى، لأن القرآن يؤكد أن محمداً [ﷺ] هو الخاتم لهؤلاء الأنبياء الذين جاءوا برسالته نفسها، رسالة الإسلام لله، فليس هناك تناقض بين رسالة هؤلاء الرسل ورسالة محمد [ﷺ] الذي اختاره الله ليكون خاتم المرسلين. حيث إن الدين في النهاية الإسلام أو الاستسلام لله. وكما يؤكد القرآن، فإن رسالة جميع هؤلاء الأنبياء هي التبشير والتنذير لينذروهم من عبادة الأصنام ويدعونهم لعبادة الله الواحد، ويبشرونهم بالجنة والسلام الذي لن ينالوه إلا بالإيمان بالله الواحد والاستسلام لإرادة الله؛ ففي القرآن الكريم يؤكد الله مرة بعد مرة أن محمداً [ﷺ] هو خاتم الأنبياء ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً**﴾(٦).

(٦) المصدر نفسه، «سورة النساء،» الآية ١٦٣.

كما ذكر القرآن بعضاً من الشخصيات التي ذكرت في الإنجيل ومنها آدم (وحواء) وزكريا ويحيى ومريم أم المسيح [عليه السلام]. بالإضافة إلى ذلك، يحتوي القرآن على قصص بعض الأنبياء الذين بعثوا في الجزيرة العربية، وغيرهم من الرسل والأنبياء الذين لم يذكروا في كتب الديانات السابقة، ومن بين هؤلاء الرسل «ذا الكفل» الذي قال عنه البعض إنه بوذا.

وفي ما يتعلق بقصص الأنبياء، فإن القرآن الكريم يعتبر غاية في المرجعية؛ حيث يتفاعل القرآن مع القارئ على أنه يعرف من قبل قصص الأنبياء السابقين، ولهذا فإنه يحذف التفاصيل الزائدة على الحاجة. ويوضح هذا المنهج أمرين مهمين عن القرآن والأمة التي بعث فيها القرآن؛ حيث يبين أن الأمة الأصلية التي تلقت القرآن كانت ـ مثل محمد [صلى الله عليه وسلم] نفسه ـ على دراية بالكتب السماوية السابقة. إضافة أن هذا المنهج القرآني يؤكد أمراً آخر وهو الاحترام والمكانة العالية التي يحفظها القرآن ليس للرسل السابقين فحسب، ولكن للكتب السماوية السابقة التي جاء بها هؤلاء الرسل ليؤيدوا رسالتهم أيضاً.

يتشابه الرسل المذكورين في القرآن في الكثير من المميزات؛ حيث إنهم جميعاً من الشعب، أي إنهم ظهروا من بين قومهم ليتحدوا الوضع الراهن، وكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم من أجل تحقيق الهدف الذي آمنوا به: وهو إرشاد وتوجيه البشرية مرة أخرى

إلى الوحدانية المثالية ـ معرفة الله وحب الله وعبادة الله الواحد ـ ومن هنا، فإن محاولة إنقاذ البشرية هو الجانب الآخر لقصص الأنبياء في القرآن.

٣ ـ رسالة محمد [ﷺ]

لا يقدم القرآن ما قد يشبه من قريب أو بعيد سيرة ذاتية لرسول الإسلام محمد [ﷺ]، وعلى الرغم من ذلك، إذا قام المرء بدراسة متأنية لآيات القرآن سيعطيه ذلك الفرصة لبناء صورة تصورية لمحمد [ﷺ] على الرغم من عدم ترتيب الآيات ـ ما يسهّل علينا معرفة بعض التصورات العميقة عن شخصيته ودوره كرسول الله، وعن الصعوبات التي واجهها خلال تنفيذ مهمته.

إن السور المكية هي، وبكل سهولة، أكثر السور إيجازاً، حيث لم يتم ذكر محمد [ﷺ] في هذه السور إلا مرات قليلة من خلال إشارات عامة وعرضية إلى مكانته كرسول الله [ﷺ]، والعديد من التأكيدات على أن رسالته من الله وليست كهناً أو جنوناً.

بينما تقدم بعض السور المكية الأخرى الدعم والطمأنينة لمحمد [ﷺ]، وتضمن له النجاح في النهاية إذا استعد وصبر على أذى المشركين، وأكمل الرسالة كما أمره الله.

وعلى الجانب الآخر، تتبع العديد من السور المدنية الأحوال المتغيرة والصعاب التي واجهها محمد [ﷺ] خلال محاولته بناء الديناميكية الاجتماعية المعقدة للمجتمع المدني الجديد.

في هذه السور المدنية، كان المسلمون أنفسهم ـ المهاجرون منهم أم الأنصار ـ هم أبطال الدراما المدنية، إضافة إلى مشركي مكة وأهل الكتاب ـ من اليهود أو المسيحيين ـ وكذلك المنافقين، وهم مجموعة كبيرة من الأفراد أظهروا إسلامهم بينما أبطنوا الكفر وتحالفوا مع قوى الشرك، مسببين نوعاً من الانشقاق الذي كان سبباً في حزن محمد [ﷺ] الدفين.

إضافة إلى ذلك، يسجل القرآن زمنياً الأحداث المهمة والغزوات التي خاضها الرسول ضد أعدائه من كفار قريش مثل غزوة بدر وغزوة أُحُد، مع بعض الإشارات غير المباشرة إلى الغزوات الصغيرة من خلال سياق الرسالة العامة لمحمد [ﷺ] في محاربة ما يراه المسلم على أنه جور الكفر. إن السبب في نزول الوحي تدريجياً بآيات القرآن هو أن تلك الآيات كانت تنزل في مناسبات تتعلق بها، لتتنبأ وتنذر بوقوع تلك الأحداث في بعض الأحيان، ولتقديم التوضيحات والتبريرات لتلك الأحداث في وقت وقوعها في أغلب الأحيان.

إن المغزى الأساسي لكل السور التي يتم فيها الإشارة إلى محمد [ﷺ] ليس التأكيد على إنسانية الرسول ـ مثل جميع الناس ـ ولكن أيضاً التأكيد على أن رسالته ذات طبيعة مشابهة لكل الرسالات السابقة: ﴿**إنّما أُمرتُ أن أعبد ربّ هذه البلدة الّذي حرّمها وله كلّ شيء وأُمرتُ أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقُلْ إنّما أنا من المنذرين**﴾[٧].

(٧) المصدر نفسه، «سورة النمل،» الآيتان ٩١ ـ ٩٢.

٤ ـ الدار الآخرة

يؤكد القرآن الكريم، مثل التوراة في اليهودية والإنجيل في المسيحية، حقيقة وجود الدار الآخرة والحياة الأخرى بعد الموت واستمرار وجود الإنسان في الدار الآخرة. حيث سيحاسب الإنسان في الدار الآخرة على أفعاله في الدنيا من الحسنات والسيئات. ومن الجدير ذكره، أن ربع القرآن تقريباً قد خُصص لتناول الموضوعات الآخروية مثل البعث بعد الموت، والحساب من قبل الله سبحانه وتعالى وجزاء الإنسان على أعماله سواء بدخول الجنة أم بدخول النار.

ويمكن تقسيم الموضوعات التي يتناولها القرآن عن الدار الآخرة إلى أربعة موضوعات رئيسة، وهي: تكذيب الكفار والمشركين لإمكانية وجود الحياة بعد الموت؛ الموت أو البعث أو الحساب؛ الحكم الأخير؛ الجزاء والعقاب في الجنة والنار كنتيجة لأعمال الإنسان في الدنيا.

يقص القرآن الكريم في مواطن عديدة وبطرق متنوعة كيف كفر الإنسان الشكاك وكذّب منذ فجر التاريخ فكرة وجود الحياة الآخرة بعد الموت ﴿**وقالوا أئذا كنّا عظاماً ورفاتاً أئنّا لمبعوثون خلقاً جديداً**﴾[٨].

ويجيب القرآن عن هذه التساؤلات المستخفة بعظمة الخالق بتمجيد الخالق نفسه المسؤول عن خلق الإنسان في المقام الأول؛

(٨) المصدر نفسه، «سورة الإسراء،» الآية ٤٩.

فمعها كانت المادة التي خلق منها الإنسان سواء كانت حجارة أم حديداً أم من اللحم والعظم، فإن الحقيقة التي ستبقى هي أن الله الذي خلق الإنسان ووهبه الحياة، قادر بلا شك على بعثه بعد الموت ﴿**فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرةٍ**﴾[٩].

وكذلك يشير القرآن الكريم إلى العديد من جوانب الظاهرة الحقيقية للموت نفسه والبعث الجسدي من خلال العديد من الآيات؛ فلحظة الموت هي اللحظة التي تنفصل فيها الروح عن كل العوالق التي اعتادت عليها خلال حياتها الدنيوية. وبالتالي، كلما قل تعلق المرء بالحياة الدنيا كلما سهّل ذلك لحظة انتقاله من هذه الحياة إلى الحياة التالية ـ حياة البرزخ ومن بعدها الدار الآخرة ـ وكذلك كلما ازداد تعلق الإنسان بماديات الحياة الدنيا كلما صعب هذا عليه لحظة الانتقال إلى الدار الآخرة. ومن هنا، تأتي إشارة القرآن الكريم وتأكيده على تمزق قلوب وأرواح الكفار بين أيدي ملائكة العذاب عند الموت، بينما تبشر ملائكة الرحمة المؤمنين الأتقياء بالروح والريحان والجنة والرضى عند قبض أرواحهم كالريح المرسلة من دون عناء.

يقدم القرآن صورة يوم القيامة من خلال سلسلة من الصور المحفزة والمشوقة؛ فميعاد يوم القيامة غيب لا يعلمه إلا الله، وفيه ستحدث سلسلة من الأحداث العجيبة التي ستبدأ بنفخ إسرافيل في «الصور» الذي سيتعرض الكون الذي نعرفه إثره إلى تحول كامل.

---

(٩) المصدر نفسه، «سورة الإسراء» الآية ٥١.

وخلال الحساب الذي سيتلو النفخ في الصور، سيجعل الله سبحانه وتعالى كل ما فعله الإنسان طيلة حياته من قول وعمل ومن خير وشر، ظاهراً أمام عينيه سواء كانت أموراً عظيمة أم صغيرة ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[١٠].

ونتيجة الحساب والميزان، سيكون دخول البشرية أجمع في حال من الخلود والأبدية التي تتناسب مع أعمالهم والطريقة التي عاشوا بها حياتهم الدنيوية ومدى استجابتهم لأوامر الله ورسالته في الحياة الدنيا.

وسنقوم في الفصل الثالث من الكتاب بمناقشة الآيات القرآنية التي تصف الجنة والنار في القسم الخاص بالإيمان باليوم الآخر.

في الحقيقة، إن تركيز ما يقرب من ربع القرآن الكريم على موضوع الدار الآخرة، يشير إلى مدى أهمية مفهوم الحياة الأبدية في الدار الآخرة في الإسلام؛ فالقرآن يؤكد أن لكل إنسان نفس أبدية محفوظة كالدرة المكنونة، وهذه النفس البشرية تمنح فرصة قصيرة جداً للحياة الدنيوية الفانية لتعلم أساسها الأصلي، مثلما يفعل الصياد بالسمكة عندما يخرجها من الماء لفترة قصيرة. ولكن من حيث المفهوم، لا تعتبر الحياة الآخرة أكثر أو أقل أهمية من الحياة الدنيا في الإسلام؛ فمن دون الحياة الدنيا، لن يكون لليوم الآخر قيمة. وعلى كل حال، تميل معظم الآيات القرآنية التي تتناول موضوع الدار الآخرة إلى وصف مدى أهمية الدار الآخرة التي تفوق أهمية الحياة الدنيا للإنسان على الأرض في الإسلام.

---

(١٠) المصدر نفسه، «سورة الزلزلة،» الآيتان ٧ ـ ٨.

٥ ـ الإنسان في القرآن

يتناول هذا الموضوع العلاقة بين الخالق والمخلوق، من خلال أعظم المخلوقات التي تبين مدى عظمة الله في خلقه وهو الإنسان نفسه. إن الوظيفة الحقيقية للإنسان على الأرض هي معرفة طبيعته الحقيقية وليكون خليفة في الأرض. وبما أن الإنسان هو أعظم مخلوقات الله، فإن له المقدرة على عكس «الصفات المثالية» التي تعتبر الأساس العام للحياة: وتتضمن هذه الصفات صفة القوة والحكمة والعلم والرحمة والصفح. لكن الخطأ في حياة الإنسان يكمن في طمعه وإصابته بالكبر والغرور، بحيث يفرط في تقدير ذاته وعظمته. وإذا اختار الإنسان هذه الطريق فإنه لا بد سينكر وجود الله ليؤكد مدى عظمة نفسه من دون إرجاع الفضل في هذا لأحد. ويمثل هذا الاختيار الصعب ـ بين عبادة الله وعبادة النفس ـ الامتحان الذي يجب على الإنسان خوضه في الحياة الدنيا القصيرة على الأرض. ومن هنا، فإن الإيمان أو الكفر يعتبر نتيجة اختيار الإنسان، وكذلك فإن الخلود في الجنة أو في النار، ما هو إلا نتيجة الاختيار الذي اتخذه الإنسان من البداية.

٦ ـ آيات الظواهر الكونية

تناقش العديد من الآيات القرآنية عدداً من العمليات الطبيعية والظواهر الكونية المتنوعة ـ بعضها بالتفصيل ـ ويقدم القرآن هذه الظواهر كدلائل لوجود الله ووحدانيته، حيث يشير إلى الظواهر

الطبيعية مثل تجمع النجوم في السماء ونصب الجبال والبحار في الأرض وسقوط الأمطار على الأرض الجدباء، وتنوع ألوان البشر وأنسابهم، وتعاقب الليل والنهار. كما يشير القرآن إلى كل هذه الظواهر الطبيعية كإشارات لوجود الله الرحمن الذي خلق الإنسان ولم يتركه على الأرض فحسب، بل سوّاه وعدّله وفضّله على خلقه، واهتم باستمرار في شؤونه من خلال توفير كل العوامل الضرورية لاستمرار حياته على الأرض ﴿**إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار والفُلك الّتي تجري في البحر بما ينفع النّاس وما أنزل اللّه من السّماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرّياح والسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾[11].

يعتبر بعض العلماء المسلمين آيات الظواهر الكونية دليلاً على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حيث تفسر العديد من هذه الآيات الكثير من الظواهر التي اكتشفها العلم الحديث مؤخراً؛ فعلى سبيل المثال، يؤكد العلماء تناول القرآن الكريم لظاهرة «الارتطام الكبير» قبل تحدث العلم الحديث عنها بألف وأربعمئة سنة. وعلى كل حال، فإن القرآن لا يتناول تلك الظواهر بغرض شد الانتباه إليها فحسب؛ ولكن الهدف من ذكر القرآن لهذه الظواهر هو تصوير الكون كمجموعة كبيرة من الدلائل التي تشير كل منها لوجود الله ووحدانيته. ومن الطبيعي أن تكون الوحدة المكونة للسور القرآنية «الآية» لم تسمَ بهذا الاسم من قبيل الصدفة ومن هنا، فإن الهدف

---

(١١) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ١٦٤.

ليس النظر إلى آيات الله في خلقه فحسب، بل أيضاً علينا قراءة «آيات» القرآن ـ كتاب الخلق ـ وفهمها وتدبرها. وهكذا، فإن الهدف الأساسي من «الآيات: الظواهر الكونية في القرآن»، هو لفت الانتباه إلى عظمة خلق الله وإظهار «أسماء الجمال» أملاً في أن يفهمها الإنسان بصورة صحيحة ويصل إلى نتيجة أن «لا إله إلا الله».

٧ ـ الآيات التشريعية في القرآن

لا يعتبر القرآن كتاباً قانونياً أو تشريعياً بالمعنى المتعارف عليه، حيث إنه لا يحتوي على نصوص طويلة في الشريعة الدينية كالتي يمكن أن نجدها في التوراة على سبيل المثال. وعلى عكس هذا، فإن القرآن يقدم إطاراً أخلاقياً عاماً يشجع المؤمنين على العمل داخله، ويعتبر هذا الإطار أيضاً أساساً لقوانين الحياة العامة والخاصة؛ فغياب التفاصيل التشريعية يوحي أن روح الشريعة جاءت من عند الله، ولكن محتواها ونصها من عمل الإنسان، وذلك وفقاً للزمان الذي يعيشه وللظروف التي تحيط به؛ ففكرة أن الإسلام يضم تشريعاً لأوجه الحياة كافة ـ وهو كلام من يدّعي أنه بما أن الإسلام يتطرق إلى كل جوانب الحياة، فهو ينظّم السلوك الإنساني حتى أدق تفاصيله ـ ليست مذكورة بالقرآن.

وبخلاف المبادئ الأخلاقية والسلوكية العديدة التي تظهر في آيات القرآن، فإن القرآن يحتوي أيضا على مجموعة من القوانين

والإرشادات العملية التطبيقية لمساعدة الإنسان على تنظيم حياته الخاصة وحياته الاجتماعية، وتنوع هذه الإرشادات العملية ما بين الأوقات والطريقة التي يجب على المرء القيام فيها بالعبادات كالصلاة والصيام، حتى الإرشادات في الأمور الأخرى مثل الزواج والطلاق والميراث وغيرها من الأمور الاجتماعية. وفي الحقيقة، إن الآيات التشريعية التي تبنى عليها القوانين الإسلامية قليلة العدد في القرآن الكريم، وسنتحدث عنها بالمزيد من التفصيل في الفصل الرابع من الكتاب.

عاشراً: تدوين القرآن الكريم وتواتره

هناك مدرستان فكريتان رئيستان من حيث طريقة حفظ القرآن وتدوينه وانتقاله من جيل إلى جيل: لدينا المدرسة «التقليدية» التي تبني حجتها على الدلائل التي يقدمها الحديث النبوي؛ وكذلك المدرسة «النقدية» التي لا ترى في الحديث النبوي مصدراً تاريخياً مهماً. وتتبنى كلا المدرستين مجموعة كبيرة من المناهج ووجهات النظر. وتضم المدرسة التقليدية مجموعتين **أحدهما** «التقدميين» وهم من لديهم الاستعداد للتساؤل عن صحة الأحاديث النبوية، **وثانيهما** مجموعة «المحافظين»، وهم من يلتزمون بما جاء من آراء معروفة حول القيمة التاريخية للأحاديث النبوية. وبالمثل بالنسبة إلى المدرسة النقدية؛ التي وإن كانت تضم مجموعة من المتشددين والمستشرقين الجدد الذين يرفضون تماماً الاعتماد على الحديث، إلا أنَّ هناك

مجموعة أخرى أقل تشدداً تتزايد أعدادها التي ما زالت تضع الحديث مثاراً للشك، ولكنها لا ترفض تماماً المنهج الإسلامي وتبحث عن أرضية مشتركة للتعامل مع الجانب الآخر. على كل حال، وعلى الرغم من الاختلاف بين المناهج المختلفة داخل كل من تلك المدارس والتداخل في ما بينها، فإن كيفية تناول المرء لموضوع تدوين وانتقال وتواتر القرآن الكريم، تعتمد بشكل كبير على قبول المرء أو رفضه المصادر التاريخية التي وردت إلينا من خلال الأحاديث النبوية.

١ ـ وجهة النظر الإسلامية التقليدية

على الرغم من تنوع المصادر التاريخية الإسلامية، فإنه يمكننا تتبع الأحاديث والروايات لاستخلاص وجهة النظر الإسلامية التقليدية في ما يخص كيفية تدوين القرآن كتابةً، وانتقاله من جيل إلى جيل. حيث تمت عملية تدوين آيات القرآن وجمعها في مصحف واحد على ثلاث مراحل: **أولها** أثناء حياة الرسول [ﷺ]، والمرحلة **الثانية** أثناء خلافة أبو بكر الصديق [رضي الله عنه] أما المرحلة **الثالثة في** عهد الخليفة عثمان بن عفان [رضي الله عنه].

٢ ـ القرآن أثناء حياة الرسول [ﷺ]

على الرغم من أن القرآن لم يجمع في مصحف كامل إلا بعد وفاة الرسول [ﷺ]، فإن، العديد من المصادر التاريخية والأحاديث النبوية تؤكد بلا شك أن معظم سور القرآن الكريم ـ إن لم تكن كلها

ـ قد دوّنت كتابة أثناء حياة الرسول [ﷺ]. حيث تروي الأحاديث أن الرسول [ﷺ] لم يشارك في كتابة كلام الله سبحانه وتعالى، لأنه كان أمياً، لكنه قام بتكليف مجموعة من كتبة الوحي لتدوين ما يمليه عليهم من الآيات. وبما أن الكتابة لم تكن مشهورة في المجتمع البدوي، فإن عدداً قليلاً من الصحابة كانوا يملكون تلك الملكة، ومن بين هؤلاء الصحابة مولى رسول الله زيد بن ثابت، ويقال إنه كان له الحظ الأوفر في كتابة آيات القرآن. وقد تنوعت الخامات المستخدمة في كتابة ما نزل على الرسول [ﷺ] من الآيات القرآنية، وتضمنت هذه الخامات جلود الحيوانات والعظام ولحاء النخيل، إضافة إلى الجلد الرقيق. وقد شارك العديد أيضاً في عملية حفظ القرآن وتدوينه، لكن معظم الصحابة شاركوا في حفظ القرآن عن طريق استظهاره كلمةً كلمة وآيةً آية وسورةً سورة.

تروي الأحاديث النبوية عن بعض الأشخاص الذين كانوا يسافرون إلى المدينة ليروا الرسول [ﷺ] ويتعلموا الإسلام، وكيف كان الرسول يعطيهم أجزاءً مكتوبة من القرآن الكريم ليقرأوها ويتدبروها. إضافة إلى ذلك، تروي لنا الأحاديث والسيرة كيف أسلم عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] بعد قراءته آيات السورة التي كان يرتّلها أفراد عائلته من قطعة من الرق.

كذلك، فإن الدلائل على وجود أجزاء مكتوبة من القرآن الكريم في عهد الرسول [ﷺ] تؤكدها خطبة «الوداع الشهيرة» التي ألقاها الرسول [ﷺ] على المسلمين قبل وفاته بمدة قصيرة؛ ففي هذه

الخطبة أعلن الرسول [ﷺ] أنه وصّى أمته في شيئين: كتاب الله والسنة النبوية. وبالعودة إلى «كتاب الله» يمكن إثبات أن القرآن كان متوفراً كوثيقة مكتوبة ومفردة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك مجموعة من العلماء المسلمين الذين يعتقدون أن الرسول [ﷺ] قد توفي بعد اكتمال الوحي، وقبل جمع القرآن المكتوب من الأجزاء المتفرقة المكتوبة على العظام والجلود واللحاء من قلوب وذاكرة المؤمنين.

٣ ـ ترتيب القرآن الكريم

زعم البعض أن الرسول [ﷺ] نفسه كان مسؤولاً عن تقسيم الوحي إلى آيات وسور، إضافة إلى الترتيب العام للقرآن كله، حيث يقول عثمان بن عفان [رضي الله عنه] إن الرسول [ﷺ] كان يملي على كتبة الوحي الآيات بمجرد نزولها أولاً بأول، ثم يضمها إلى السور القائمة، كل بحسب موضوعه. سواء أكان ترتيب السور جاء بأمر من محمد [ﷺ] وكذلك الترتيب الذي جاءت عليه السور، لأمر مفتوح للمناقشة وبخاصة حينما يرى أن أهمية ترتيب السور تكمن حين يمثل النص وحدة واحدة متماسكة وليس تجميعات مفككة من مواد متفرقة فحسب، وهو ما كان في عهد الرسول [ﷺ].

باختصار، يمكننا استناداً إلى الروايات والأحاديث النبوية، أن نقول إن القرآن عند وفاة الرسول [ﷺ] معظمه إن لم يكن كله، قد وُجد في شكل مكتوب، في صورة أجزاء متفرقة وليس كمصحفٍ

واحدٍ. ويؤكّد العرف أن القرآن، كل القرآن، قد وُجد في ذكريات الصحابة، الذي ثبت أهمية نقلهم الشفهي للكتاب عندما تم تجميع المواد المتفرقة في كتاب واحد.

٤ ـ تجميع المادة تحت رعاية أبو بكر [رضي الله عنه]

في الواقع، كانت معركة اليمامة التي وقعت في عام ٦٣٣م بعد وفاة الرسول [ﷺ] بعام واحد، العامل المحفز والدافع الرئيس الذي دفع أول القادة السياسيين المسلمين وأول خليفة بعد وفاة الرسول [ﷺ] إلى جمع أجزاء القرآن المكتوبة على الخامات المختلفة وتجميعها كلها في كتاب واحد. والسبب وراء ذلك كان استشهاد عدد كبير من المسلمين في تلك المعركة وبخاصة من حفظة القرآن الكريم. ولما أدرك الخليفة أبو بكر [رضي الله عنه] أن انتقال القرآن الكريم من جيل إلى جيل سيكون أمراً صعباً إذا توفي جميع من حفظوا القرآن من الصحابة؛ فقرر الخليفة أن أفضل ما يمكن عمله هو جمع القرآن في كتاب واحد تجمع فيه كل الآيات والسور المكتوبة التي دوّنها الرسول [ﷺ] على الجلود أو العظام سابقاً. وقد أوكلت تلك المهمة إلى زيد بن ثابت، أهم كتّاب الوحي.

في البداية، كان زيد بن ثابت متردداً لأن جمع القرآن في كتاب واحد لم يتم في عهد النبي [ﷺ]. وعلى ما يبدو أن زيد كان

متخوفاً من إمكانية الخطأ أثناء جمع القرآن، لذلك لم يقبل تلك المهمة الضخمة والمسؤولية الكبيرة إلا بعد إصرار الخليفة أبو بكر [رضي الله عنه] على ضرورة قيامه بها. وهكذا، قام زيد بتجميع كل الخامات والمقصوصات التي كتبت عليها آيات القرآن وضمهم في كتاب واحد.

وقد احتفظ أبو بكر [رضي الله عنه] بهذا الكتاب في بيته حتى توفي، ثم تسلّمه عمر بن الخطاب [رضي الله عنه]، ومن بعده تسلّمته ابنته حفصة بنت عمر.

وتروي لنا السيرة أنه على الرغم من جمع زيد للمصحف بأمر أبي بكر [رضي الله عنه]، فإن بعض الصحابة كانوا قد احتفظوا ببعض الجلود والأوراق التي كتبت عليها آيات متفرقة من القرآن. ومن هؤلاء الذين احتفظوا بنسخهم الخاصة كانت عائلة النبي [صلى الله عليه وسلم] المقربون مثل علي بن أبى طالب [رضي الله عنه] وعائشة [رضي الله عنها] وزيد بن ثابت كاتب الوحي، وبعض الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب. وعلى كل حال، طلبت حفصة بنت عمر من جميع من لديه نسخ لآيات القرآن من المسلمين أن يسلمها تلك النسخ للعديد من الأسباب والدوافع.

إن وجود نسخ متعددة من القرآن تعكس مدى الجدية والأهمية التي أخذ بها الصحابة مهمة تدوين القرآن، والأمانة والحماسة التي رافقت تلك المهمة. ما يجعلنا نحزن على تلك النسخ التي لم يتبقَ منها شيء.

٥ ـ المرحلة الأخيرة من تدوين القرآن الكريم: «المصحف العثماني»

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد الخليفة الثالث للنبي عثمان بن عفان [رضي الله عنه]، وكذلك ازداد عدد نسخ القرآن المتداولة كنتيجة لذلك الاتساع. ومن ناحية أخرى، تسبب الانتشار الواسع للقرآن في ظهور بعض الاختلافات في طريقة قراءة سكان المدن المختلفة للكتاب. وفي النهاية، قرر الخليفة عثمان [رضي الله عنه] جمع المصحف وإصدار نسخة واحدة باستخدام الأصل المحفوظ عند السيدة حفصة لمنع ظهور الاختلافات المتوقعة في النطق والفهم، ولمنع التناقضات في المعنى التي قد تنتج من ذلك الاختلاف.

أوكل الخليفة عثمان [رضي الله عنه] هذه المهمة إلى زيد بن ثابت وثلاثة من الصحابة. وبعد توحيد المصحف ونسخ العديد من النسخ من النص نفسه، أرسلت تلك النسخ إلى أقطاب العلم الرئيسة في العالم الإسلامي بهدف أن تحل النسخة الموحدة تدريجياً محل النسخ الأخرى التي كانت متداولة في السنوات السابقة. وأعاد الخليفة النسخة الخاصة بالسيدة حفصة إليها، وتم التخلص منها بعد ذلك مخافة أن تتسبب في حدوث النزاعات. وقد قبل جميع علماء المسلمين «المصحف العثماني»، وأكدوا صحته ودقته في نقل آيات القرآن التي أوصاها الله إلى عبده ونبيه محمد [صلى الله عليه وسلم].

ويطابق القرآن الذي بين أيدينا اليوم «المصحف العثماني» الذي صدر في عهد الخليفة عثمان بن عفان [رضي الله عنه] من النواحي

كلها. وخلال الألف وأربعمئة عام الماضية لم تغير كلمة ولم يبدل حرف من حروف القرآن، إذ حفظ الله القرآن من التحريف. لذلك فإن القرآن الذي بين أيدينا اليوم مطابق تماماً للوحي الذي نزل به الروح الأمين بأمر الله على قلب محمد [ﷺ].

٦ ـ هل كان كارليل محقاً في نقده؟

هناك العديد من النقاد مثل كارليل (Carlyle)، يتهمون القرآن بأنه يفتقر إلى البنية والانسجام والترابط الداخلي. وعلى كل حال، فإن هؤلاء النقاد ما هم إلا مجموعة من الأفراد الذين حاولوا قراءة ترجمة القرآن، ولهذا علينا التعامل بحذر شديد مع أي ادعاء أو اتهام للقرآن مبني على الترجمة الإنكليزية، أو في الحقيقة الترجمة إلى أي لغة غير اللغة العربية الأصلية.

إن الانتقادات الموجّهة إلى القرآن بأنه يفتقر إلى الترابط الداخلي تُقدم عادة من أولئك الذين يحاولون قراءته من الغلاف إلى الغلاف وكأنه قصة أو رواية لها بداية ووسط ونهاية. وفي الواقع، إن تطبيق معايير نوع ما من الأعمال على نوع آخر والحكم عليه من خلالها يعتبر أمراً مضللاً ولا يؤدي إلى حكم سليم، ولذلك يجب التعامل مع هذا النوع من النقد بالحذر الشديد.

يعتمد مدى إحساس المرء بقدرته على تناول القرآن بشكل كبير على موقف هذا الشخص بشأن الادعاءات الخاصة بمصدره؛ فغير المسلمين والمؤمنين بديانات أخرى، سيتناولونه من خلال

الأحكام المسبقة والمعتقدات الخاصة بالمؤمن غير المسلم. أما الملحدين، فسيتناولونه بالأحكام المسبقة والمعتقدات نفسها الخاصة بهذا النوع من البشر. وهكذا فإن ما ستجده في القرآن يعكس دائماً ما أنت مستعد للعثور عليه، أو كما قال أحد الحكماء المسلمين:

إذا ما أردت البحث عما يدعم معتقدك في القضاء والقدر، فمع البحث ستجد ذلك في القرآن، أما إذا كنت ممن يبحثون عن دعم موقفك من حرية الإرادة، فإنك أيضاً ستجد في القرآن ما يدعمك؛ فهكذا هو الأمر دائماً، فالمرء يجد دائماً ما يرغب في العثور عليه إذا ما بحث بالجد والقدر الكافي. أليس من الطبيعي أن يرى المصاب بالصفراء كل ما حوله مخضباً بهذا اللون.

وهكذا هو الأمر بالنسبة إلى المؤمن المسلم، فهو أيضاً عندما يقرأ القرآن، إنما يتناوله من خلال معتقداته وأفكاره المسبقة.

من هنا، فإن مسألة البنية والانسجام والقابلية للفهم، تعتبر أمراً نسبياً يختلف باختلاف السياق، ولهذا فإن الحكم على الترابط الداخلي للقرآن يعتمد على المعايير التي نطبقها عليه، كما يعتمد على فهمنا معنى الترابط.

إن الطريقة الوحيدة لمعرفة ما إذا كان النص العربي الأصلي للقرآن يستحق الانتقادات التي رفعها كارليل ضده، هو تعلم اللغة العربية واتقانها بدرجة تمكنه وتؤهله للحكم على الجودة البلاغية للقرآن. حيث لا يمكن الوثوق إلا في حكم الأشخاص المؤهلين

بدرجة كافية لمعرفة ما إذا كان النص العربي يحتوي على الإبداع والبلاغة والبنية والترابط والانسجام، للحكم على القرآن من حيث البلاغة والترابط، وليس بالطبع من يقرأون ترجمات القرآن بلغات مختلفة ويضمرون أهدافاً ونوايا خبيثة في معظمها.

إضافة إلى ذلك، فإن مفهوم «البلاغة الأدبية» يعتبر مفهوماً نسبياً من صنع الإنسان لا علاقة له بالرسالة التي يحملها نص ما، وبخاصة إذا كانت تلك الرسالة وحي من الله هدفها هداية الإنسان.

٧ ـ القرآن حجر الأساس للعلوم الإسلامية

لا يمكننا إنكار فضل القرآن الكريم كمحفز ودافع لتطور العلوم الإسلامية مثل الفقه والتوحيد والتجويد وغيرها.

أدى الاهتمام العلمي بكل جوانب القرآن الكريم، إلى ظهور وتطور مجموعة من الأنظمة التي عرفت باسم «العلوم القرآنية»، لمجاراة التوسع في العالم الإسلامي. ولهذا، فقد انشغلت مجموعة من التابعين والصحابة العلماء في المجتمع الإسلامي الأول ـ كل بحسب قدراته العلمية وخبراته الشخصية ـ بفرع من فروع علوم القرآن؛ فعلى سبيل المثال، يقال إن ابن عم الرسول [ﷺ] علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]، كان أول من علّم «تجويد القرآن»، وهو الطريقة السليمة لنطق القرآن وتلاوته. وقد قام علي [رضي الله عنه] بذلك عن طريق تحديد قواعد اللغة العربية والنحو وتنقيح اللغة للأجيال القادمة.

في الحقيقة، يُرجع المسلمون كل فروع العلوم الإسلامية إلى القرآن. ومما لا شك فيه أن القرآن كان سبباً أساسياً في نجاح المسلمين في العلوم والفنون في أوائل العصور الوسطى. إن تأكيد القرآن المستمر على أهمية العلم والمعرفة، وعدم التعارض في السُنّة النبوية بين مواصلة التعلم والدين، دفع المسلمين إلى التميز والنجاح المبهر في كل فروع المعرفة والتعلم. وتعدد الأمثلة عن التطور الثقافي والعلمي والتكنولوجي الذي أحدثه المسلمون المتخصصون في القرون الوسطى مقارنة مع الغرب المسيحي الذي كان يعد متخلفاً عنه إلى حد ما في تلك المرحلة، يؤكد أنه لولا علماء المسلمين وحكمائهم ودارسيهم ممن مهدوا الطريق لما لدينا من علوم في قرون سابقة، ما كانت حركات التنوير والنهضة لتظهر أبداً. وعلى كلٍ، فإن القرآن كان عاملاً مساعداً؛ وكان دوره تأكيد أهمية الحصول على المعرفة، إلا أن اكتشاف الأساليب والطرق والتطبيق الفعلي لهذه المعرفة التي نجحت الأساليب الموضوعة على كشفها، كان قوامه المساعي المستمرة من المسلمين وهو ما لا نستطيع الاعتماد على القرآن في شرحه.

لكن، المشكلة لا تكمن ببساطة في الخوف من إنكار دور العوامل غير القرآنية في النهضة الإسلامية فحسب، بل إن المشكلة الحقيقية تكمن في إمكانية تجريد المعرفة من صبغتها الدينية عن غير قصد إذا ما قسمناها إلى إسلامية وغير إسلامية. وهو ما وقع فيه العديد من الكتاب المسلمين، وبخاصة من المهتمين بالجدل المعاصر حول أسلمة العلم.

ـ هل هناك ما يسمى بـ «المعرفة الإسلامية»؟

يستمر المسلمون وغير المسلمين على حد سواء في الحديث عن الشريعة الإسلامية وأصل علم الدين الإسلامي كما لو كانت هذه المصطلحات تعني شيئاً، إلا أنها ليست كذلك؛ فكلمة «إسلامي» صفة توحي عند ذكرها أن ما سيوصف بها ما هو إلا أمر من السماء ثابت نهائي غير متغير. وعند وصف القانون أنه إسلامي (الشريعة) على سبيل المثال، فإن هذا يعني أن ما به يمثل الإسلام وأن الله قد أقرّه. إلا أن القوانين في الحقيقة ما هي إلا فرع من فروع المعرفة، أي سعي إنساني، وبالتالي هو مثله عرضة للخطأ.

وينطبق الأمر ذاته على كل ما يقال إنها علوم إسلامية؛ فمصطلح «علم الدين الإسلامي» يوحي أنه توجّه معين للكلام عن الله ألا وهو التوجه الإسلامي، إلا أنه عبارة عن مجموعة من الأساليب والحجج والبراهين والتعاليم المستخدمة من قبل المسلمين فحسب، سواء بنجاح أم من دونه لتوضيح بعض الأفكار والحجج عن الله. وعلى هذا، فإننا لا نتحدث هنا عن أصل علم الدين الإسلامي، بل نتحدث عن أصل علم دين المسلمين، أو بالأصح مجموع أصول علوم دين المسلمين. إن مصطلح علوم الدين الإسلامي ليس مصطلحاً مضللاً فحسب، بل هو مضر بالفعل لأنه يعزز فكرة المفهوم الخاطئ بين المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، بوجود أصل علم دين بالإسلام لا يتغير، وبالتالي ينبغي عدم مناقشته أو التشكيك بشأن ما ينتجه من نتائج وأساليب.

أرجو أن يكون هذا الاستطراد الموجز قد أوضح التصور الخاطئ حول المصطلحات المتداولة كمصطلح العلوم الإسلامية. وعلى هذا، يمكننا الآن إعادة صياغة العنوان الفرعي لهذا القسم ليكون حديثنا عن «عالم تعلم المسلم»، بدلاً من مصطلح «العلوم الإسلامية،» وهو ما يضم بالفعل حجر أساس عالم معرفة المسلم ألا وهو القرآن.

حادي عشر: التفسير والترجمة

سنختتم هذا الفصل من الكتاب بتناول موضوعين مهمين ومرتبطين ببعضهما البعض، وهما موضوعي التفسير والترجمة، حيث منن خلالهما عُرف القرآن: وهما يمثلان تعليقاً علمياً على القرآن، أعطى الفرصة لأجيال من المسلمين لفهم معاني الكتاب المقدس؛ كما أتاحت الترجمة القرآنية إلى مئات من اللغات، الفرصة لقراءة القرآن من غير العرب لفهمه بصورة ما والتمتع بمذاق يشبه القرآن الأصلي.

إن اختلاف أنماط التفسير القرآني، يعكس تعدد الطرق التي يمكن من خلالها تناول القرآن وفهم معانيه. حيث يتحدث القرآن نفسه عن أن بعض آياته تعتبر مباشرة، بينما بعض الآيات الأخرى مجازية وغير مباشرة ورمزية. ومن وظائف المفسر للقرآن الكريم محاولة تفسير كل الآيات المباشرة والمجازية، من خلال السياق الذي نزلت به الآيات، ومن خلال عقلية العصر الحديث والإدراك الحالي

للمعاني أيضاً. إن القرآن كتاب متعدد المعاني، ولهذا فمن وظيفة المفسر أيضاً بيان تلك الطبقات المختلفة والمعاني المتعددة المتخفية في النص. ومن هنا، فإن تفسير القرآن يعتبر من بين العلوم الإسلامية، العلم المهم والشاق في الوقت نفسه.

تعتبر ترجمة القرآن الكريم من الموضوعات الشائكة أيضاً، حيث يعتقد معظم المسلمين أن القرآن نص غير قابل للترجمة ينبغي عدم ترجمته، ولا يمكن ترجمته.

في الواقع لا يمكن إنكار الحقيقة التي تقول إن القرآن إذا ترجم لن يكون قرآناً، مثلما إن ترجمة إحدى الروايات ستظل دائماً ترجمة وليست أصلاً. ولكن في حال القرآن، هناك أيضاً الجانب المقدس للموضوع، فكيف يمكننا ترجمة كتاب تعتبر كل كلمة فيه معجزة؟ وعلى كل حال، هناك العديد من الترجمات لمعاني القرآن بكل اللغات، بعضها أفضل من الآخر، ولكنها كلها لا تستطيع مواكبة بلاغة الأصل. ولهذا يجب على قارئ تلك الترجمات توخي الحذر.

■ **لمزيد من القراءة والاطلاع**

هناك العديد من الأعمال المختارة التي تهدف إلى مساعدة القارئ على فهم القرآن من خلال تحديد موضوعات القرآن، وشرح السياسات التاريخية والثقافية وإلقاء الضوء عليها. ويعتبر أحد هذه الكتب وأكثرها شهرة كتاب **القرآن: ترجمة مختصرة** *(The Qura'n: A Short Introduction)* للكاتب فريد إيساك (Farid Esack) (٢٠٠٢).

أما بالنسبة إلى من يبحث عن مرجع أكاديمي أكثر تخصُّصاً، فإن كتاب نيل روبنسون **استكشاف القرآن** *(Discovering the Qura'n)*، يعتبر كتاباً جميلاً، حيث يتعرض لكل الأسس التي يتناولها كتاب إيساك، إضافة إلى تناول الموضوعات الشائعة المحيطة بالقرآن.

وعلى كل حال، فإن كتاب روبنسون كان نتيجة سنوات من البحث والاجتهاد، وذلك بخلاف كتاب إيساك الذي لا يمكن قراءته في بضع جلسات.



الفصل الثالث

الإيمان

يتضمن القرآن المئات من الآيات المتعلقة بقضية الايمان، لا سيما بمقارنتها مع قضية الكفر التي لا تحتل عدد الآيات نفسه. من المؤكد أن الايمان ما هو إلا نتيجة الاختيار الحر الذي يجب أن يُتخذ في ضوء المعرفة الكاملة والإدراك الواعي: حيث يجب أن يصل المرء إلى حال الايمان عن طريق البحث وليس مجرد التقليد الأعمى. وعلى الرغم من أن جميع البشر يلدون على الفطرة التي تتضمن القابلية للايمان، ويحاطون بآلاف الإشارات والدلائل المتنوعة التي تؤيد أهمية وضرورة الايمان، فإن البعض يختار الإنكار عوضاً من ذلك، وبالتالي يصلون بمحض إراداتهم إلى الخزي والعار الذي لا مفر منهما كنتيجة لحياتهم في الكفر.

ويؤكد المنظور القرآني أن الايمان يمكن أن يزيد أو ينقص، لكنه لا يمكن أبداً أن يثبت على حال. وبالتالي، إذا أراد المرء أن يحافظ على

إيمانه فيجب عليه أن يعمل باستمرار على زيادة المعرفة التي تعتبر أساس الإيمان، وعليه أيضاً أن يجدد المهام الفرعية التي تقوم على الإيمان باستمرار إذا أراد أن يصل إلى الإيمان الكامل. وعلى الرغم من هذا، فإن القرآن يؤكد أن معظم الناس ليس مؤمناً، بل إن معظمهم يفتقد إلى الإيمان الحقيقي. وعلى كل حال، فإن المكافأة على الإيمان الصادق ستكون مكافأة مثالية في الحياة الأبدية في جنة الفردوس الأعلى التي عندها عرش الرحمن.

من هنا، فإن الإيمان يعتبر محفزاً دائم الحضور خلال آيات القرآن، وهو يمثل مركز الوحي الإسلامي. لكن ما هو الإيمان ؟ وما هي متطلباته ؟ وبماذا يؤمن المؤمنون؟

أولاً: الإيمان ومتطلباته

الإيمان من المنظور القرآني هو ببساطة الاقتناع العقلي والاعتقاد الكامل بالقلب «**أن لا إله الله وأن محمد رسول الله**»، وأن جميع البشر سيجمعون يوم القيامة ويختبرون ويحاسبون ثم يكافأون أو يعاقبون بحسب أعمالهم في الدنيا.

ويعتبر المبدأ الأساسي للإيمان من المنظور القرآني للكلمة هو وصول الإنسان إلى درجة من الإدراك والتأمل يستطيع فيها أن يرى الكون كمجموعة من الآيات الدالة على وجود الله الواحد، وليس كمجموعة من الظواهر الطبيعية؛ فالعالم الطبيعي كله يدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى. وعلى هذا، فإن التفكير والعقل ضروريان

للوصول إلى الايمان، إذ يجب إعمال العقل وتدبر الآيات للحصول على الايمان.

يتضمن الايمان مفهوم الإسلام ـ الاستسلام الداخلي لكل من العقل والقلب للحقيقة التي يؤمن بها الإنسان. وإذا كان الايمان صادقاً، فيجب أن يتضمن أيضاً الاستسلام الخارجي في شكل التعبير الخارجي عن الايمان من خلال الصلاة أو الصيام مثلاً. حيث إن تلك التعبيرات الخارجية عن الايمان ـ التي تمثل الاستسلام الخارجي ـ هي التي تعبر عما يتضمنه مفهوم الإسلام كمصطلح. وعلى كل حال، وكما يشير القرآن لا يصل جميع المؤمنين إلى هذه الدرجة من التعبير الخارجي، وليس من يستسلم خارجياً هم من المؤمنين الحقيقيين.

على الرغم من أن الايمان والعمل يجب أن يتلازما، فإن العديد من المسلمين يقومون بأحد الأمرين دون الآخر، وسنناقش هذا الموضوع بتوسع أكثر في الفصل الخامس من الكتاب.

من هنا، فإن الايمان يعتبر أمراً مهماً لفهم وجهة النظر القرآنية، ولكن ما هو الشيء الذي يجب على المسلمين الايمان به؟

ثانياً: أركان الإيمان

يحدثنا القرآن أن هناك خمسة أركان يجب على المؤمن أن يزرع ويطور ويحافظ على الايمان بها، وهي: الايمان بالله وملائكته والرسل والكتب السماوية والدار الآخرة، ويزيد البعض أيضاً الايمان بالقدر خيره وشره.

وعادة ما يتم تصنيف الأمور الستة للإيمان التي ذكرناها إلى ثلاث فئات رئيسة تعرف باسم «أصول الإيمان»، وهي الإيمان بوحدانية الله (التوحيد)، والإيمان بالرسول [ﷺ] (النبوة)، والإيمان باليوم الآخر (الميعاد).

١ ــ التوحيد

أ ــ الله في القرآن

﴿اللّه لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السّموات وما في الأرض من ذا الّذي يشفع عنده إلاّ بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء وسع كرسيّه السّموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم﴾[١].

كما أوضحنا من قبل، فإن الرسالة الأساسية في القرآن ليست بأن الله موجود ــ بل إن الله واحد لا شريك له، ولهذا فإن الأصل الأول من أصول الإيمان هو (الوحدانية لله) وليس وجود الله. وعلى كل حال، فإن القرآن أثناء محاولة إثبات وحدانية الله، يقدم صورة واضحة لله الخالق وأسمائه وصفاته، بحيث يمكن للمؤمن تدعيم معرفته النظرية لوحدانية الله وبإدراك لحظي لصفات الله وأسمائه الحسنى التي يتجلى من خلالها لعباده. حيث إن كشف الحقائق والمعلومات المتعلقة بذات الله سبحانه وتعالى هي الطريقة الوحيدة

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٢٥٥.

التي تدفع الإنسان إلى محبة الله وعبادته وطاعته، وبالتالي القيام بمتطلبات دوره كخليقة على الأرض.

ذُكرت كلمة (الله) حوالى ثلاثة آلاف مرة في القرآن الكريم، بخلاف العديد من الآيات التي تصف الذات الإلهية من خلال الأسماء الحسنى. ولا مجال هنا لإحصاء تلك الآيات، فعلى عكس المعروف لدى علماء المسلمين أن أسماء الله الحسنى وصفاته العليا تتعدى الـ ٩٩ إسماً. وعلى كل حال، فإن الحقيقة المؤكدة هي أن تلك الصفات الكثيرة هي صفات أبدية ومطلقة لله مثل: الحياة والجمال والقوة والحكمة.

وهكذا، فإن الله سبحانه وتعالى، كما يؤكد القرآن الكريم، هو العليم القادر الموجود؛ وُجِدَ الله دائماً وسوف يكون موجوداً دائماً، ويعتمد الكون والمخلوقات كلها عليه وحده في وجودها؛ فالله هو الأول والآخر والأصل لكل شيء. فالله دائماً الحاضر والمتعال في الوقت نفسه ولا تدركه الأبصار، ولكنه أينما نولي فثم وجه الله والله مطلق عن الحدود الزمنية والمكانية لكنه خالق كل شيء موجود في كل زمان وكل مكان. والله هو الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهو مسبب الأسباب الذي يعلو عن كل الأشياء والمواد. وهو عليم خبير لطيف بكل شيء، وإليه يرجع الأمر كله.

لا يسعى القرآن في الواقع إلى إثبات وجود الله لأنه يعتبر إيمان البشر جميعاً بخالقهم أمراً فطرياً بغض النظر عن كيفية تعبيرهم عن ذلك الايمان ووصفهم للخالق. إن الحقيقة التي يسعى القرآن إلى إثباتها هي ليست فقط أن الله موجود، ولكن أن الله واحد لا شريك له.

وعلى من يريد معرفة المزيد عن طريقة تناول القرآن الكريم لوصف الله، الرجوع إلى القرآن نفسه. وسنتحدث الآن عن قلب موضوع وحدانية الله من حيث الشكل والموضوع.

ب ـ وحدانية الله: الله الأحد

يعتبر (التوحيد) المركز الرئيس للمنظور القرآني وحجر الأساس الذي يبنى عليه الصرح الإسلامي. وكما يؤكد العديد من الكتّاب الغربيين، فإن في قلب الإسلام وحدانية شاملة يتميز بها عن غيره من الديانات السابقة.

وهذا بالطبع لا يعني دعوة كل من الديانة اليهودية والديانة المسيحية لوحدانية الخالق ـ حتى من الناحية النظرية فحسب ـ مثل الإسلام.

ولكن على أرض الواقع، فإن التركيز على وحدانية الله في الدين الإسلامي يفوق بكثير نظيره في الديانات الأخرى.

إذا أردنا أن نقر معنى التوحيد بأبسط معانيه، فسنقول إن التوحيد هو الإقرار أن «لا إله إلا الله»، وأن جميع الخلق مرجعهم إليه وحده، بغض النظر عن جدال العلماء الذين اختلفوا حول طبيعة الوحدانية الإلهية على مدى عدة قرون بعد وفاة محمد [ﷺ]. وسنحاول هنا الوصول إلى التوازن عن طريق تقديم شرح مبسط لمفهوم (التوحيد) بعيداً عن التبسيط المبالغ فيه، مع تجنب أيضاً التعقيدات والحوارات المحيرة لعلماء المسلمين في العصور الوسطى.

في الحقيقة هناك فرق بسيط بين (الوحدانية) و(الأحدية) يسيء الكثير فهمه سواء من المسلمين أم من غير المسلمين.

يمكننا فهم كلمة (الأحدية) بمجرد النظر إلى واحدة من آيات الله في خلقه، مثل العين البشرية على سبيل المثال، أو الجنين في رحم أمه؛ فعلى سبيل المثال، يدل الجمال والانسجام والترابط الداخلي بين كل العناصر والأجزاء المكونة للعين البشرية على استحالة تكوينها من قبيل الصدفة العمياء أو حتى بفعل مجموعة من الخالقين، حيث إن الوحدة في الخلق والهدف الظاهرة في خلق العين تشير إلى مصدر واحد: الواحد القادر المالك بالمعنى اللانهائي بكل صفات الكمال المتجلية في تلك العين المخلوقة.

ومن الناحية الأخرى، يمكننا فهم كلمة (الوحدانية) عند النظر إلى الكون كوحدة كاملة مترابطة العناصر والأجزاء؛ فعندما ينظر المرء إلى العين البشرية الواحدة ويستخلص منها أن خالقها هو الله الواحد، فإن الخطوة التالية المنطقية هي إرجاع الفضل في خلق كل العيون البشرية إلى الخالق نفسه. ويمكن للمرء أن يستنبط من ذلك ويطبق المنطق نفسه على كل شيء موجود في الكون؛ فإذا نظرنا إلى الوحدة وترابط الأمور، سنجد أن من خلق الحبة لا بد وأن يكون هو الخالق نفسه الذي خلق المطر ليسقيها والشمس ليعطيها الدفء والزهر ليخرج منها والرياح لتنشر الحبوب الجديدة من الزهرة.

من هنا فإن الخالق الواحد الذي خلق أصغر العناصر لا بد أن يكون هو الخالق نفسه الذي خلق الكون كله بناءً على العلاقات

والروابط المتبادلة التي تربط بين كل المخلوقات في الكون، وقد يساعد إدراك مفهوم الله الواحد الأحد على فهم مبدأ التنوع داخل الوحدة، والوحدة داخل التنوع الذي يعتبر أساس الكون. وأيضاً، إن الاعتقاد بوحدة كل المخلوقات ينفي الادعاء القائل إن الله خلق الكون ثم تركه.

ج ـ الخلق المستمر

يرتبط مفهوم الخلق المستمر بالموضوعين المتداخلين (الأحدية) و(الوحدانية)، ويصور المنظور القرآني الله على أنه الخالق الذي لا يغيب أبداً عن خلقه والذي يرعى كل ذرة من الوجود باستمرار.

إن الإله الذي يصوره القرآن، ليس «إله الفراغ»، بل إنه يبيّن نفسه باستمرار من خلال خلقه؛ فكل ما هو موجود يعتمد في كل لحظة على إرادة الله، ولن يكون له وجود إذا كف الله عن قدرته الخلقية لأي سبب من الأسباب.

ونتيجة ذلك، فإن القرآن يعتبر السببية ـ مبدأ السبب والتأثير الذي نعتبره من الأمور المسلّم بها ـ بأنها وهم ضروري: فهي غطاء يخفي المصدر الحقيقي لجميع الخلق، وهو الله. إن المنطق وراء هذه المسألة يعتبر معقداً إلى حد ما، لكن يمكننا القول ببساطة إنه يدور حول مسألة المعرفة والقوة. وقد كان الفيلسوف الفرنسي مالبرانش (Malebranche) الذي اعتقد أيضاً أن السببية مجرد وهم وقدم حججاً شهيرة استخدمها لشرح موقفه؛ فأكد أنه «لا يوجد إنسان قادر على رفع يده بنفسه»، فكيف يمكن للإنسان خلق حركة من الحركات إذا

كان لا يعلم كيف تعمل أو ما هو المطلوب للقيام بها؟ واستخلص مالبرانش أن الشيء الوحيد الذي يخص الإنسان في الحركة هو (النية) في رفع يده، فمجرد أن ينوي الإنسان رفع يده، يخلق الله الحركة من أجله. وتعتبر هذه الحركة الصغيرة جزءاً من الكون الكامل الذي تعمل فيه كل العناصر في انسجام وتناغم. وفي النهاية، (يفعل الله ما يريد). وقد استكمل العلماء والمفكرون المسلمون الحديث عن هذا الموضوع، فقالوا إن الله لم يخلق كل شيء فحسب، لكنه يخلق باستمرار أيضاً.

فالأشياء المخلوقة ليس لها القدرة على خلق أي شيء من نفسها لأنها تفتقر العلم والقدرة الخاصة بالله سبحانه وتعالى. وفي الواقع، إن تلك المخلوقات لا يمكن إلا أن تكون أصناماً بلا حراك إلا إذا دعمها الذي خلقها أول مرة. ولهذا، فإن المبدأ الإسلامي لاستمرارية الخلق يؤكد أن الله يخلق كل شيء ومستمر في خلق كل شيء في كل وقت، عن طريق خلق أو إيجاد المخلوقات ومن ثم إفنائها وإعادة خلقها من جديد في طرفة عين لا أكثر من خلال الوهم المسمى بـ «الأسباب».

د ـ الخطيئة الكبرى: الشرك بالله

﴿**أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون**﴾(٢).

يعتبر الإسلام ويؤيده في ذلك القرآن الكريم، أن أكبر الكبائر وأكثرها استحقاقاً للعقاب ـ هي الشرك بالله ـ ويتضمن الشرك أيضاً

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة الأعراف،» الآية ١٩١.

بنسب صفة القوة ـ أو أياً من الصفات العليا لله ـ إلى أحد من الخلق أو القوى الطبيعية بخلاف الله سبحانه وتعالى.

في سياق المجتمعات ما قبل الإسلام، كانت كبيرة الشرك أو عبادة شركاء مع الله تظهر بوضوح في عبادة الأصنام، وهي تماثيل وصور ومنحوتات تمثل مجموعة من المعبودات والأرواح والآلهة وغيرها من المعبودات التي كان المشركون يعبدونها بجانب عبادتهم الله أو مكانه. كانت مثل هذه الأصنام تُعبَد في العديد من المجتمعات الأخرى غير المجتمع العربي.

يحاول علماء الدين في العصر الحديث جاهدين الإشارة إلى أن عبادة الأصنام مستمرة حتى يومنا هذا، ولكن لا تقتصر على الممارسات البدائية التي كان يقوم بها المشركون في الماضي، ولكن يعبد الناس الأصنام الآن ليس بالانحناء والسجود للآلهة المصنوعة من الخشب أو الحجارة، لكنهم يعبدون بصورة مجازية أصنام المال والقوى والمجد والملذات والشهرة.

وقد لا يمكننا من اللحظة الأولى مطابقة أصنام العصر الحديث مع أصنام العصر الماضي، لكن الغرض من الاثنين واحد، والحظر الذي يمثله كل منها على النفس البشرية أيضاً واحد.

يوضح القرآن الكريم أن المؤمنين ليسوا بمنأى عن الشرك. ومرة أخرى: فإن تعريف الشرك بأنه مقتصر على عبادة الأصنام أو تعدد الآلهة ليس تعريفاً دقيقاً؛ فالشرك يعتبر نوعاً من عبادة الأصنام

بالفعل، ولكنه لا يعني عبادة الأصنام بدلاً من عبادة الله فحسب، وقد يعني أيضاً عبادة الأصنام إلى جانب عبادة الله. ومن الناحية الأخرى، فإن مصطلح الكفر يعني باللغة العربية (تغطية)، أي تغطية الحقيقة أو إنكار وجود الله تماماً؛ فالإنسان الذي يرفض عبادة الله سيعبد شيئاً آخر مكانه، لأن فطرة الإنسان مجبولة على ضرورة العبادة، فمن الممكن أن يعبد نفسه أو الطبيعة أو المال أو أي شيء. وعلى كل حال، على الرغم من أن المشركين يقومون بعبادة الأصنام بدلاً من عبادة الله من منظور معين، إلا أن حقيقة وجود الله، بغض النظر عن تأكيد المشرك لوجوده، تعني أن هذا الكافر يعبد هذه الأصنام بجانب الله، بالرغم من عدم فطنته لذلك. وعلى هذا، فإن كفره مقرون بالشرك غير المتعمد الذي تتضمنه عملية الإنكار نفسها.

أوضح القرآن الكريم أن خطر الوقوع في الشرك لا يقتصر على الكفار، ولكن قد يصل إلى المؤمنين أنفسهم، وتكرر هذا التوضيح في القرآن حتى لا يعتقد المؤمنون أنهم بمنأى عن خطر الشرك بالله. بل إن القرآن تجاوز ذلك ليقول إن معظم البشر ليسوا بمؤمنين، وإن حتى من آمن بالله فمعظمهم يتخذ معه مثالاً آخر يدعو إلى الشرك. ومن الصعب على المؤمنين الورعين تقبّل ما جاء في هذه الآية، لما تتضمنه من معان خطيرة. لهذا فضل الكثير أن يربط ما بين هذه الآية و بين المؤمنين في عهد الرسول [ﷺ].

هـ ـ قضية القضاء والقدر

بالنسبة إلى القرآن الكريم فإنه لا يمكن لإنسان أن يولد أو يموت، ولا لورقة شجر أن تسقط، ولا لنيوترن أن تدور في فلك نواة الذرة، خارج مكانها في النظام الكوني الذي صُنع ونُظم وفقًا لـ «قياس مسبق». و«القياس المسبق» هو عبارة عن مخطط يوجد منذ الأزل في عالم المعرفة الإلهية، والتي تبنى على قيمة وأنظمة الطبيعة والزمن والتأثير الخاص بأي كائن موجود في الزمان والمكان. وبمعنى آخر إن (الخطة) التي يعتمد عليها بناء أي كائن موجودة في عالم الغيب كجزء من معرفة الله الأزلية، بحيث يتم بناء ذلك الكائن طبقاً لتحديدات دقيقة في تلك الخطة الشاملة. وينطبق هذا الكلام على كل العالم المادي والكوني الذي نراه أمامنا والذي نعتبر نحن جزءاً منه. ومن هنا، فلا يوجد شيء موجود من قبيل الصدفة أو نتيجة حادث غير مقصود، أو اعتباطاً: فكل شيء محسوب ومخطط له ومحدد ومقدّر من الله.

إن الانتقاد الأساسي المرفوع ضد قضية الإيمان بالقضاء والقدر ـ والذي برأي الكثيرين هو الركن السادس من أركان الإيمان ـ هو أنه يصوّر العالم مثل الآلة حيث كل شيء محدد مسبقاً، والأكثر أهمية أنه لا مجال فيه للاختيار والحرية البشرية؛ ففي عالم تُحدد فيه الأشياء مسبقاً، كيف يمكن للإنسان أن يملك خياراً بأي معنى للكلمة؟ فإذا كان الله يعلم كل أفعال الإنسان مسبقاً، فكيف يمكننا أن نكون أحراراً ؟ وعلى سبيل المثال، إذا كان الله يعلم قبل أن يوجد إنسان ما

بأن مصير ذلك الإنسان إلى الله، فلماذا خلقه من الأساس؟ والأهم من ذلك فلماذا سيعاقب الله العباد إذا لم يكن لهم حرية الاختيار. والحقيقة، هل سيكون للجزاء والعقاب معنى إذا كانت النهاية معروفة منذ البداية؟

يرد أنصار حرية الاختيار على هذه الادعاءات قائلين إنه على الرغم من أن الله يعلم بعلمه الشامل أن أعمالنا ستكون حرة، فإن علمه بها ينبغي ألا يدفعنا إلى ارتكاب الخطأ؛ فالمعرفة بالشيء تختلف عن الإكبار عليه: فالله يعلم أن شخص ما سيذهب إلى النار، ولكنه يعلم أن هذا نتيجة عمله واختياره الحر. وبمعنى آخر، يعلم الله أن ذلك الشخص سيذهب إلى النار لأنه يعلم بكل القرارات الخاطئة والاختيارات السيئة التي سيتخذها والتي ستؤدي به إلى النار.

يواجه النقاد هذا بالقول إنه لو كان الله يعلم إننا سنتخذ تلك القرارات والاختيارات السيئة، فلماذا لم يمنع خلقنا من الأساس ببصيرته الواسعة؟ وإبطال هذا الادعاء هو أن فكرة أن الله يعلم كل شيء «مسبقاً» تهدف إلى جلب الله إلى «داخل الوقت». فالله مطلق عن الوقت: لا فرق بين الماضي والحاضر والمستقبل عنده، ولذلك إن قولنا إنه يعلم مسبقاً يدخلنا في وضع ذات الله في نطاق زمني محدد هو منزّه عنه. ومن هنا، فإن الله لم يحدد مسبقاً قدر الإنسان بالطريقة التي نتخيلها.

إضافة إلى ذلك، فإن الامتناع عن الخلق بسبب احتمالية اتخاذ شخص بعض الخيارات الخاطئة، لا يثير التساؤل بشأن المفهوم

الأشمل لحرية الإرادة فحسب، بل أيضاً بشأن الغرض والهدف من العقاب الإلهي؛ فالمدافعون يرون في العقاب الإلهي ليس تعبيراً عن العدل فحسب، بل أيضاً عن الرحمة؛ قد يكون هذا العقاب الوسيلة الوحيدة التي تمكّن العاصي من خلالها التعرف إلى خالقه والوصول إلى الخلاص، بعدما ينهي كل منهم عاقبة ما عليه من ذنوب.

اختلف العلماء من المسلمون حول هذا الموضوع في مرحلة مبكرة، حيث أيدت مدرسة الجبرية فكرة الإجبار الكامل، بينما أيدت المدرسة الأخرى فكرة حرية الاختيار. ومن ناحية أخرى، تعتقد بعض طوائف الشيعة مثل العشرية والماتوردية، أن حقيقة الأمر تقع في مكان متوسط بين الجبر والاختيار. وظهرت بعض الأقوال المشهورة في تلك المجموعات مثل (إن الأمر ليس إجباراً ولا اختياراً ولكنه بين ذلك)، وتعتبر الحجج التي قدمها العلماء لدعم هذه الفكرة معقدة بعض الشيء ولكن يمكن تلخيصها كما يلي:

إذا اتبعنا الحجج الإسلامية في حدود المنطق، سنرى أننا مسيّرون في ما يتعلق بالماضي. لأن وصولنا إلى ما نحن عليه اليوم تطلب القيام بعدد معين من الخطوات وهو أمر يقبل ببساطة؛ فعلى سبيل المثال، إن وجود أي شخص يتطلب في المقام الأول وجود الوالدين، وبالتالي فإن وجود هذين الوالدين قد يطلب أربعة أشخاص آخرين ـ هم الجدين من الأب والجدين من ناحية الأم.. إلخ. ومن هنا علينا أن نعترف بأن وجود أي إنسان يتطلب وجود الإنسانية كلها.

وهكذا، فإن من السهل الإيحاء بالقدر أو بتسيير بعض الأحداث إذا أصبحت تلك الأحداث من الماضي. كما يقول أحد علماء المسلمين «ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطاك لم يكن ليصيبك».

وعلى كل حال، فإن علينا التفكير في المستقبل كطريق مفتوح وقابل للاختيار الحر، حيث وهبنا الله الحرية لاختيار الطريق. وعلى الرغم من أن البعض يقول إن اختياراتنا غالباً ما تتأثر بالعادات وطريقة التربية والنشأة والتعوّد، بل حتى بالجينات الوراثية، فإن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي: إننا يمكننا قبول أو رفض أي شيء. وفي أي حال، إذا غلبتنا الظروف **القهرية** ـ وأصبح من الصعب تنفيذ اختيارنا لأسباب تفوق قدرتنا، فإن الله أكثر رحمة من تجاهل واقع أننا نتصرف تحت إكراه خارج عن إرادتنا.

على كل حال، يبذل العلماء المسلمون جهداً كبيراً لإثبات أن الإنسان مخيّراً وليس مسيّراً في كل الحالات. وفي الواقع، إن مفهوم الإجبار لا يمكن تطبيقه إلا على شخص حر من البداية، لأن الحر وحده يمكن إرغامه على فعل أي شيء: فإجبار المجبر لا معنى له، ما يجعلنا مضطرين لإيجاد مصطلح آخر غير (الإجبار) لتفسير ما نشعر به من القدرية إذا نظرنا إلى موقفنا من منظور معين.

و ـ الإيمان بالملائكة

إن الإيمان بما يعرف بـ «الملائكة» من المخلوقات، لأمر شائع في معظم الديانات في العالم، ولكن الإسلام هو من جعل الإيمان

بوجود الملائكة من شعب الايمان، بل إن البعض ادّعى أنه يلي الإيمان بالله من حيث الأهمية. على الرغم من الدور الأساسي الذي تؤديه الملائكة في عالم القرآن؛ فإن علماء المسلمين في العصور الوسطى قليلاً ما تناولوا عالم الملائكة، في حين اتخذ علماء العصر الحديث إما طريق تجنب أي حديث عنهم، أو طريق شرح هذا العالم من خلال مبررات كما لو كانت النظرة القرآنية إلى الملائكة محل شك بالنسبة إلى دين يتسم بالعصرية والطابع السياسي وحب العلم والرغبة فيه كالإسلام.

ليس من العسير استيعاب ما قد يدفع البعض للاعتقاد أنه من الصعب تعاطي موضوع الملائكة على المستوى الفكري؛ فالغرب يرى الملائكة ككائنات مادية لها صفات بشرية وهو المفهوم المشترك ما بين اليهودية والمسيحية. وهو ما يتناقض تماماً مع المفهوم الإسلامي للملائكة ومع الدور الذي تؤديه الملائكة ومكانتها في الكون كما يصورها القرآن الكريم.

ز ـ مفهوم الملائكة في القرآن الكريم

طبقاً لمفهوم الخلق المستمر الذي أشرنا إليه سابقاً، فإن المخلوقات ليس بمقدورها الخلق: فهذه القدرة لله الخالق فقط. وبالمثل، فإن المعرفة ـ ومعها الوعي ـ لا يمكن نسبهما إلى أي مخلوق من المخلوقات الجامدة بأي معنى من معاني الكلمة. وهكذا إن المخلوق الذي يفتقد القوة والمعرفة لا يمكن أن يكون له إرادة وهدف. ولكن

إذا ما أسقطنا الجزيئات الجامدة من حساباتنا، لأنها تفتقد القدرة على الإدراك ولأن وظائفها لا هدف لها، فكيف يمكننا تفسير هذه الأعداد المهولة من الأشكال والهيئات التي تظهرها؟ وعلى هذا فإن الملائكة لتبدو الحل الأمثل لضبط هذه المعادلة، ومن خلال وجودهم يمكننا التوصل إلى مفهوم ما لهذين القسمين.

الملائكة هم حملة الأوامر الإلهية. حيث يقول القرآن إن الله إذا أراد شيئاً يقول له (كن فيكون) ومن هنا، يمكننا وصف الملائكة أنها مثل المرايا التي تشع من خلالها صفات الكمال الخاصة بالله وتعكس نوره. إن الإنسان غير قادر على التعامل المباشر مع الله، وهو يعرف الله من خلال انعكاس أسمائه وصفاته في خلقه مثل الملائكة. ومن هنا، فإن الملائكة تعمل كوسيط بين الله والبشر.

لدى الملائكة القدرة على الإدراك ولكن من دون حرية الإرادة: فهم لا يعصون الله بما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون به، لكن طاعتهم ليست عمياء؛ فهذا الإدراك الذي تحدثنا عنه للمخلوق الجامد هو بالفعل إدراك هذه الملائكة وهم حملة أوامر الخلق التي تظهر الإطار الخارجي لهذا الكائن.

إن الملاك في تعامله المباشر مع الله، معد بما لديه من قدرة على أن يعكس أحد أسماء الله أو أكثر، ويتلقى أوامر الله ويعمل على حملها من العالم غير المرئي إلى العالم الظاهر أو إلى العالم حيث تأخذ أسماء الله إطاراً مادياً في شكل الكائنات المخلوقة.

من خلال الملائكة يمكننا تفسير سبب ورود المادة بهذا الشكل الذي يظهر منتهى الجهل والاتكالية على الرغم مما لها من هدف وغرض للتواجد. إلا أن دراسة الملائكة في الإطار القرآني، لها فائدة أخرى أكبر من مجرد إظهار سبب عدم قدرة ما هو مادي على الخلق؛ فإن انعكاس أسماء الله على الملائكة ليظهر هذا العالم المادي الذي ننتمي إليه، فهم كالمنشور الذي يلتقط نور الله الأبيض ليعكسه على مختلف الألوان من العالم المادي، وذلك حتى تتمكن البشرية من التعرف إلى مصدر هذا الضوء الفعلي وفهمه. وهكذا، فإن الله خلق الملائكة ليس لحاجته إليهم ولكن لحاجة البشر إليهم.

٢ ـ النبوءة

يعتقد المسلمون أن العقل لا يستطيع أن يخدم الإنسان في كل الأحوال، فهناك من الأمور التي لا يتقبلها العقل البشري؛ فالإيمان بالله يتضمن الإيمان بعالم الغيب.

وعلى الرغم من استطاعة الإنسان إعمال عقله وقوى التفكير لتدبر كيفية عمل الكون من حوله والوصول إلى نتيجة واحدة وهي أن خالق هذا الكون هو إله واحد، فإن العقل وحده لا يستطيع استيعاب الغرض من الخلق وطبيعة الخالق والطريق التي يجب عليه اتباعها وكيفية اتباعها، حيث يحتاج الإنسان إلى الكثير من التفسيرات من الله نفسه حتى يستطيع فهم كل تلك الأمور.

من هنا، إن الوظيفة الأولى للأنبياء والرسل هي توفير طريقة لتوصيل رسالة الله من خلال الحديث البشري وبلغة من اللغات التي يستطيع الإنسان فهمها بسهولة. حيث لن يستطيع الإنسان تخيل الإله الذي يعبده إذا لم يتحدث إليه ذلك الإله بلغة يفهمها. ولهذا فإن مفهوم الخالق وكذلك مفهوم النبوءة والرسالة كطريقة يتواصل بها الخالق مع خلقه يعتبران مفهومين متلازمين.

وعلى كل حال، فإن التواصل بين الخالق والخلق لا يتم بصورة مباشرة: حيث إن الرسل والأنبياء أنفسهم لا يتعاملون مع الله الخالق بصورة مباشرة ولا يتسلمون الرسالة المطلوب منهم نشرها بصورة مباشرة من الله. إن كلام الله مطلق في الزمان والمكان، ولهذا فإنه غير قابل للتعامل المباشر مع المخلوق الفاني المادي المرتبط بالأرض مثل الإنسان. يقول القرآن الكريم: ﴿**وما كان لبشر أن يكلّمه اللّه إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنّه عليّ حكيم**﴾(٣).

ويعرّف الرسل الناس بإرادة الله، ويقومون بدور المجيب عن الأسئلة الأساسية التي ترتبط بفكرة أصل الوجود والهدف من خلق الإنسان والمشكلة التي تواجهه الإنسان حياته على الأرض.

أ ـ صفات الأنبياء

إن وظيفة الأنبياء والرسل لا تقتصر على مجرد نقل رسالة الله إلى الخلق، ولكنها تتعدى ذلك إلى وظيفة التفسير والإرشاد، حيث

(٣) المصدر نفسه، «سورة الشورى،» الآية ٥١.

يقومون بإرشاد مجتمعاتهم بكيفية ممارستهم الحياة من دون تناقض مع أوامر الله.

لا يجيب القرآن عن السؤال القديم عما إذا كانت النبوءة أمراً فطرياً أم مكتسباً؟ وفي الحقيقة، إن النبوءة أمر فطري يعطيه الله لمن يختاره من عباده، وهي أمر لا يمكن اكتسابه بأي شكل من الأشكال، أو كنتيجة للمجهود المبذول أو النجاح في مسابقةٍ ما. ومن غير المعقول أيضاً أن نرجع السبب في النبوءة إلى الطبيعة أو النشأة. ومع ذلك، فإن كون الرسول [ﷺ] رسولاً منذ ولادته، أمر قد يجده البعض محيراً وغير منطقي،لأن حتمية النبوءة ستقلل من شأن فكرة الصلاح والامتياز الأخلاقي والكفاءة الشخصية: ولكن الحقيقة هي أن الشخص الذي قدّر الله له واختاره ليكون رسولاً يحمل رسالته للخلق، سيكون مؤهلاً بتلك الصفات والميزات من البداية، لحاجة النبوءة إليها وليس لأنه قام بتطوير تلك الصفات خلال فترة نموّه.

وعلى كل حال، هناك دائماً حل وسط لكل شيء. وهو أن نقول إن الله قد اختار أن يهب النبوءة إلى شخص ما بعينه من أفراد المجتمع لعلمه بأن ذلك الشخص هو أقدر أفراد ذلك المجتمع على توصيل رسالة الله إلى البشرية. ولكي يؤهل الله ذلك الشخص المختار للرسالة، سيكون على ذلك الشخص التعرض إلى مجموعة من الحقائق والمعلومات الروحية التي ستقلل ارتباطه بالعالم المادي وتدفعه إلى المعرفة الروحية السامية ـ معرفة الله ومعرفة الحقائق الروحية الإلهية التي يستقبلها الرسول مباشرةً من الخالق، ولا يكتسبها من خلال

جهود ذاتية أو عقلية. ومن خلال عملية الوحي، يصبح التواصل بين الخالق والرسول تواصلاً مستمراً ومباشراً ما يساعده على إيصال كلمه الله إلى غيره من البشر بدقة شديدة ـ مع الاحتفاظ بالجانب البشري من تكوينه ـ والأهم من ذلك الاحتفاظ بالجانب الروحي المرتبط بذلك الوحي.

إنَّ المعية التي يتلقاها الرسل من الله ترفعهم إلى مكانه معينة، بحيث يصبح كلامهم متصفاً بالصدق والأمانة. وخلال التطور الروحي للرسول، قد يتعرض إلى العديد من المعجزات الدامغة، وهي مجموعة من الأفعال التي تتعدى القدرة العادية للإنسان والتي تقدم دلائل تثبت نبوته. ويعتقد المسلمون أن أعظم معجزات الرسول [ﷺ] هو القرآن نفسه: حيث إن القرآن كتاب بليغ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مطلق عن الحدود والزمان، وغير قابل للتحريف، أوحى الله آياته إلى رسول أمي بسيط من صحراء العرب.

ب ـ عصمة الرسل من المعاصي

يعتقد العديد من المسلمين أن الله وهب الرسل بهبة العصمة عن الخطأ. ولكن يختلف المسلمون في فهمهم لمفهوم العصمة: حيث يعتقد البعض أن عصمة الرسل عن الخطأ تعني عصمتهم من الوقوع في الكبائر، بينما يفهم البعض الآخر مفهوم العصمة على أنه عصمة الرسل من كل الأخطاء والآثام الصغير منها والكبير.

وفي الحقيقة، إن السبب الذي يدفع الكثيرين إلى الاعتقاد بأن الرسل معصومون من كل الآثام والأخطاء صغيرها وكبيرها لا يصعب استيعابه. حيث إن المهام الموكلة إلى الرسل والأنبياء مهام كبيرة ومن الطبيعي ألا يكلف الله بهذه المسؤوليات الكبرى إنساناً يخطئ كغيره من البشر. وفي الحقيقة، إن المشكلة التي تكمن في مفهوم العصمة الكاملة للرسل هي إنها تبعد شخص الرسول عن الجانب البشري، وتقترب به إلى الصورة الملائكية. حيث إن كل ابن آدم خطّاء؛ ومن هنا، فإن الإنسان الذي لا يخطئ لا يمكن أن نطلق عليه اسم إنسان بالمعنى المتعارف عليه للكلمة، والإنسان الذي لا يمكن أن نطلق عليه إنسان لا يمكن أن يكون رسولاً. حيث إن الميزة الأساسية للنبوءة تكمن في التميز الأخلاقي للرسول، وإذا نفينا إمكانية الوقوع في الخطأ فسننفي بالتالي عنصر التميز الأخلاقي عن الرسول. إن أحد العناصر التي تميز الرسول عن غيره من البشر هي السموّ الأخلاقي، وهو أمر يستوجب بذل الكثير من الجهد للحفاظ عليه، وبالتالي، فلا قيمة له إذا لم تكن احتمالية الوقوع في الخطأ موجودة باستمرار.

إن جميع الرسل المذكورين في القرآن الكريم، يتميزون بالسموّ الأخلاقي والشخصية المميزة، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن القرآن يقر أن لكل منهم هفوة في الحياة ولو كانت بسيطة لا يمكن احتسابها كذنب؛ فقد قام موسى [عليه السلام] بقتل أحد الرجال في لحظة من الغضب دفعه إليها الشيطان(٤)، بينما عاقب الله نبيّه يونس

---

(٤) إن ما قام به موسى [عليه السلام] لا يعتبر جريمة قتل، بل قتل عن غير عمد، وبالتالي هو ليس من الكبائر.

بالحبس في بطن الحوت نتيجة عدم صبره على ما كتبه الله عليه. وعلى الرغم من أن القرآن لم يذكر أن أحداً من هؤلاء الرسل قد ارتكب كبيرة من الكبائر، فإنه يصور الجانب الإنساني من هؤلاء الرسل. وفي الحقيقة، إن ذلك الجانب الإنساني من الرسول هو من يدفع البشر للإيمان به؛ فالإنسان أكثر قابلية لتصديق من يشبهه.

من هنا، سيظل مفهوم العصمة مثيراً للجدل؛ فبدلاً من اعتبار الرسل معصومين تماماً من الوقوع في الخطأ، فإن من الأفضل اعتبارهم رجالاً يمكنهم الوقوع في الخطأ لكنهم اختاروا البعد عنه والسموّ بأنفسهم وأخلاقهم فوق الخطأ، فهم بذلك معصومون من الوقوع في الخطأ من داخلهم بقوة إيمانهم والمستوى الروحي الذي وصلوا إليه. حيث إن نفي إمكانية الخطأ عن إنسان ما ستنفي عنه صفة النبوءة، بل ستنفي عنه صفة الإنسانية من الأصل.

ج ـ الإيمان بالكتب السماوية

يعتبر الإيمان بالكتب السماوية السابقة من أصول الإيمان التي لا يعلمها بعض الناس ولا يفهمها البعض الآخر. وتعني كلمة «الكتب السماوية» هنا: الرسالات التي أوحاها الله إلى رسله ودونت كتابةً. وكما رأينا في الفصل السابق من الكتاب «رسول الإسلام»، فإن الله لم يبعث كل رسله برسائل مكتوبة لدعم نبوءتهم ورسالتهم التي أتوا بها إلى البشرية: بل إن الأنبياء ليسوا جميعاً رسلاً.

أحصى علماء الإسلام عدد الأنبياء بحوالى ١٢٤ ألف نبي. ولم يذكر القرآن الكريم من هذا العدد إلا قرابة الثلاثين نبياً: ومن هؤلاء الثلاثين لا يتعدى عدد الرسل أصابع اليد الواحدة؛ فالرسول هو من أرسله الله بكتاب من عنده. وقد ذكر القرآن الكريم خمسة من الرسل الذين أرسل الله معهم الكتاب إلى الخلق: ومن هؤلاء الرسل إبراهيم وموسى وداود وعيسى ومحمد [ﷺ]؛ جاء إبراهيم بالصحف التي قد تعني أي نوع من الرسائل الإلهية المدونة كتابةً؛ وجاء نبي الله داود بالزابور؛ بينما أنزل الله الإنجيل على عيسى [عليه السلام]؛ ومحمد [ﷺ]، هو القناة التي وصلت البشرية بالوحي الأخير، ألا وهو القرآن الكريم.

يعتبر القرآن جوهرة التاج من بين رسالات الله إلى الخلق، مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليهم جميعاً. ويعتقد المسلمون أن القرآن متميز عن غيره من الرسائل والكتب السماوية، لأنه من بينهم كلهم لم يتعرض للتحريف أو الإضافة. وعلى كل حال، فإن المقارنة البسيطة بين الكتب السماوية ستكشف الاتساق بينها كلها، لأنها في أصلها رسالة واحدة من رب واحد.

٣ ـ الإيمان بالبعث والحساب واليوم الآخر

يعتبر الإيمان بالبعث بعد الموت واليوم الآخر الذي سيحاسب فيه الإنسان على أفعاله من حسنات وسيئات حياته الدنيا، والذي سيدخل إثره إما الجنة أو النار، أمراً مشتركاً بين كل الديانات

السماوية الموحدة. وقد تختلف تفاصيل اليوم الآخر من ديانة إلى أخرى، ولكنها على كل حال تتفق على أساس واحد، وهو: أن الموت ليس نهاية الحياة وأن الإنسان سيبعث بعد موته ليحاسب على ما فعل في حياته الدنيا ثم يكافأ أو يعاقب على تلك الأفعال وعلى الطريقة التي اختارها للحياة على الأرض.

أ ـ الإسلام: دين الدار الآخرة أم الدنيا

قبل أن نتحدث عما يتضمن الإيمان بالدار الآخرة بالنسبة إلى المسلمين، يجب علينا أن نحاول أولاً التعامل مع هذا الموضوع في إطار المفهوم العام للإسلام بدلاً من الإطار العقائدي الشرعي الذي قد يبدو أكثر اهتماماً بالدنيا عن الآخرة.

ساعد انتشار القوانين والتشريعات في العالم الإسلامي، والارتباط الكبير بين السياسة الدينية والإسلام «دين الدولة» في النظرية الإسلامية الحديثة، إضافة إلى ظهور الحركات الإسلامية في الخمسين عاماً السابقة، على إظهار الإسلام بذلك المظهر الدنيوي. وأدت تلك الزيادة في صبغ الإسلام بتلك الصبغة السياسية في الربع الماضي من القرن إلى إظهار الجانب التشريعي والسياسي للإسلام كمنظومة بدلاً من إظهار الإسلام الحق: الاستسلام الكامل لإرادة الله سبحانه وتعالى؛ ففي أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، يعتبر الإسلام ـ ونعني هنا الإسلام السياسي ـ ضرباً جديداً من ضروب القوة والسيطرة والهيمنة كغيره من أساليب الهيمنة السياسية الموجودة في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

هناك أسباب عديدة لتحول الإسلام إلى أيديولوجية شبه سياسية، وسيتم مناقشتها بتفصيل أكبر في الفصل السادس من هذا الكتاب. فالوحي الإسلامي يجب فصله عن الدين الذي جاء كردة فعل له. وما يبدو «إسلامي» هو على خلاف مع ما يبدو «قرآني».

ب ـ الإنسان الخالد

يؤكد القرآن الكريم أن حياة الإنسان على الأرض ما هي إلا مرحلة من مراحل وجوده الخالد؛ فحياة الإنسان على الأرض تمثل مرحلة موقتة، ولكنها ضرورية بسبب أهميتها في فهم الإنسان لحقيقة وجوده والهدف من خلقه.

إن حياة الإنسان الدنيوية ضرورية لأنها تساعده على فهم مبدأ الخلود، الذي خلق من أجله منذ البداية. إضافة إلى ذلك، إن الحياة الدنيا للإنسان تعمل كوسيلة للتدريب يستعد فيها الإنسان إلى الانتقال النهائي من خلال الموت إلى مستقره في الدار الآخرة. ويأتي هذا الإعداد والتدريب من خلال الامتحان والاختبار في الحياة الدنيا، حيث يختبر الله العباد حتى يمحص معرفته بوظيفته كخليفة في الأرض، ومن ثم يزيد من معرفته ومحبته لله وعبادته لخالقه. ومن ثم، فإن العالم يبدو مثل حقل رمزي يشجع الله الخلق على زراعته من خلال تنمية المعرفة والإيمان والاستسلام لإرادة الله والعمل الصالح، حتى يستطيع حصد السعادة الأبدية في الدار الآخرة.

من هذه الناحية، فإن الحياة الدنيا لا تقل أهمية عن الدار الآخرة في الإسلام؛ حيث إن مصير الإنسان في الدار الآخرة يعتمد على الطريقة التي عاش بها في الحياة الدنيا، وعلى مدى صلاح علاقته بخالقه فيها. وبالتالي، فإن الادعاء أن الإسلام هو دين دنيوي، ينفي الحقيقة التي لا يمكن إغفالها وهي أن هذه الحياة والحياة الآخرة ما هم إلا مراحل متعددة من حياة واحدة، على الرغم من اختلاف المصطلحات المستخدمة لوصف الطبيعة الخاصة والظروف الخارجية لكل من تلك المراحل.

ج ـ حجج القرآن لدعم الإيمان بالدار الآخرة

يتعامل القرآن الكريم مع العقل البشري من خلال المحاولات المتعددة لشرح حقيقة ومنطق الدار الآخرة والبعث والحساب الذي يتلوها. يؤكد القرآن ضرورة تدبر المسلمين لآيات الله في خلقه قبل القبول بالحقائق التي تقدمها. ولا يوجد في الإسلام ما يجيز أو يتساهل مع فكرة القبول الأعمى لتلك المبادئ الأصلية؛ فعلى الرغم من أن الفاصل في الأمر هو الإيمان، فإن إعمال العقل والمنطق هو السبيل للوصول إلى الإيمان الكامل.

كيف إذن يشرح القرآن عملية البعث والأحداث التي تتلوه في اليوم الآخر؟

يستخدم القرآن حجة «الخلق الأول» للإنسان ـ وحقيقة أن جميع الخلق قد خلقوا بيد الله سبحانه وتعالى ـ ليظهر أن ما حدث

مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى، وبخاصة إذا كان السبب فيه هو قوة الخلق الخاصة بالله الذي لا «يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء»: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثمّ اللّه ينشئ النّشأة الآخرة إنّ اللّه على كلّ شيء قدير. يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾**[٥].

ويتطرق القرآن الكريم أيضاً إلى الحقيقة التي تؤكد أن عملية البعث لها أمثلة في الحياة الدنيا: فالعديد من عمليات البعث المصغرة تحدث باستمرار في الطبيعة من حولنا بدءاً من الموت الجزئي للأشجار في الشتاء ثم رجوعها إلى الحياة في الربيع التالي، وحتى موت الخلايا الجديدة في جسم الإنسان وولادتها. ويضرب القرآن مثال الأرض الجدباء في الصحراء التي تنبت وتخضرّ عند نزول المطر عليها:

﴿وهو الّذي يرسل الرّياح بشراً بين يدي رحمته حتّى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثّمرات كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون﴾[٦].

د ـ تصوير القرآن لليوم الآخر

إن عطف الإيمان بالله على الإيمان باليوم الآخر في العديد من المواطن في آيات القرآن الكريم، يبين مدى أهمية الإيمان باليوم الآخر في الدين الإسلامي. وبغض النظر عن كون الإيمان باليوم الآخر أصلاً

(٥) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآيتان ٢٠ ـ ٢١.
(٦) المصدر نفسه، «سورة الأعراف،» الآية ٥٧.

من أصول الدين، فهو أيضاً أحد أركان الإيمان الستة الأساسية. وهو من الأهمية بحيث خصص ما يقرب من ربع القرآن الكريم للتحدث عنه. وقد حان الوقت لتناول النظرة القرآنية والإسلامية لليوم الآخر، بحيث يمكننا رسم صورة للأحداث التي تنتظرنا في ذلك اليوم.

هـ ـ حتمية الموت

يتعامل القرآن الكريم مع الموت كحقيقة واقعة لا مفر منها لجميع البشر ﴿**كل نفسٍ ذائقة الموت**﴾[٧].

لا يعتبر المسلم الموت موضوعاً محرماً كما هو الحال بين أفراد المجتمعات العلمانية الغربية، حيث يتقبل المؤمنون الموت كمرحلة طبيعية لا بد منها في رحلة الإنسان في الحياة. ومن هنا، فإن الموت يمثل نقطة انتقالية بين مرحلتين مختلفتين من حيث الخواص والهيئة في حياة الإنسان، وهما في هذه الحال الحياة الحالية «الملموسة»، والحياة «الغيبية» في الدار الآخرة.

ويؤكد لنا العلماء والشيوخ المسلمون، أننا ينبغي ألا نخاف من الموت، لأن أجسادنا في حال تجدد مستمر: فهي «تموت» و«تولد» في كل لحظة ومن حال إلى أخرى. وهناك العديد من أمثلة الموت والإحياء في الكون من حولنا. ويتحدث الشاعر العربي جلال الدين الرومي عن النظرية الإسلامية المثالية عن الموت بطريقة غاية في البلاغة من خلال إحدى قصائده الصوفية.

---

(٧) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ١٨٥.

أموت وأنا حجر ثم أغدو نبتاً

أموت وأنا نبت ثم أرفع إلى مرتبة الحيوان

أموت وأنا حيوان ثم أبعث إنساناً...

إضافة إلى ذلك، يحث الإسلام المؤمنين باستمرار على ذكر هادم اللذات لتدعيم الوعي الدائم أن على الإنسان التوكل على الله في الحياة. وعلى كل حال، فإن تدبر الموعظة من الموت يجب أن يقترن بالتمتع بالحياة؛ فالقرآن يأمر الإنسان المسلم بأن يحيا بين جناحي الخوف والرجاء: الخوف من سوء عمله والرجاء في رحمة الله كوسيلة للنجاة. وقد نصحنا علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] في هذا الصدد من بين العديد من النصائح قائلاً: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

و ـ عالم البرزخ

لا يقدم القرآن شرحاً تفصيلياً للموت، لكنه يؤكد أن في لحظة انتهاء حياة الإنسان فإن العوالق المادية تنفصل عن جسده؛ فبعد الموت، يتحلل الجسد الذي يعتبر كالصدفة التي تحمي اللؤلؤة بداخلها خلال فترة الحياة، واللؤلؤة في هذه الحال هي الروح. يتحلل الجسد الفاني ويرجع إلى مكوّناته من المعادن والمكونات التي كانت عناصر خلقه في البداية. يؤكد القرآن أن الروح البشرية منذ لحظة وفاة الإنسان حتى نهاية العالم وبعث العباد تحيا في عالم

«البرزخ»، وهي مرحلة متوسطة بين الحياة الدنيا والدار الآخرة. وتروي لنا الأحاديث النبوية أن كل نفس تكون واعية ومدركة أثناء انتظار قيام الساعة الكبرى في عالم البرزخ، وتتذوق مما ستنال في ما بعد يوم الحساب.

ز ـ نهاية العالم

في لحظة ما في المستقبل لا يعلمها إلا الله ستنتهي الحياة في الكون بالشكل الذي نعرفه. وستبدأ هذه العملية بحدوث سلسلة من الظواهر الكونية المروّعة ـ العلامات الكبرى ليوم القيامة ـ وهو حدث يصفه القرآن بأنه حين تقوم «الساعة» أو «الصاخة» أو «القارعة». حيث سيتضمن يوم القيامة، كما يسميه الكثيرون، تبدلاً في الكون، كما يؤكد لنا القرآن الكريم ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات**﴾. وستكون الأحداث الرهيبة المتتالية بمثابة علامة فاصلة بين عالمين: العالم الدنيوي الذي نعرفه والعالم الآخر أو عالم دار الآخرة.

يرسم القرآن صورة حية للعالم الذي سيبدأ بسرعة في الانهيار والتفكك من خلال سلسلة من الأحداث الكونية المدمرة للأرض بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فستخرج الكواكب عن مسارها وتتخبط بعضها ببعضها الآخر، وتتفكك إلى العدم وتنتشر في الفضاء الواسع على هيئة طاقة ونور. أما على كوكب الأرض، فستنسف الجبال وتصبح كـ «العهن المنفوش». وستسجر البحار والمحيطات وتدمر

الأرض. وسيصعق كل من على الأرض من علامات الساعة، حتى إن الأحياء سيحسدون الأموات على موتهم.

وستبدأ الساعة كما تصفها آيات القرآن بالنفخ في الصور، معلناً انتهاء العالم المادي الذي نعرفه وقيام الساعة ﴿**ونفخ في الصّور فصعق من في السّموات ومن في الأرض إلاّ من شاء اللّه ثمّ نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾[8].

ومن المعروف أن بعد النفخ في الصور، تموت المخلوقات كافة، إلا أن الآية السابقة إذا ما أخذناها حرفياً، فإن هناك إمكانية وجود أحياء بعدها وفقاً لمشيئة الله ومن بعد هذه النفخة الأولى، تأتي النفخة الثانية وهي تلك التي ستعلن بداية البعث لجميع الخلائق، وسيقوم إثرها جميع الخلق من الموت مرة أخرى ليبعثوا إلى أرض المحشر، خائفين وقلوبهم واهية وأبصارهم خاشعة يتساءلون:

﴿**قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون**﴾[9].

ح ـ الحساب

بعد ذلك، ستجمع كل الخلائق في أرض المحشر حيث سيحاسب كل إنسان على أعماله من حسنات وسيئات في الدنيا

---

(٨) المصدر نفسه، «سورة الزمر،» الآية ٦٨.

(٩) المصدر نفسه، «سورة يس،» الآية ٥٢.

ويجازى عليها. وفي ذلك اليوم ـ الذي سيكون مقداره ٥٠,٠٠٠ سنة مما نعدّ من السنين، لكنه سيمر في طرفة عين أو كركعتين خفيفتين بالنسبة إلى المؤمنين الصالحين ـ في ذلك اليوم ستتجلى أسمى صور العدل الإلهي؛ فعلى الرغم من أن حياة الإنسان في الدنيا كانت صراعاً دائماً بين الخير والشر، فإن الله سيفصل بين الحق والباطل فصلاً كاملاً يوم القيامة. وفي يوم القيامة، سيرى الإنسان الطبيعة والأهمية الحقيقية لكل ما فعله أو قاله أو فكر فيه في الحياة الدنيا. في هذا العالم، لن يستطيع الإنسان إنكار خالقه حيث يشهد كل ما هناك على حقيقة الخالق وعظمته.

بعد الانتهاء من وزن أعمال جميع الخلق في ميزان الحق، سينقسم الخلق إلى ثلاثة أنواع: المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. أما أصحاب الشمال، فهم من أدى بهم إنكارهم وكفرهم بالله إلى النار وسوء العاقبة؛ أما أصحاب اليمين، فهم من أدت بهم طاعتهم لله إلى النجاة ومأواهم الجنة وحسن المآب. أما المقربون، منهم من تتجاوز مكانتهم الروحية أي مناصب كالجنة والنار، فقدرهم الاتحاد مع الله نفسه، في مكان بعيد عن كل الوصف والإدراك.

ط ـ تصوير الجنة والنار في القرآن الكريم

تعتبر الصور المجازية للجنة والنار من أقوى الصور الدرامية في كل القرآن الكريم.

(١) الجنة

يركز التصوير القرآني للجنة بطريقة كبيرة على الصورة المثالية «للجنان»:

﴿مَثَل الجنّة الّتي وُعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من خمر لذّة للشّاربين وأنهار من عسل مصفّى ولهم فيها من كلّ الثّمرات ومغفرة من ربّهم﴾(١٠).

إن الجنة هي المكان الذي ستحيا فيه الروح الطيبة خلوداً لا موت بعده، وهي عالم خالد لانهائي به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولن يصيب أهل جنات النعيم حزن ولا هم، حيث إن الجنة هي المكان التي تتجلى فيه صفات الجمال والكمال لله، لذا فإن لا نقص فيها ولا عيب: مثل الحزن الذي قد ينتج من غياب الجمال أو المعرفة أو القوة ـ أو أي من صفات الجمال والكمال لله ـ فالجنة دار الكمال حيث لا خوف على أهلها ولا هم يحزنون بل يهنأون في ظل دائم وأكل ميسر. ولا يوجد في الجنة أي حواجز أو حدود من التي كانت موجودة على الأرض، حيث ترفع كل الحواجز السببية والمادية في الحياة الآخرة: كل ما على الإنسان أن يفعله إذا أراد شيئاً أن يفكر فيه فحسب، فيجده أمامه من دون بذل أي مجهود.

وهكذا، فإن جنات النعيم هي دار السلام التي يؤدي إليها الإسلام، والجزاء العادل لبذل الكثير من الجهد والعمل الصالح في الحياة الدنيا.

---

(١٠) المصدر نفسه، «سورة محمد،» الآية ١٥.

(٢) النار

إن التصوير القرآني للجحيم يعكس مدى القسوة والغلظة في ذلك المكان. إن من يفشل في الحساب الرباني وترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، فإن مأواه جهنم وبئس المصير. وعند علمه بذلك المصير الذي لا مفر منه، فإنه يقضي أيامه في الحزن والندم على ما فات وما لا يرجى استرجاعه ﴿**ويوم يعضّ الظّالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً**﴾[١١].

وعندما يجثو العاصي على ركبه من الخزي والعار ويتوسل إلى الله أن يعطيه فرصةً أخرى، مدّعياً أنه سيصلح من عمله إذا أعطاه الله تلك الفرصة وردّه إلى الأرض مرة أخرى ويصبح من المؤمنين. لكن الله سيرفض ذلك الرجاء وسيساق بعدها العاصون إلى أحد أبواب الجحيم الخالد ليكون مأواهم. وفي النار التي وقودها الناس والحجارة (أي الأصنام)، سيكون طعام الآثمين من شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، والتي تمثل التجسيد لكل ما يشير إلى ما هو رفض أو إنكار أو شرك بالله، بما في ذلك كافة ذنوب وخطايا الإنسان وجموح نفس العاصي، وهذا الطعام بالطبع لن يسمن ولن يغني من جوع: ﴿**طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم. خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم. ثمّ صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم. ذق إنّك أنت العزيز الكريم. إنّ هذا ما كنتم به تمترون**﴾[١٢].

---

(١١) المصدر نفسه، «سورة الفرقان،» الآية ٢٧.

(١٢) المصدر نفسه، «سورة الدخان،» الآيات ٤٤ ـ ٥٠.

وفي النار، سيعذب الله العاصين عذاباً دائماً خالداً لا مثيل له

﴿إنّ الّذين كفروا بآياتنا سوف نُصْليهم ناراً كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنّ اللّه كان عزيزاً حكيماً﴾(١٣).

وترسم صور العذاب من الماء المغلي والشرر والظلام الدامس والدخان والصرخات التي لا تنتهي للمعذبين كافة، صورة مدهشة يرسمها القرآن الكريم لما ينتظر العاصين. وفي العديد من المواطن يصوّر القرآن النار على أنها نتيجة عناد الإنسان، وأن النفس دخلت النار بما اختارته من طريقة للحياة.

(٣) بعض المفاهيم الخاطئة والملاحظات حول ما جاء في القرآن عن الجنة والنار

ورد في أحد الأحاديث النبوية أن «الله كما يظن عبده به» وهو ما يعني أن العقل البشري يدرك ما لديه القدرة على إدراكه فحسب، وأنه ليس بمقدوره أن يتوسع في تفكيره بشكل يشمل الشكل الحقيقي للجنة؛ فهل يمكن للفاني أن يعي الخالد؟ وهل يمكن لغير المطلق أن يدرك المطلق؟ ففيما يتضح أن تصور المرء لله يأتي بالقدر والشكل الذي يتيح له إدراكه من الناحية العقلية والروحية والعاطفية، وعلى هذا فإن الهدف من الإسلام هو تعليم الإنسان كيف ينمي مداركه بالشكل الذي يتيح له التوصل إلى الصورة الأوضح والأشمل لله.

(١٣) المصدر نفسه، «سورة النساء،» الآية ٥٦.

وبسبب وجود عدد لا يُحصى من مختلف درجات ومستويات العقيدة والإيمان والرضا بمشيئة الله، فمن الواضح أن الجميع لن يعي أو يتصور الله بالطريقة نفسها. والشيء نفسه بالنسبة إلى الجنة والنار، وهو ما يتماشى في معظمه، بحسب تعاليم المسلم، مع توقعات المرء ذاته. والأمر الوحيد الثابت هو أن هناك سبيلين للحياة: **أحدهما** يكافأ فيه إيمان المرء بالله ورضاه بمشيئته واستسلامه لإرادته بالنعيم، أما **ثانيهما** فيعاقب فيه المرء على عناده وإنكاره لوجود الله بالندم والحسرة والوحشة.

ولتأكيد فكرة أن النعيم والجنة هما ذروة الإيمان الحق والاستسلام الفعلي لإرادة الله، وأن النار الشقاء المذل يتبع إنكار وجود الله وعناد المرء وتعنته، يجسدهما القرآن كمقامات مادية تحتوي على أسباب مادية للسعادة أو للشقاء؛ فلنتخيل مدى تأثير تصوير القرآن لمكان يضم الكثير من الخضرة والأنهار الخالدة الجارية والماء العذب السلسبيل، على عربي عاش في القرن الثامن الميلادي في الصحراء الجرداء القاسية. وبالمثل بالنسبة إلى النار مع ما يوحي به تصوير القرآن بما فيها من شقاء مستمر. وبما أن القرآن يوجه حديثه إلى الجميع كل بحسب قدراته الفهمية ومداركه، فاستيعاب المتلقين لوصف الجنة أو النار سيختلف تبعاً لمقدار إدراكهم، وبالتالي لن يكون الاستيعاب على الدرجة نفسها للجميع؛ فمن يعتقد أن النار لهيباً يحرق العاصين سواء فعلياً أم رمزياً، فالأمر سيكون كذلك. ومثله بالنسبة إلى أنهار اللبن والسلسبيل في الجنة، فمن سيعارض اعتقاده بوجودها الفعلي؟

تسمو النفس المستنيرة المهتدية فوق الرغبة في الجنة أو الخوف من النار. ومثالاً على ذلك ما روي عن رابعة العدوية، وهي امرأة عرفت بالتعبد في ملكوت الله؛ ففي أحد الأيام شوهدت تهرول في الطرقات وفي يدها شعلة وفي اليد الأخرى دلو من الماء، وتعجب أحدهم من هذا المشهد العجيب فأوقفها وسألها ما هي فاعلة؟ فقالت هذه الشعلة لإشعال النار في حدائق الجنة، وهذا الماء لإطفاء لهيب النار وحينئذ فقط سنتعبد لله وحده وليس طمعاً في ما سنجنيه كمن يستجدي أجراً مقابل ما يقوم به.

وهكذا ، يبدو أن الهدف الأسمى للمسلم المؤمن الحق أن لا يركز على ما في الجنة من نعيم وما في النار من عقاب وشقاء على الرغم من أهميتهما كحافزين للإيمان، كما ينبغي عدم الاستخفاف بقدرهما. إلا أن الهدف الفعلي والحقيقي هو تصور هذا التوحد مع الله نفسه، وهذه هي المكافأة الحقة لحياة مليئة بالإيمان والعمل الصالح.

■ **لمزيد من القراءة والاطلاع**

قليل من الكتب ـ إن وُجدت ـ تتناول الإيمان في الإسلام بمفرده كموضوع. ذلك في ما عدا المؤلفات الخاصة بالدين الإسلامي التي تختص بأمور الإيمان كجزء من المغفرة. إلا أن هذه المؤلفات ليست بما يوصى بقراءته. وفي رأيي، هناك كتاب واحد باللغة الإنكليزية يغطي المبادئ الرئيسة للإيمان بشكلٍ مرضٍ، ألا وهو مؤلَّف وليام تشيتيك (William Chittick) وساشيكو موراتا (Sachiko Murata) المتميز: **رؤية الإسلام** *(The Vision Of Islam)* (١٩٩٥)، وهو يضم عرضاً واضحاً وفصيحاً للمعتقدات الأساسية في الإسلام، والتي تغطي الإيمان والعبادات والروحانيات ونظرة المسلم إلى التاريخ ببراعة وبحس أدبي رائع.

الفصل الرابع
التطبيق

أولاً: الإسلام ومفهوم العمل الصالح

بعيداً عن القيم الأخلاقية والمبادئ المعنوية، يحث الإسلام المسلمين على الجمع دائماً بين الإيمان بالله والعمل الصالح. من هنا، فإن القرآن يتحدث عن أهمية العمل الصالح كتعبير خارجي عن الإيمان بالله والاستسلام الكامل لإرادته وهو الأمر الأكثر أهمية؛ في الحقيقة، إن «مفتاح النجاة» في القرآن لا يقتصر على الإيمان بالله فحسب، ولكن على اقتران هذا الإيمان بالعمل الصالح. حيث يحتوي القرآن الكريم على عدد كبير من الآيات التي تجمع بين الإيمان بالله والعمل الصالح: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار**

خالدين فيها أبداً﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم﴾[1].

وقد يتجه العقل في الحال إلى ترجمة الآيات وتصور نوعية معينة من «الأعمال الصالحة» في الدين الإسلامي مثل الصلاة والصوم وحج البيت الحرام، وهي مجموعة من الأعمال التي سيصنفها الكثيرون تحت اسم «الشعائر والفرائض الدينية». ولكن على الرغم من أن القرآن يذكر هذه الأعمال الدينية من بين الأعمال الصالحة التي يجب على المسلم الالتزام بها، إلا أن المفهوم القرآني للعمل الصالح بصفة عامة يركّز بشكل أكبر على إصلاح النية والعمل الصالح بالصيغة الأشمل في كل ما يقوله أو يفعله المرء. إن الهدف كما يصوّره القرآن ليس القيام بأفعال إسلامية دينية، ولكن الهدف هو جعل كل ما يقوم به المرء دينياً؛ أو بمعنى آخر إصلاح النية في كل الأعمال.

يرفض الإسلام التفرقة البشرية الواهية التي يقوم بها البعض بين الأعمال التي تتصف بالصفة «الدينية» ـ مثل الصلاة ـ وبين الأعمال التي يصنفها الناس على أنها «دنيوية» إلى حدٍ ما أو «محايدة» ـ مثل الأكل والشرب والتسوق وممارسة العلاقة الزوجية ـ فالإسلام يدعو لأن تكون كل أفعال المسلم وأقواله مقدسة ما دامت

(١) **القرآن الكريم:** «سورة البقرة،» الآية ٢٧٧؛ «سورة النساء،» الآية ٥٧، و«سورة المائدة،» الآية ٩ على التوالي.

تؤدّى في سبيل الله وباسم الله ـ بغض النظر عما إذا كانت تلك الأعمال والأقوال تعبيراً خارجياً ظاهراً عن الإيمان مثل الصوم والصلاة، أم كانت أعمالاً تبدو دنيوية مثل المذاكرة أو دخول الخلاء أو النوم. إن العبرة ليست بتأدية «الأعمال الصالحة»، ولكن بإصلاح الأعمال كلها. وبإصلاحها، تصبح حياة المسلم كلها في سبيل الله.

من هنا، الإسلام دين حياة، لكن من الواضح أنه ليس بالشكل نفسه الذي يعنيه المدافعون عن الدين الإسلامي؛ فاعتبار الإسلام نمطاً للحياة ليس معناه تطبيق أكبر قدر ممكن من القواعد الإسلامية على ما يقوم به المرء، بل في الحقيقة الأمر لا يتعلق كثيراً بالقواعد الإسلامية في حد ذاتها؛ فكثير من أمور حياتنا اليومية ليس مذكوراً في القرآن أو السُنّة كقواعد أو تشريعات محددة بعينها منصوص القيام بها؛ ففيما يبدو أن القرآن يقدم وصفة لتبني سلوك من الاستسلام الواعي الطوعي الذي إذا ما اهتممنا به بما يناسب سوف يصبغ حياة كل فرد بروح الإسلام الحقة.

وسنتناول مفهوم الاستسلام بمزيد من التعمق في الفصل الخامس من الكتاب. أما الآن، فسوف نتحدث عن موضوع آخر في غاية الأهمية وهو موضوع «أركان الإسلام»، وأركان الإسلام، هي مجموعة من العبادات العملية والقولية التي تطبق مفهوم الاستسلام لله، يشتهر بها الإسلام.

ثانياً: أركان الإسلام الخمسة

١ ـ الشهادة

تعني كلمة «شهادة» كاصطلاح «البرهان»، وهي تشير إلى النطق بالشهادة والإقرار بأنه لا معبود سوى الله سبحانه وتعالى وأن محمداً هو رسول الله [ﷺ] بمجرد الدخول في الإسلام. وصيغة الشهادة هي: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»؛ فإذا أراد الشخص دخول الإسلام، فإن عليه أولاً الاغتسال ثم نطق الشهادة باللغة العربية وبهذه الصيغة أمام عدد من الشهود.

إن النطق بالشهادة يعبر عن دخول ذلك الشخص الإسلام وتصديقه وإيمانه بالله سبحانه وتعالى، فضلاً عن استعداده القيام بكل العبادات والالتزامات التي يمليها عليه دين الإسلام. ومن هنا، فإن الشهادة تعتبر آلية نفسية غاية في الأهمية، لأنها من الناحية النظرية تمثل الانتقال من حال إلى أخرى: فالدخول في الإسلام يعني إعادة توجيه النفس بكل صفاتها وما لها إلى الله، لا إلى النفس أو الطبيعة أو الصدفة أو الحظ الأعمى، بما في ذلك من التغيير السلوكي المتضمن. وعلى هذا، فإن الشهادة جملة واحدة تبلور كل المعتقدات التي أشرنا إليها في الفصول السابقة من هذا الكتاب: الإيمان بالله والإيمان بالرسول [ﷺ]، وبكل ما ينطوي عليه الإسلام ظاهرياً وباطنياً.

ومن ناحيةٍ أخرى، هناك مفهومان خاطئان يحتاجان إلى التغيير في ما يتعلق بالشهادة. **أولاً**، على الرغم من أن الكثيرين

يفهمون الشهادة على أنها مجرد تعبير عن النية الباطنية، فإنها في الحقيقة تمثل منهجاً عقلياً وعاطفياً وروحياً للتعامل مع العالم والحياة اليومية، ولذلك فإن الشهادة تحتاج إلى التجديد من حين إلى آخر وباستمرار كما أوصى الرسول [ﷺ] بتجديد الإيمان بالشهادة. ومن هنا، فإن الشهادة بحاجة إلى التجديد على الدوام أثناء رحلة الإنسان في الحياة حتى لقائه الحتمي بالله. **ثانياً**، ينبغي ألا يعتبر النطق بالشهادة أمراً قاصراً على الداخلين الجدد في الإسلام، فمن المؤسف أن عدداً كبيراً من الأشخاص وحتى المسلمين يعتقدون أن النطق بالشهادة وإعلان الإيمان هو أمر يقتصر على غير المسلمين الراغبين في الدخول إلى الإسلام، معتبرين أن من ولد مسلماً لا ينطبق عليه هذا الأمر. إنَّ مجرد النظر العابر إلى آيات القرآن ونظرته إلى قضية الإيمان والاستسلام، يكفي لإقناع القارئ أن الإسلام قائم على الاقتناع والاختيار، لا على القوى الجغرافية أو الظروف الجينية. إن الدخول إلى الإسلام يعتمد على الاختيار الحر للإنسان، ولهذا فإن على جميع المسلمين ـ سواء ولدوا مسلمين أم دخلوا إلى الإسلام ـ النطق بالشهادة كجزء من تكوينهم الروحي. وسنناقش موضوع الإسلام الجغرافي بمزيد من التفصيل في جزء لاحق من هذا الفصل.

٢ ـ إقامة الصلاة

تعتبر إقامة الصلاة الركن الأهم من أركان الإسلام؛ فالصلاة هي عمود الدين، وهي أيضاً أشهر التعبيرات الخارجية عن الإسلام

التي يتعرف إليها غير المسلمين بسهولة. والصلاة مفروضة في الإسلام على كل مسلم بالغ عاقل. وعلى الرغم من أن الصلاة ليست هي الطريقة الوحيدة للعبادة في الإسلام، فإن الركوع والسجود وتلاوة القرآن التي تكوّن الصلاة، تعطي المسلم الفرصة للتواصل المستمر مع خالقه على مدار اليوم وفي مواعيد منتظمة. ويمكننا التعرف إلى مدى أهمية الصلاة في الدين الإسلامي إذا قرأنا حديث رسول الله [ﷺ] عن أهمية إقامة الصلاة:

وروى الإمام أحمد رحمه الله، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : «ذكر النبي [ﷺ] الصلاة يوماً بين أصحابه، فقال: من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وحشر يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف وهذا وعيد عظيم لمن لم يحافظ على الصلاة» .

وكغيرها من العبادات في الدين الإسلامي، فقد تم ممارسة الصلاة منذ الأزل من قبل الرسل السابقين لمحمد [ﷺ] مثل إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى، ولكن الطريقة التي مارس بها هؤلاء الرسل السابقون الصلاة غير معروفة بالنسبة إلينا؛ فالقرآن يؤكد أن الأجيال التي تبعت هؤلاء الرسل لم يحافظوا على الصلاة، حتى إنها وصلت في العهد الذي بعث فيه نبي الإسلام محمد [ﷺ] إلى مجرد المكاء والتصدية؛ حيث كان كفار قريش يصفقون ويصفرون أثناء طوافهم بالبيت العتيق. وعلى كل حال، يبدو أن الأجيال التالية

من العرب لهؤلاء الرسل العظام قد أضاعوا الصلاة بالفعل، ولكن أهل الكتاب قد حافظوا بالطبع على أداء شعيرة الصلاة على الرغم من اختلاف طريقة تأديتها. في الواقع، إن الصلاة عند اليهود الأرثوذكس والمسيحيين الأرثوذكس الشرقيين اليوم تشبه في بعض حركاتها بعض الحركات المتضمنة في الصلاة التي يصليها المسلمون، ما يؤكد الأصل الواحد للصلاة والذي يركز عليه القرآن.

أ ـ القرآن والصلاة

إن الإشارة في القرآن إلى الصلاة التي كان يؤديها موسى وعيسى تشير إلى أن الرسول [ﷺ] كان يعرف الصلاة بالمفهوم الشامل في بداية البعثة النبوية في مكة. وكما ذكرنا من قبل، فقد انشغل محمد [ﷺ] بالتعبد والتأمل والعزلة حتى قبل البعثة النبوية، ومن المعلوم أنه كان أثناء هذه العزلة يقوم بنوع من أنواع الصلاة ولكنه يختلف عن الصلاة التي يؤديها المسلمون اليوم. وكذلك، كان الرسول [ﷺ] والمسلمون الأوائل يقيمون الصلاة فرادى أو في جماعة قبل الجهر بالدعوة. وجاءت الإشارة إلى الصلاة في القرآن أول مرة في «سورة العلق»، وهي من السور المكية الأولى التي نزلت على محمد [ﷺ] في بداية البعثة، حيث ينهى فيها الله من يمنعون المسلمين عن الصلاة، أما إقامة الصلاة على نحو منتظم خلال ساعات اليوم فجاء الأمر بها قبل هجرة الرسول [ﷺ] إلى المدينة مباشرةً:

﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾[٢].

وكما تروي السيرة، فُرضت الصلاة خلال رحلة الإسراء والمعراج، حيث حدد فيها الله عدد الركعات التي يجب على المسلمين إقامتها في اليوم والليلة. ويؤكد علماء المسلمين أن العديد من آيات القرآن مثل الآية السابق ذكرها من «سورة الإسراء»، والآية الرابعة عشر بعد المئة من «سورة هود»، والآية الثلاثون بعد المئة من «سورة طه»، تشير إلى الأوقات المحددة لإقامة الصلوات الخمس على مدار اليوم والليلة.

ب ـ أوقات الصلاة

تشير أسماء الصلوات الخمس إلى الوقت الذي يجب أن تؤدى فيها كل صلاة. وهي:

- صلاة الصبح (الفجر)؛ ووقتها بين الفجر وبطلوع الشمس.

- صلاة الظهر؛ تبدأ إذا زالت الشمس عن وسط السماء، أي مالت جهة الغرب، وتنتهي وقت الظهر بحضور وقت العصر.

- صلاة العصر؛ يدخل وقت العصر بصيرورة ظل الشيء مثله بعد الزوال وينتهي بغروب الشمس على الأصح.

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة الإسراء،» الآية ٧٨.

• صلاة المغرب؛ يبدأ وقت صلاة المغرب بغروب الشمس وينتهي بدخول الليل.

• صلاة العشاء؛ ووقتها من دخول الليل وغياب الشفق الأحمر حتى طلوع الفجر. ولكن السُنّة النبوية تحث على صلاة العشاء قبل منتصف الليل.

وكما هو الحال في مختلف النواحي الفقهية من الدين، فإن الفرق المختلفة من السُنّة والشيعة تختلف في ما بينما حول بعض الأمور الشكلية التي تتعلق بالصلاة من أوقات إقامتها وأماكن إقامتها وما يجب على المرء ارتداؤه أثناء إقامة الصلاة، وما إلى ذلك من الأمور الشكلية؛ فعلى سبيل المثال، يسمح معظم علماء الشيعة لأتباعهم بالجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين صلاتي المغرب والعشاء، ما يقلل عدد الصلوات إلى ثلاث صلوات بدلاً من خمس صلوات. وعلى الرغم من إجازة معظم علماء المذهب السُنّي لذلك، يصر معظم العلماء على إتمام الصلوات الخمس في اليوم الواحد.

وبما أن مواقيت الصلاة تحددها حركة الشمس، فهي تختلف من موسم إلى آخر، بل من يوم إلى آخر. وفي العالم الحديث، تطبع مواقيت الصلاة في الجرائد اليومية، بينما تصدر المساجد والتجمعات الإسلامية في الغرب نشرة شهرية بمواقيت الصلاة.

ج ـ الأذان

يتم إعلان دخول وقت الصلاة في البلاد الإسلامية والعديد من المجتمعات الإسلامية في البلاد الغربية عن طريق رفع الأذان.

وعادةً ما يرفع الأذان من منارة المساجد، أما اليوم فإن الأذان يرفع عن طريق قنوات الراديو والتلفزيون أيضاً في المجتمعات الحديثة. وقد كان بلال بن رباح هو أول مؤذن في الإسلام، وهو أحد الصحابة المقربين للرسول [ﷺ]، كان عبداً من الحبشة ثم أعتقه أبو بكر الصديق [رضي الله عنه]. أما الصيغة الكاملة للأذان فهي كالآتي:

الله أكبر الله أكبر

الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة

حي على الصلاة

حي على الفلاح

حي على الفلاح

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله

د ـ الاستعداد للصلاة: الوضوء

إنَّ الطهارة والنظافة الشخصية تعتبر من أهم ركائز الإسلام، وهناك العديد من المواقف التي يتوجب فيها على المسلم التطهر.

ويمكن للمسلم التطهر بطريقة من اثنتين تبعاً للحالة، والطريقتان هما: الغسل والوضوء.

يصبح الغُسل واجباً قبل أداء الصلاة بالنسبة إلى الرجال في حالة الإنزال بغض النظر عن السبب، وبالنسبة إلى النساء عند الطهر من الحيض أو من النفاس؛ إضافة إلى ذلك، يتوجب على الرجال والنساء الغسل بعد الجماع في حال التقاء الختانين. ويشرح الفقهاء المسلمون طريقتين للقيام بالغسل الشرعي، وتعتبر الطريقة الأسهل والأشهر هي عن طريق غسل كل الجسد تحت الماء الجاري النظيف. ويعتبر الغسل قبل صلاة الجمعة من الأمور المستحبة، حتى وإن لم يكن المسلم في حال تستوجب الغسل كالجماع أو النفاس وغيرها.

وعند عدم وجود أي حال من حالات وجوب الغسل، فإن ما على المسلم فعله ليبدأ في الصلاة هو الوضوء. ويتضمن الوضوء غسل اليدين، ثم مضمضة الفم والاستنشاق، ثم غسل الوجه واليدين إلى المرفقين، ثم المسح على الرأس، وأخيراً غسل الرجلين إلى الكعبين بالطريقة المذكورة في السُنّة النبوية. وقد تختلف المذاهب الفقهية حول بعض الشكليات الفرعية في الوضوء إلا أنها كلها تتفق على الفرائض المكونة للوضوء. ومن ناحيةٍ أخرى، فإن هناك مجموعة من نواقض الوضوء التي تستلزم على المسلم إعادة الوضوء قبل الصلاة التالية، وتشتمل نواقض الوضوء: التبول والتبرز أو إخراج الريح أو التقيؤ أو نزف كمية كبيرة من الدماء من الجروح. ويفضل بعض العلماء المسلمين التوضؤ قبل لمس المصحف أو قراءة القرآن تأدباً

وإجلالاً لمكانته، إضافة إلى ذلك، فإن التسوك قبل الصلاة ـ أو غسل الأسنان ـ يعتبر من الأمور المستحبة قبل الصلاة في السنة النبوية.

أما إذا تعذر توافر الماء، أو في حال كان استخدام الماء مضراً بالصحة، فإن على المسلم التيمم قبل الصلاة. ويعتبر التيمم نوعاً من التطهر الجاف يقوم به المسلم بمسح اليدين والوجه بالتراب النظيف أو الرمال بحسب المتاح في ذلك الوقت.

وبغض النظر عن الوضوء الواجب للصلاة، فإن الإسلام يهتم اهتماماً كبيراً بالنظافة الشخصية للمسلم، بل إن الإسلام يعتبر **الطهارة** شق الإيمان. وتشمل النظافة هنا المفهوم الشامل بما في ذلك استخدام الماء للتطهر بعد قضاء الحاجة، وغسل الصحون بالماء والاغتسال من حين لآخر؛ هذا بالطبع إضافة إلى سنن الفطرة التي تتضمن نتف الإبط وقص الأظافر وقص الشارب وحلق العانة وما إلى ذلك. وفي الحقيقة، إن من الأمور المشوّقة أنه من المعتقد أن عادات الاغتسال المتكرر بالماء والصابون واستخدام العطور قد انتقلت إلى الغرب عن طريق الصليبيين بعد عودتهم من الحملة الصليبية على الشام، حيث عاشوا هناك لفترة واعتادوا على ممارسات المسلمين في ما يتعلق بالنظافة الشخصية والطهارة.

هـ ـ أماكن الصلاة وما على المسلم ارتداؤه أثناء إقامة الصلاة

لا يوجد لباس معين يجب على المسلم أن يرتديه أثناء إقامة الصلاة: طالما توافرت شروط طهارة المكان والملبس؛ إذ يجب أن يكون الملبس طاهراً وأن يغطي العورة.

وبالمثل، ليس هناك قيود على أماكن إقامة الصلاة؛ حيث قال الرسول: «جعلت الأرض لي مسجداً وطهوراً»؛ فيمكن للمسلم الصلاة في أي مكان طالما توافرت طهارة ذلك المكان وطالما توجه المسلم في صلاته إلى القبلة. ومن المعروف بالطبع أن صلاة الجماعة تعتبر فرضاً على الرجال من المسلمين، حيث إن لصلاة الجماعة فضلاً على الصلاة الفردية في المنزل، فهي تفضلها بـ ٢٧ درجة.

و ـ أركان الصلاة

تتكون كل صلاة من الصلوات من عدد معين من الركعات؛ فصلاة الصبح تتكوّن من ركعتين، أما صلاة الظهر فمن أربع ركعات، وكذلك صلاة العصر، أما صلاة المغرب فمن ثلاث ركعات فحسب، وأخيراً صلاة العشاء من أربع ركعات. وتشتمل كل ركعة على قراءة الفاتحة مع القيام ثم قراءة ما تيسر من القرآن، وبعدها الركوع، ثم الرفع من الركوع، ثم السجود والقيام، ثم السجود الأخير. ويقوم المسلم بقول مجموعة من الأدعية والتسابيح خلال الركوع والسجود. وبعد ذلك يقوم المسلم بتكرار الركعات حتى يصل إلى العدد المطلوب من الركعات في الصلاة ـ اثنين أو ثلاث أو أربع بحسب الصلاة التي يؤديها المسلم. ويقوم المسلم بعد الانتهاء من أول ركعتين بقول التشهد الأول وصياغته كالآتي: «التحيات لله والصلوات والطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا

الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». وفي نهاية الصلاة يجلس المسلم ويقول التشهد الأول مرةً أخرى ولكن يزيد عليه التشهد الثاني أو الصلاة الإبراهيمية، وصيغتها كالآتي: «اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد». في صلاة الصبح يجلس المصلي في الركعة الأخيرة ويقول التشهد الأول ثم التشهد الثاني، أما في صلاة الظهر والعصر والعشاء، أي الصلوات التي تتكون من أربع ركعات، فيجلس المصلي بعد الركعة الثانية ويقول التشهد الأول ثم يقوم ويصلي ركعتين، ثم يجلس ليقول التشهد الأول والثاني ثم يسلم. أما في صلاة المغرب التي تتكون من ثلاث ركعات فيقوم المصلي بأداء ركعتين ثم الجلوس ويقول التشهد الأول ثم يقوم ليؤدي ركعة واحدة ثم يجلس ويقول التشهد الأول والأخير متتاليان ومن ثم يسلم وينهي الصلاة.

ومن المعروف بالنسبة إلى جميع المسلمين أن الصلاة يجب أن تقام باللغة العربية. وعلى كل حال، فإن أهم عنصر من عناصر العبادات عامةً وبخاصة الصلاة هو النية، والنية مكانها القلب.

ز ـ الرخص والاستثناءات في الصلاة

تعتبر الصلاة فرض عين على كل مسلم ومسلمة بمجرد الوصول إلى سن البلوغ. وعلى الرغم من أن الصلاة تعتبر التزاماً مدى الحياة لا يحق للمسلم تركها مهما كانت الظروف، فإن هناك

بعض الظروف والحالات التي يسمح فيها بقصر الصلاة أو جمعها موقتاً؛ فعند السفر على سبيل المثال، يرخص للمسلم قصر الصلاة الرباعية ـ الظهر والعصر والعشاء ـ إلى ركعتين فقط، بل ويمكن أيضاً الجمع بين صلاتي الظهر والعصر أو صلاتي المغرب والعشاء لمدة ثلاثة أيام ولياليها للمسافر. وكما قلنا من قبل، إن المسلم منهي تماماً عن ترك الصلاة مهما كانت الظروف، لذلك، فإن الله يرخص لمن لا يستطيع الصلاة واقفاً أن يصلي قاعداً، فإن لم يستطع فليصلي مضجعاً، فإن لم يستطع فليصلي نائماً، فإن لم يستطع فليصلي برأسه، فإن لم يستطع فليصلي حتى ولو بعينيه.

وعلى من يفوت الصلاة في وقتها حتى ينتهي الوقت المخصص لها أن يصليها قضاءً في وقت لاحق وبأسرع ما يمكن.

ويحرم على المرأة الحائض الصلاة وكذلك الصوم أو مس المصحف حتى ينقطع الدم عنها تماماً وتتطهر. وبعد أن تغتسل المرأة يمكنها الصلاة مرةً أخرى، ولكن ليس عليها قضاء ما فاتها من الصلوات أثناء فترة حيضها.

ح ـ صلاة الجماعة

من المعروف أن السُّنّة النبوية تحث على صلاة الجماعة؛ حيث يؤكد لنا الرسول [ﷺ] أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة. وتعتبر صلاة الجماعة في المسجد سُنّة مؤكدة (في مقام الفرض) على الرجال من المسلمين دون النساء. ويجوز للنساء

الخروج إلى المساجد وشهود الجماعة بشرط تجنب التطيب والتزين، ولكن صلاة الجماعة غير مفروضة على النساء، بل إن الإسلام يقر أن صلاة المرأة في بيتها أفضل. ويطلق اسم «صلاة الجماعة» على أي صلاة يصليها اثنان فأكثر في جماعة يكون أحدهما إماماً والبقية مأمومين. وليس هناك حد أقصى لعدد المأمومين الذين يصلون وراء الإمام، حيث يمكننا مشاهدة الآلاف من المسلمين يصلون في جماعة واحدة خلف إمام واحد في المساجد الكبيرة في الشرق الأوسط، وبخاصة في المواسم والأعياد وفي رمضان. وفي صلاة الجماعة، يقف إمام الصلاة أمام المصلين بينما يقف المأمومون خلفه، ويتبعون الإمام في حركاته وتلاوته أثناء الصلاة.

ومن الممكن أن تتضمن الجماعة الواحدة الرجال والنساء معاً، ولكن في هذه الحال يقف الرجال في الصفوف الأولى خلف الإمام، بينما تليهم صفوف النساء. وذلك أكرم للمرأة عند الركوع والسجود. ومن المعروف أن الإمامة في الجماعة تكون للرجل، ولكن يسمح للنساء أن تؤم جماعة تتكون من النساء فقط. إلا أن بعض العلماء المعاصرين يرى أنه يمكن للمرأة إمامة مجموعة مختلطة من الرجال والنساء وبخاصة إذا ما كانت أكثر علماً من الناحية الفقهية، أو أكثر طلاقة في اللغة العربية عن الموجودين من الرجال.

ط ـ صلاة الجمعة

﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر اللّه وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصّلاة

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل اللّه واذكروا اللّه كثيراً لعلّكم تفلحون﴾[3].

تعتبر صلاة الجمعة في جماعة عند أهل السُنة فرض عين على المسلم الحر العاقل البالغ المقيم من الرجال، ويمكن للنساء حضورها وإن كان الإسلام يفضل صلاة المرأة في بيتها. وكما نرى من الآية السابق ذكرها، فإن القرآن لا يفرق بين الرجل والمرأة من حيث وجوب صلاة الجمعة في جماعة، ومن هنا يتضح لنا مرة أخرى أن العادات الثقافية غالباً ما تطغى على الحقيقة الواردة في القرآن. أما بالنسبة إلى الفرق الشيعية، فإنها تختلف في حكم صلاة الجمعة عن أهل السُنّة، وتنقسم داخلياً في ما يخص ذلك الحكم. حيث ترى بعض فرق الشيعة أن صلاة الجمعة واجبة، بينما يراها البعض الآخر من الفرق مستحبة ولكنها ليست واجبة، أما الأقلية فإنها تدعو إلى وجوب صلاة الجمعة كصلاة فردية حتى ظهور المهدي المنتظر.

وتتكون صلاة الجمعة من خطبة تليها صلاة من ركعتين جماعة خلف الإمام. وتنقسم خطبة الجمعة إلى قسمين: **أحدهما** قصير يأتي في شكل مقدمة منهجية صيغية تضم حمد الله تعالى والثناء على رسول الله [ﷺ] والدعاء لأمة المسلمين جميعاً مع تلاوة آيات من القرآن الكريم تأمر البشرية جمعاء بالإيمان بالله، وبعد وقفة قصيرة يمكن للإمام الجلوس. ثم تبدأ الخطبة **الثانية** وهي عادة ما تكون على شكل مواعظ يتحدث فيها الإمام باختصار مثلاً عن العقيدة الأساسية

(٣) المصدر نفسه، «سورة الجمعة،» الآيتان ٩ ـ ١٠.

أو أحد أركان الإسلام. إلا أنه في الآونة وبخاصة في الخمسين عاماً الماضية، شهدت خطبة الجمعة في بعض المجتمعات الإسلامية تغيراً واضحاً، حيث استغل الأئمة المنغمسون في السياسة وجود أعداد غفيرة من المسلمين وقت صلاة الجمعة لتوصيل توجهاتهم ورسائلهم الأيديولوجية. وظهر مبدأ تسييس خطبة الجمعة بشكل واضح في علو شأن الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، وكثير من الخطب الموجهة سياسياً لتسمع حالياً في العديد من البقاع الإسلامية.

وبعد انتهاء الصلاة، يكون لجماعة المسلمين المصلين حرية الانصراف إن شاءوا ـ ويبقى البعض عادةً لصلاة سُنّة الجمعة بعدها والتي تتكون من أربع ركعات ـ وكما يوضح القرآن الكريم، فإن الآيات تحث المسلمين على مباشرة أعمالهم بعد انقضاء الصلاة بشكل طبيعي، ما يشير إلى أن الإسلام ليس فيه مفهوم يوم الراحة أو يوم السبت كالذي يوجد في اليهودية أو النصرانية. وعلى كل حال، فإن يوم الجمعة يعتبر يوم الإجازة الرسمية في العديد من الدول الإسلامية، وهو يعد عطلة آخر الأسبوع مجتمعاً مع مساء يوم الخميس.

ي ـ صلوات أخرى

النوافل هي الصلاة دون الفرض التي يقوم بصلاتها العديد من المسلمين تطوعاً بغرض التقرب من الله سبحانه وتعالى. وتتضمن النوافل صلاة «التهجد» أو «قيام الليل»، وكذلك السنن الرواتب

التي يصليها المسلم قبل أو بعد الفروض. هذا إضافة إلى صلاة الجنازة وصلاة الكسوف والخسوف والاستسقاء وصلاة الاستخارة وصلاة الضحى وصلاة الحاجة.

هذا بالطبع فضلاً عن صلاة العيدين ـ عيد الفطر وعيد الأضحى ـ وهي سُنّة مؤكدة واظب عليها النبي [ﷺ] وأمر الرجال والنساء أن يخرجوا إليها.

أما بالنسبة إلى الفرق الشيعية، فهي تتضمن العديد من أنواع الصلوات التطوعية المرتبطة بالعديد من المناسبات.

ك ـ الدعاء

إن الصلاة ـ سواء الفرض أم النوافل ـ ليست الطريقة الوحيدة التي يوفّرها الإسلام للشخص المسلم للتقرب إلى الله والتواصل مع خالقه: فكما سنرى في الفصل الخامس من الكتاب، هناك العديد من الطرق التي يمكن للشخص المسلم أن يتواصل من خلالها مع الله وقتما شاء ـ فللمؤمنين الحرية في التحدث مع الله والدعاء متى شاءوا وبالطريقة التي يريدونها طالما حافظوا على التأدب مع الله ـ بل إن الإسلام يحث المسلمين على ذلك. والتواصل غير المفروض في الإسلام بهذه الطريقة يسمى «الدعاء»، وهي كلمة عادة ما تترجم باللغة الإنكليزية إلى كلمة (Prayer) وهو الأمر الذي يخلق لبساً بينها وبين الصلاة؛ فالدعاء في الحقيقة ما هو إلا مناجاة الله. وعلى هذا، يفضل استخدام كلمة (Invocation) عند ترجمتها إلى اللغة الإنكليزية. إلا أن

هناك من العبادات ما قد يطلق عليه أيضاً مسمى الدعاء قد يتفهمها أهل الغرب عند ترجمتها على أنها ابتهالات (Supplications)، أو تأملات (Meditations) وعلى هذا، فإنه يفضل تجنب إطلاق قواعد وضعت سريعاً صعب التأقلم معها وتطبيقها عند الترجمة.

في حين أن الصلاة عبادة عامة، فإن الدعاء عبادة خاصة بين العبد وربه، فهي تؤدّى في أي وقت وأي مكان وفقاً لاحتياجات الفرد ورغباته. إضافة إلى ذلك، فإن الوضوء ليس شرطاً قبل الدعاء وبالمثل، لا تمنع النساء من الدعاء أثناء فترة الحيض. هذا النوع من العبادات ليس بالضرورة أن يؤدّى باللغة العربية كما هو الحال بالنسبة إلى الصلاة.

لا يوصي القرآن بشكل خاص بالدعاء على الرغم من ظهور أشكال وصيغ للأدعية على مر التاريخ. ولقد نشر الكثير في ما يخص العبادات في العالم الإسلامي، ما يوثق أدعية الأتقياء وأبرزها ابتهالات وتأملات أئمة الشيعة.

ل ـ المكانة الروحية للدعاء

إن الهدف الأساس وراء كل من الصلاة ـ سواء الفرض أم النفل والدعاء ـ هو التواصل مع الله. ولكن المنظور القرآني لتواصل المسلم مع الله من خلال الدعاء له العديد من الجوانب؛ حيث يتضمن إظهار الضعف والتذلل أمام الله القوي العزيز، كما يعني إنزال كل حاجات المرء الداخلية والخارجية لمن لا يحتاج إلى أحد، كما يعني الدعاء أيضاً

الثناء على ﴿الله الصّمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد﴾[٤]. والذي ينبغي عدم الثناء إلا عليه. وكذلك فإن الدعاء يتضمن طلب المعونة من قاضي الحاجات، والتوكل في كل الأحوال والظروف على الله الذي عليه يتوكل المتوكلون، هذا إضافة إلى إظهار العبودية لله الذي لا معبود إلا هو خالق كل شيء والمتفرد بدوام الوجود والأحقية بالعبادة والتصرف في شؤون العباد.

إن الهدف من حياة الإنسان هو تحقيق ذلك التواصل في كل الأوقات مع الله حتى يعرف الإنسان طبيعة مهمته على الأرض كأعظم مخلوقات الله، وحقيقة الهدف من وجوده كخليفة على الأرض. وعلى كل حال، فإن الإنسان ميّال إلى النسيان، ولهذا فرض الله الصلاة خمس مرات، موزعة على اليوم والليلة حتى يستيقظ المسلم من حلم الانغماس في الحياة الدنيوية ويتواصل فيها مع خالقه. ومن هنا، فإن الصلاة تمثل حال من الاستسلام والعبادة والحب التي يجب على المسلم السعي إليها في كل الأوقات وليس عندما يؤذّن المؤذّن فحسب. ويمكننا الآن إدراك لماذا يطلق على الصلاة لقب «معراج المسلم».

٣ ـ صوم رمضان

في الشهر التاسع من السنة القمرية للتقويم الهجري عند المسلمين يأتي شهر رمضان المعظم. وهو شهر فرض الله على جميع

---

(٤) المصدر نفسه، «سورة الإخلاص،» الآيات ٢ ـ ٤.

المسلمين صيامه؛ فشهر رمضان هو شهر «الصوم»، وهو ثالث أركان الإسلام الخمسة. حيث تتغير فيه حياة المسلمين اليومية ويلتزمون بنظام محدد خلال الشهر لا يؤثر في حياتهم خلال شهر رمضان فحسب، ولكن له العديد من المميزات والتأثيرات والفوائد للعقل والجسد والروح على مدى العام بأكمله.

أ ـ القرآن والصوم

القليل من الديانات هي التي تجد فيها الصيام غير واجب أو على الأقل مستحباً؛ فنجد في الديانة اليهودية، على سبيل المثال، صيام «يوم كيبور»؛ وفي الديانة المسيحية فترة الصوم الكبير وهي فترة تمتد أربعين يوماً قبل عيد الفصح. وقد فرض الله الصيام على المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة من خلال مجموعة من الآيات القرآنية التي يأمر الله فيها المؤمنين بصيام شهر رمضان. وتشير الآيات صراحة إلى أن الصيام كان معروفاً لدى عرب الصحراء ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون**﴾[٥].

وكعهد الإسلام الذي يصر على تماشي المبادئ الروحية والتطبيقية في الإسلام مع الديانات السماوية السابقة؛ فإن القرآن في المرة الوحيدة التي يشير فيها إلى منسك الصيام من خلال سورة من السور المكية ـ التي نزلت قبل الهجرة إلى المدينة وبالتالي قبل فرض

(٥) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ١٨٣.

الصيام على المسلمين ـ يحكي لنا عن قصة مريم ابنة عمران وتذرعها بالصيام حتى لا تكلم أحداً من الإنس ﴿**فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾(٦).

ومن الملاحظ أن القرآن لا يركز في تقديمه لفريضة الصيام للمجتمع الإسلامي الجديد، على عادات الديانات السابقة في الصيام بالتفصيل، ولكن يشير إليها مجرد الإشارة فحسب، ليدل على استمرارية مفهوم الصيام العام مع ترك التفاصيل التي تتعلق بعدد الأيام الواجب صيامها وكيفية ووقت الصيام لتشرحها السُنّة النبوية وبعض الآيات القرآنية الأخرى.

في الحقيقة، إن الإجمال القرآني الذي يليه التفصيل في السُنّة النبوية لما أجملته آيات القرآن، يعتبر عادة في شرح معظم العبادات والمناسك كالحج على سبيل المثال. حيث يتحدث القرآن الكريم على نحو يخلو من التفصيل عن الموضوعات التطبيقية المتضمنة في الصيام وعن الأمور الروحانية، مستنداً إلى علم المستمع المسبق بمفهوم الصيام الذي لم يكن غريباً على أهل الديانات السابقة. وكذلك، فإن العرب قد عرفوا مفهوم الصيام وإن لم يمارسوه من خلال اختلاطهم بأهل الكتاب حيث كانت قبائل العرب تعيش جنباً إلى جنب مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى عالمين بعاداتهم ومناسكهم.

---

(٦) المصدر نفسه، «سورة مريم»، الآية ٢٦.

تقتصر الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع صيام رمضان على ثلاث أو أربع آيات فحسب في الجزء الثاني من القرآن في «سورة البقرة» والتي نزلت معظم آياتها في المدينة المنورة بعد الهجرة ﴿**أيّاماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيّام أخر وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوّع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾[7].

وبعد تأكيد الآيات القرآنية أن الصيام يجب أن يؤدّى في «أيامٍ معدودات» معينة، ثم تقدم الآيات بعض الطرق التي يمكن لمن فوّت الصيام أن يعوّضها عن صيام الأيام التي فوتها، تبين الآيات بعد ذلك أن على المسلمين الصيام في الشهر التاسع من السنة الهجرية وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن: ﴿**شهر رمضان الّذي أنزل فيه القرآن هدىً للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشّهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّة من أيّام أخر يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدّة ولتكبّروا اللّه على ما هداكم ولعلّكم تشكرون**﴾[8].

ويحرم خلال نهار رمضان الأكل والشرب إضافة إلى الجماع. ولكن مع حلول المغرب تعود حياة المسلم الصائم إلى سابق عهدها قبل رمضان، فيحل له الأكل والشرب ومجامعة زوجته حتى بزوغ الفجر.

---

(٧) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ١٨٤.

(٨) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ١٨٥.

ب ـ الرخص والاستثناءات

يوضح القرآن الكريم أن فريضة الصيام تقتصر على الأشخاص القادرين ـ جسدياً ـ فحسب على تحمل المشقة التي يتضمنها ذلك المنسك؛ فعلى سبيل المثال، لا يجب على أصحاب الأمراض المزمنة التي لا يرجى منها الشفاء أو المرضى الذين أوصى لهم الطبيب المسلم العالم بعدم الصيام، لا يجب عليهم الصيام بل عليهم فقط إخراج الكفارة وإطعام مسكين عن كل يوم لم يصوموه. ومن الناحية الأخرى، فإن المريض بمرض موقت يجب عليه قضاء الأيام التي لم يستطع صيامها بعد الشفاء من المرض. كذلك، على المرأة الحائض أن تفطر خلال رمضان في فترة الحيض، وعليها تعويض الأيام التي أفطرتها بصيام عدد الأيام نفسها بعد انتهاء شهر رمضان.

ج ـ صيام رمضان من حيث التطبيق

على الرغم من الفروق الحضارية، فإن رمضان يجمع العالم الإسلامي من خلال المشاركة الجماعية في تجربة الصيام موحداً أفراد العالم الإسلامي جميعاً ـ على الأقل من الناحية النظرية ـ تجاه هدف روحي واحد. وفي الواقع، يؤثر شهر الصيام بالفعل في كل من يعيش في المجتمع الإسلامي؛ حيث يساهم الصيام في تشكيل الجو العام وتنظيم شكل الحياة في العائلة وفي الحياة الاجتماعية بصفة عامة أيضاً على مدار الثلاثين يوماً من كل عام. ولا يعتبر الصيام في العديد من المجتمعات الإسلامية واجباً دينياً فحسب، بل حدثاً اجتماعياً وثقافياً

أيضاً. وإن الكثير من المسلمين بالاسم ـ الذين لا يعيشون على نهج الإسلام طوال السنة ـ عادة ما يصومون في رمضان حتى وإن لم يكونوا ملتزمين بتأدية باقي الأركان. ويتفق المسلمون بصفة عامة على أن هناك تأثيراً خاصاً في شهر رمضان يحيي قول من ماتت قلوبهم طوال العام ومن يمثل الدين بالنسبة إليهم التزاماً ثقافياً لا اتجاهاً روحياً قائماً على الاختيار الحر.

في الماضي غير البعيد، كان شكل الحياة مختلفاً خلال شهر رمضان في العالم الإسلامي، حيث كان نظام الحياة يصير بطيئاً، وتقفل معظم المحلات التجارية أبوابها ولا تفتح خلال اليوم إلا لساعات قلائل، ويبتعد كل من له علاقة بالتراجع الاقتصادي عن الساحة. بل إن المطاعم كانت تغلق أبوابها وتغطي النوافذ بأوراق الجرائد حتى تحجب عن المارة من الصائمين منظر الطعام الذي يجهز لإعداد وجبة الإفطار. أما اليوم، فعلى الرغم من أن نظام الحياة خلال شهر رمضان في بلاد العالم الإسلامي لا يزال يتصف بالبطء، إلا أن المدن الحديثة تحاول الاندماج في تيار الحياة اليومية العام مع تقليل التراجع في مجال التجارة والأعمال قدر الإمكان؛ حيث يعتبران من المفاتيح المهمة لمكانة الدولة الإسلامية في الاقتصاد العالمي.

ولا يسعنا وصف يوم في حياة المسلم الصائم حيث يختلف شكل اليوم في رمضان من بلد إلى آخر ـ على الأقل في التفاصيل ـ يبدأ الصيام في شهر رمضان من أذان الفجر وينتهي عند أذان المغرب. وبصفةٍ عامة، يستيقظ المسلمون قبل طلوع الفجر، بساعة ليتناولوا

وجبة السحور، ثم يقومون بالدعاء أو صلاة التهجد وقيام الليل حتى يؤذّن المؤذّن لصلاة الفجر، معلناً بدء صيام اليوم الجديد، وفيه تحرم كل مبطلات الصوم من أكل وشرب وجماع حتى يحين أذان المغرب.

وبما أن رمضان يعتبر شهراً من شهور السنة الهجرية القمرية التي تتكون من ٣٥٥ يوماً فقط، فإن ميعاد حلول رمضان يختلف من سنة إلى أخرى فهو يتقدم نحو عشرة أو إحدى عشر يوماً كل عام تقريباً. وهذا يعني أيضاً أن شهر رمضان قد يأتي في أي فصل من فصول السنة، وقد يستغرق الشهر الكريم حوالى ٣٣ عاماً ليدور دورة كاملة على الفصول الأربعة للسنة. ويرى البعض حقيقة احتمال دوران الشهر المعظم على فصول السنة كلها كدليل على حكمة الله في خلقه. ويختلف المسلمون في الرأي حول ما إذا كان الصيام في الصيف أصعب من الصيام في الشتاء أم العكس حتى في المناطق الجغرافية التي تشهد فروقاً كبيرة في درجات الحرارة بين الصيف والشتاء؛ فعلى سبيل المثال، من الصعب في إنكلترا تحديد هل الأصعب الصيام في الصيف الذي يكون النهار فيه طويلاً جداً بحيث قد يصل طول ساعات النهار إلى ٢٠ ساعة في بعض المناطق، أم الأصعب الصيام في الشتاء حيث الأيام الأقصر ولكن الأشد برودة؛ ففي الصيف يواجه المسلمون مشكلة العطش لمدة طويلة، بينما يواجه المسلمون في الشتاء مشكلة الحاجة إلى وجبات ساخنة تساعدهم على التدفئة من البرد القاسي. وفي بعض المناطق، لا يوجد بالفعل ضياء خلال ساعات النهار ولا ظلام في الليل بحيث يصعب تحديد مواعيد

بداية وانتهاء الصيام. وفي مثل هذه الحالات، يجب على المسلمين في تلك المناطق الالتزام بمواقيت مكة المكرمة في الصيام والإفطار، أو الالتزام بمواقيت أقرب مدينة أو بلدة كبيرة يمكن فيها الصيام.

خلال النهار، يذهب المسلمون إلى أعمالهم بطريقة طبيعية. وقد يبدو أن الصيام في بلد يفعل فيه الجميع الشيء نفسه، ويشتركون في الصيام أسهل، حيث يشترك الجميع في هدف واحد. ويواجه بعض المسلمين المقيمين في الخارج بعض الصعوبات خلال شهر رمضان، وبخاصة إذا كان الأشخاص الذين يدرسون معهم أو يعملون معهم لا خلفية لديهم بالظروف المحيطة بالصيام. وتحتوي معظم المدن الكبيرة في البلاد الغربية على المساجد والتجمعات الإسلامية والتي تنشط بشكل ملحوظ خلال شهر رمضان عن الشهور الأخرى، والسبب وراء ذلك يكمن في الاستجابة لمتطلبات المسلمين المقيمين في الخارج والذين يحتاجون في مثل هذا الشهر إلى الدعم الجماعي. حيث تنظم العديد من هذه المساجد والتجمعات والمراكز الإسلامية وجبات إفطار جماعية خلال شهر رمضان وتعطي للمسلمين الفرصة للإفطار معاً.

يعتبر أذان المغرب الذي يرفع بعد غروب الشمس مباشرةً علامة على انتهاء الصيام في ذلك اليوم. وغالباً ما يفطر المسلمون على شيءٍ خفيف من الطعام كاللبن أو التمر، ثم يؤجلون تناول وجبة الإفطار كاملة إلى ما بعد الانتهاء من صلاة المغرب، حيث يأكلونها غالباً في جماعة من الأصدقاء أو الأقارب. أما في الدول الإسلامية،

فيعتبر الإفطار مناسبة سعيدة حيث تكتظ الشوارع بعد صلاة المغرب بالناس. يخرج البعض منهم لتناول الإفطار في أحد المطاعم أو عند أحد الأقارب، أما البعض الآخر فيستمتع بالروح الجميلة الاحتفالية التي يضفيها الشهر الكريم على الشوارع والأحياء. وللأسف، فإن البعض ينسى أن الحكمة من صيام شهر رمضان تكمن في التدرب على ضبط النفس، فينغمس في الإفراط في الأكل حتى إنه ينفق أحياناً في هذا الشهر أكثر مما ينفق في الظروف العادية. وعلى كل حال، فإن معظم المسلمين يأكلون بشكل معتدل في وجبة الإفطار. وفي الواقع، من الصعب أن يفرط الإنسان في الطعام ـ أو حتى أن يأكل أصلاً ـ بعد يوم طويل من الصيام.

وكما ذكرنا من قبل فإن صلاة الجماعة من الأمور المفروضة على الرجال والمستحبة للنساء بصفة عامة في الإسلام. ويُقبل المسلمون على الصلاة في جماعة بشكل ملحوظ في رمضان بصفة عامة وبخاصة في صلاة «التراويح»، التي تؤدّى خلال شهر رمضان في المساجد وفي المنازل بعد صلاة العشاء. وللعشر الأواخر من رمضان فضل كبير عن باقي الشهر وباقي أيام السنة عموماً. حيث شهدت العشر الأواخر من رمضان نزول القرآن على الرسول [ﷺ]. وفي هذه الليالي العشر، يتوافد المسلمون على المساجد كلما استطاعوا، بل إن الكثير منهم يتفرغون للاعتكاف في المساجد خلال هذه الفترة بغرض الصلاة والتدبر والحصول على ثواب الاعتكاف.

ويعتبر ظهور هلال الشهر الهجري الجديد في آخر رمضان علامة على انتهاء الصيام وحلول «عيد الفطر» المبارك. وفي العيد، يجتمع الأهل والأصدقاء ليحتفلوا بالعيد ويخرجوا إلى صلاة العيد في الساحات صلاة جماعية، وخلال أيام العيد يحتفل المسلمون بإعداد الولائم وتبادل الزيارات والهدايا. وفي نهاية شهر رمضان وقبل حلول العيد يفرض على المسلمين جميعاً ـ الصغير والكبير والذكر والأنثى ـ إخراج زكاة الفطرة إلى الفقراء والمحتاجين.

د ـ ما فات من أيام الصيام

يتوجب على من أصيب بالمرض أثناء الصيام أن يفطر حتى يشفى منه، ثم يُمكنه استكمال صيام باقي أيام الشهر عند شفائه، ويتوجب عليه في هذه الحال بعد انتهاء شهر رمضان أن يعوّض ما فاته من صيام الأيام التي أفطر فيها.

أما بالنسبة إلى السفر خلال الصيام، فليس هناك إجماع للرأي بشأنه؛ فبعض الفقهاء يجيز للمسافر ـ كما هو الحال بالنسبة إلى جمع الصلوات عند السفر للتخفيف من مشقته ـ الإفطار أثناء السفر لما قد يترتب على اجتماع السفر والصيام من صعوبة أو مشقة؛ فالإسلام، في كل الأحوال، يتعارض مع فرض الصعوبة أو المشقة من أجل المشقة فحسب. ومن هنا، ففي معظم الأحيان يترك الأمر للفرد نفسه في ما يخص الصيام أثناء السفر.

في حين أن الصوم ليس إجباراً، فمن يفطر عمداً يجد في الفقه الإسلامي أن عليه كفّارة لا تنازل عنها. فعن كل يوم يفطر فيه المسلم عمداً، عليه صيام ستين يوماً متتاليات بعد انتهاء شهر رمضان، أو عليه إطعام عدد من المساكين لعدد من الأيام وفقاً لما جاء من تعاليم المدرسة الفقهية التي يتبع لها. وأود أن أذكر ثانية أن الالتزام بهذه التعاليم ليست فرضاً على أحد، بل الأمر ينبع دائماً من إيمان الشخص وضميره الفردي.

هـ ـ الصيام في غير شهر رمضان (صيام التطوع)

يعتبر الصيام من العبادات المستحبة في الإسلام في أي وقت، وهناك العديد من الأيام على مدار السنة التي رغب في صومها الرسول [ﷺ] بخلاف صيام شهر رمضان المعظم؛ فالصيام وسيلة لتطهير النفس واتباعها للصراط المستقيم لما له من تأثير في محاربة الشهوات والرغبات البشرية. ومن هنا، فإن الصيام يعتبر أيضاً من أفضل وسائل التكفير عن الذنوب وتقوية البصيرة والإيمان بالله. تعتبر بعض الأيام ميمونة للصيام أكثر من باقي الأيام: الأيام الثلاثة الوسطى من كل شهر عربي ـ يوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر العربي ـ وصيام الستة من شوال، وصيام اليوم العاشر من ذي الحجة، وصيام اليوم العاشر من شهر محرم، الذي اعتبره النبي محمد مهماً للصيام، وقد حثت السُنّة النبوية على صيام العديد من الأيام المحددة خلال السنة الهجرية، وبيّنت فضل صيامها؛ وفي

الواقع، اليوم الوحيد الذي يُمنع الصيام فيه، بحسب السنة النبوية هو يوم عيد الفطر.

و ـ الأهمية الروحية للصيام

من المؤكد أن للصيام العديد من الفوائد الجسدية الملموسة على الشخص الصائم. وعلى كل حال، فإن الهدف من الصيام ليس تحصيل الفائدة الجسدية ـ على الرغم من أنها تعتبر ميزة إضافية ـ ولكن الفائدة الروحية بتحقيق التقوى وتعزيز الإيمان بالله ومحبته والعبودية له.

٤ ـ الإنفاق في سبيل اللّه

﴿مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة واللّه يضاعف لمن يشاء واللّه واسع عليم﴾(٩).

يصف العديد من الكتّاب الغربيين الركن الرابع من «أركان الإسلام» بكلمات عدة: فتارةً يسمونه «الإحسان»، وتارةً «الصدقة»، وتارةً يطلقون عليه اسم «الضرائب الإسلامية». وعلى كل حال، فإن كل تلك المسميات لا تستطيع وصف قلب الركن الرابع من أركان الإسلام الذي يُعتبر أفضل تصنيف له هو كلمة «الإنفاق في سبيل الله». حيث تغطي كلمة «الإنفاق» معنى التبرع بالمال للفقراء، ولكن تتضمن أيضاً بذل النفس والوقت والعلم والجهد

(٩) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٦١.

والتفكير في سبيل الله. إن وسائل الإنفاق في سبيل الله بصفة عامة متعددة وكثيرة، بما في ذلك تكريس حياة المرء في خدمة قضية معينة، كما هو الحال مع الرسل والأنبياء.

وقد يسهل علينا فهم مبدأ الإنفاق في سبيل الله، إذا أوضحنا في المقام الأول النظرة القرآنية إلى الممتلكات الشخصية والثروات؛ فعلى الرغم من محاولات بعض المفكرين السياسيين في الخمسينيات والستينيات وصف القرآن على أنه مخطط للمدينة الفاضلة الاشتراكية، فإن القرآن لا يعارض فكرة الملكية الشخصية والحث على تحقيق الربح، بل وجمع الثروات، إلا أن القرآن يركز على وجوب صلاح نية المسلم وأن الممتلكات والأموال ليستا سوى وسائل تستخدم باسم الله وفي سبيله؛ فبالنسبة إلى القرآن، إن ممتلكات الإنسان، بما فيها نفسه، ليست إلاّ قرضاً عليه استخدامه بحكمة وبتوجيه من الله قدر الإمكان. فالإنفاق في سبيل اللّه من ثروة الإنسان وممتلكاته، تعني أن تعيد لله ما كان له في الأصل، والذي منحه إياه كجزء من الأمانة المقدسة للوجود الدنيوي.

وعلى هذا فإن هذه العبادة ما هي إلا وسيلة ليدرك بها الإنسان أنه مدين دوماً لله وأنه مسؤول عن أخيه الإنسان؛ فهي في الأساس عبادة روحانية لتذكر الإنسان أنه لا يملك شيئاً سواء نفسه أم ما يعتقد أنه يملكه، وأن كل ما لديه ليس إلا قرضاً أقرضه له الله مالك الملك الحقيقي. ويرى المسلم أن هذه التضحيات ما هي إلا أمور في مصلحته وأنه سيجني خيرها في الحياة الآخرة.

أ ـ أشكال الإنفاق الثلاثة في سبيل الله

اتخذ الإنفاق في سبيل الله أشكالاً ثلاثة منذ أول الأمر: الصدقات والزكاة والخمس. أما الصدقات، فهي الإنفاق في سبيل الله تطوعاً دون الفرض، وأما الزكاة والخمس، فيوجبهما القرآن على المسلمين كافة.

(١) **الصدقات**؛ يعد مصطلح «الصدقات» والذي يترجم عادة في اللغة الإنكليزية إلى كلمة (Alms) وصفاً للإنفاق في سبيل الله بمعناه الأشمل، بحيث يتضمن الفرض والتطوع على حد سواء ﴿**إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل اللّه وابن السّبيل فريضة من اللّه واللّه عليم حكيم**﴾[١٠].

إلا أن الاستخدام الحالي للصدقات بين المسلمين يشير إلى ما ينفق في سبيل الله طوعاً. ومن هنا، فإن الإسلام يحث المسلمين على الإنفاق قدر الاستطاعة في سبيل الله وبخاصة على المحتاجين من الفقراء والمساكين؛ فإخراج الصدقات في حد ذاته لأمر مستحب ومن الأعمال الصالحة من الناحية العملية. وعلى كل حال، ينبغي علينا عدم الاستخفاف بقدر الحكمة والأهمية الروحية في الإنفاق طوعاً. فإن إخراج الصدقات بشكل دوري بالنسبة إلى المسلم وسيلة يسعى بها إلى نيل مرضاة الله والابتعاد عن غضبه.

---

(١٠) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٦٠.

(٢) الزكاة؛ أما كلمة الزكاة فهي الشكل الثاني للإنفاق في سبيل الله الذي أوجبه الله في قرآنه على المسلم البالغ الذي لديه ما يكفيه من المال للتصرف. وعلى الرغم من الفروق الضئيلة بحسب المدرسة الفقهية التي يتبعها المرء، فالزكاة هي إخراج ٢,٥ في المئة من صافي ملكية الفرد لبيت المال، وهو خزانة المجتمع. وتأتي كلمة زكاة من الفعل العربي تزكّى والذي يعني تطهّر. وبهذا فإن الزكاة وسيلة يتمكن من خلالها المسلم إلى حد ما تطهير أمواله وممتلكاته عن طريق إخراج جزء بسيط من ماله لله وفي سبيله. وأكد القرآن أن من أكثر عباده المتقين ﴿**الّذي يؤتي ماله يتزكّى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى**﴾[١١].

إن إنفاق المال في سبيل الله ليس من شأنه تطهير المال فحسب، بل النفس أيضاً، شريطة صلاح النية في إخراجها في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وليس طمعاً في الشهرة وجذب الانتباه عند العطاء على الملأ؛ فعند إيتاء الزكاة، أي البذل من النفس والمال، يجد المرء نفسه ينكر هذا الإحساس الزائف بالملكية ويقر أنه كله لمالك الملك وحده.

ـ الأهمية الاجتماعية للزكاة؛ إن تلك الممارسة وما تنطوي عليها من تزكية روحية، هي الهدف الأساس من الزكاة، لكنها ليست الهدف الوحيد. حيث يعتبر كثيرون هذا الركن من أركان الإسلام كحجر أساس للعدالة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي. ومن هنا جاءت الترجمة الخاطئة للزكاة على أنها جباية دينية؛ فالزكاة تستحق

(١١) المصدر نفسه، «سورة الليل،» الآيتان ١٨ ـ ١٩.

في المقام الأول للمحتاجين؛ ومن هنا، فإنها وسيلة للحد من مشكلة الفقر إذا لم تكن وسيلة للقضاء عليه تماماً؛ ففي الأصل كانت أموال الزكاة تستخدم لنشر العقيدة من خلال إعتاق العبيد أو سداد ديون الغارمين أو مساعدة المسافرين المحتاجين. إضافة إلى العديد من الاستخدامات الأخرى للزكاة التي حددها الفقهاء. ومن هنا، لا يستطيع أحد إغفال الدور المهم الذي تؤديه الزكاة في النظام الاقتصادي والتكافل الاجتماعي في أي مجتمع إسلامي. وتخرج الزكاة على ما يلي من أموال وفقاً للشريعة الإسلامية: الذهب والفضة والماشية الحية والإنتاج الزراعي والأسهم والأموال وأي أصول سائلة أخرى. إلا أن الزكاة ليست واجبة إلا على من يحقق صافي ربح مع آخر العام.

(٣) **الخُمس**؛ إن كلمة الخُمس تعني واحد/خمس وهي الضريبة التي تفرض على غنائم الحرب وتعادل ٢٠ في المئة، وهي تدفع من المسلمين لمحمد [ﷺ] وذوي القربى. وبعد وفاة محمد [ﷺ]، اعتقد الكثير بنهاية هذه الضريبة. إلا أن الفقهاء في ما بعد وبالأخص من الشيعة، فسروا الخُمس على أنه ضريبة تفرض على مختلف أشكال الربح؛ وما زال الخُمس له أهميته المالية لدى الشيعة، وبخاصة أنها تذهب لرجال الدين من الشيعة وهم القائمون التقليديون على إدارة هذه الضريبة والتي تعد مصدراً مهماً للدخل.

وتفرض هذه الجباية على ما يلي:

ـ الفائض من الدخل.

ـ المال والممتلكات المشروعة الممزوجة بما هو غير مشروع من أموال.

ـ الثروات الناجمة عن المناجم.

ـ ما وجد من كنوز.

ـ ما نتج من الغوص في البحار من ثروات.

ـ غنائم الجهاد.

ـ ما تم الحصول عليه من أراضٍ لغير المسلمين.

واليوم، يفرض الخُمس على العديد من الإيرادات ومنها الدخل الناتج من التجارة والصناعة والزراعة وصافي حقوق الملكية من الأعمال التجارية والأجور والمدخرات وكل ما لا يستخدم من ملابس أو مال أو سلع رفاهية. ويحسب الخمس فقط بعد إيفاء المرء لمختلف احتياجاته، وخصم النفقات سواء الشخصية أم الخاصة بالأعمال التجارية أو كليهما معاً. وكذلك تخصم الهدايا وجوائز اليانصيب ومال الوصايا. وكما ذكرنا آنفاً، إن للخمس أهمية لدى الشيعة تفوق أهمية الزكاة من حيث اهتمام الفقهاء والعامة على حد سواء، وذلك على الرغم من أن الاثنين يتماثلان إلى حد كبير من حيث الهدف الروحاني لهما، ألا وهو تطهير المال والممتلكات وبالتالي تطهير النفس وتزكيتها.

٥ ـ الحج

تتضمن فريضة الحج كل من مشاعر **الرغبة** والإيمان: الرغبة في حل كل أنواع المشاكل التي تحيط بالإنسان، و**الإيمان** أن هناك قوة في

ما وراء العالم المادي المعروف تستطيع حل كل الأزمات والصعوبات التي قد يبدو حلها مستحيلاً في التو واللحظة. وللحصول على ذلك، كل ما على المرء فعله هو القيام برحلة الحج[١٢].

تعتبر فكرة «الرحلة المقدسة» فكرة عالمية ومعروفة: حيث تشترك كل الديانات السماوية في مفهوم الحج: ارتحال الشخص من مكان إلى آخر على وجه الأرض في سبيل الله. وتختلف الأماكن المقدسة التي يحج إليها الأشخاص وكيفية الحج من ديانة إلى أخرى، سواء بالمعنى المجازي أم الحرفي للكلمة. ومن هنا، فإن كل من الأماكن المقدسة لأي من الديانات السماوية تستقبل حجاجها وتحتوي بما في ذلك على الشعائر الدينية المناسبة لحياة ومعتقدات ورغبات من ينتمون لهذه الديانة. ولا تزال شعيرة الحج مستمرة اليوم مثلما كانت منذ العصور الوسطى، بل إنها تعتبر من أكبر التجمعات البشرية على وجه الأرض. ويجمع الحج السنوي إلى مكة ـ والركن الخامس من أركان الإسلام ـ حوالى مليوني مسلم من كل أنحاء العالم.

أ ـ تعريف الحج

على الرغم من تعريف الحج ببساطة في معظم الأوقات على أنه «حج بيت الله الحرام»، فإن الحج يتضمن مجموعة من الشعائر

---

(١٢) انظر: *Sacred Journeys: The Anthropology of Pilgrimage* (conference), edited by Alan Morinis, foreword by Victor Turner, Contributions to the Study of Anthropology; no. 7 (Westport, CT: Greenwood Press, 1992), p. 1.

الدينية المعقدة إلى حدٍ ما، والتي يجب أن تؤدى في أوقات محددة وفي أماكن محددة داخل مكة المكرمة وحولها. ويعتبر الحج فرضاً على كل مسلم بالغ عاقل حر يستطيع سداد نفقات الحج وتحمل مشقة الرحلة. ويقوم الحاج بتأدية مناسك الحج خلال الأيام الأولى من شهر ذي الحجة وهو الشهر الثاني عشر والأخير من شهور السنة الهجرية القمرية. أما العمرة فليست فرضاً ولكنها سنّة مستحبة، ويمكن القيام بها في أي وقت من أوقات العام. ومثلها مثل صلاة النوافل والصدقات، إذ إن العمرة تعتبر من الأعمال الصالحة التطوعية الزائدة عن الفروض.

ب ـ مكة قبل الإسلام والحج

من المعروف أن مكة طالما اعتبرت مدينة مقدسة حتى قبل ظهور الإسلام ونزول القرآن وبعثة الرسول [ﷺ].

وفي وسط مكة، يوجد أكثر البيوت قدسية وأعلاها مكانةً عند المسلمين، إنه البيت الحرام ـ الكعبة المشرفة. يبلغ طول بناء الكعبة ١٢ متراً، وعرضها ١٠ أمتار وارتفاعها ١٥ متراً، وهي تتوسط الحرم المكي وتغطى بكسوة سميكة من أجود الأقمشة. بنيت الكعبة بحيث تواجه الأركان الأربعة لها الاتجاهات الأساسية للبوصلة. وفي الركن الشرقي من الكعبة، يوجد الحجر الأسود وهو حجر من أحجار الجنة. وقد غلف الحجر الأسود في العصر الحديث بغلاف من الفضة لحمايته، ويسعى الحجاج إلى تقبيل الحجر الأسود أثناء طوافهم حول

الكعبة، كأحد مناسك الحج. وفي الحرم المكي، تقع أيضاً بئر زمزم ومقام إبراهيم [عليه السلام].

والعلاقة بين إبراهيم [عليه السلام] ومكة المكرمة، علاقة مهمة للغاية؛ إذ كان إبراهيم [عليه السلام] هو من بنى الكعبة برفقة ابنه إسماعيل. وتحكي آيات القرآن الكريم كيف أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيت الله الحرام (وهو مسمى آخر للكعبة) للعباد والعاكفين؛ فالكعبة هي المكان المقدس وملاذ البشرية بأكملها، إضافة إلى أن مقام إبراهيم [عليه السلام] ـ الحجر الذي يظهر عليه أثر قدم إبراهيم [عليه السلام] ـ مكان الصلاة والدعاء.

يؤكد القرآن الكريم والأحاديث النبوية أن إبراهيم [عليه السلام] كان أول من أدى مناسك الحج، ولكن مع تقدم السنوات وتحريف الأديان، فإن مناسك الحج نُسيت وطُمِس الكثير منها، مع بقاء بعض الشعائر كجزء من طريقة الحج الأساسية التي اختلفت تماماً في ما بعد، حيث كان العرب في مكة قبل الإسلام يحجون بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة الأصلية، مع الاحتفاظ ببعض الشعائر البسيطة منها.

وتشترك الكلمة العربية الحج (hajj) في جذورها مع الكلمة العبرية حج (hag) والتي تعني دار. ومن الأمثلة على الحج اليهودي ما يتم في عيد المظلة (سوكوت) من دوران سبع مرات حول أحد الأضرحة.

جمع المشركون قبل الإسلام بعض المناسك الأصلية من الحج مع بعض التصرفات الشركية الخاصة بهم في حجهم إلى البيت الحرام قبل ظهور الإسلام. وكانت الكعبة البيت الحرام والحجر الأسود المعظم يجذبون الآلاف من العباد والحجاج من كل أنحاء الجزيرة العربية.

في مكة قبل الإسلام، كانت الكعبة محاطة بحوالى ٣٦٠ صنماً مصنوعاً من الخشب أو الحديد، تمثل على الأرجح أيام السنة الشمسية. وكانت هذه الأصنام تسمى بأسماء بعض الآلهة مثل إله الخصوبة، أو إله الرعد... وما إلى ذلك. ويرجع أصل هذه الأصنام إلى مجموعة من الأشخاص الصالحين الذين عاشوا في وقت ما في التاريخ في هذه المنطقة مثل العزى واللاة والمناة وغيرهم، حيث أجلّهم الناس واحترموهم وأقاموا لهم تماثيل عرفاناً بفضلهم، ثم تحول هذا الاحترام إلى تبجيل، ثم إلى عبادة على مر السنوات. وكان المشركون في مكة يعبدون هذه الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى.

ج ـ القرآن الكريم والحج

تركز السور المكية على المفهوم العام للحج، بينما تتولى السور المدنية شرح الجوانب التطبيقية وتفاصيل المناسك الخاصة بشعيرة الحج؛ حيث أصبح مفهوم الحج الصحيح يرتبط بالإسلام كلياً. وقرابة نهاية حياة الرسول [ﷺ] أصبح الحج أسهل بالنسبة إلى جميع المسلمين. وكشأن أركان الإسلام كلها، فإن القرآن الكريم لا يتحدث عن التفاصيل الدقيقة؛ لذلك، فإن علينا تصفح السنّة النبوية لمعرفة مناسك الحج كما تؤدى اليوم.

د ـ مناسك الحج

تؤدى مناسك الحج على مدار فترة لا تتجاوز الأسبوعين في بداية شهر ذو الحجة، وهو الشهر الثاني عشر والأخير من شهور السنة الهجرية القمرية.

في اليوم السابع من شهر ذي الحجة يقوم الحاج بالإحرام، وهو نية الحج أو العمرة أو نيتهما معاً، ثم الاغتسال ولبس الإحرام قبل دخول مكة وتأدية مناسك الحج. ويتكون إحرام الرجل الحاج من قطعتين بسيطتين من القماش الأبيض غير المخيط، ويسميان الإزار والرداء، حيث يلف الإزار على وسطه ولا يتعدى طوله الكعبين، بينما يضع الرداء على كتفه ولا يصح أن يغطي الحاج رأسه بغطاء الرأس. أما بالنسبة إلى المرأة، فليس هناك زي معين للإحرام طالما التزمت المرأة بالحجاب الشرعي بتغطية سائر الجسد ما عدا الوجه والكفين، بل إن ارتداء النقاب ليس مسموحاً به في الحرم المكي.

إن الإحرام لا يقتصر على ارتداء الملابس المناسبة فحسب، فللإحرام آداب يجب مراعاتها وأهمها الاغتسال، ما يعني بالنسبة إلى الرجال قص الشعر وحلق الذقن وإزالة شعر الجسم. وعلى المحرم سواء كان رجلاً أم امرأة، أن يغتسل بالماء فقط من دون الصابون، ولا يجوز له التطيب بعد الإحرام، كما لا يجوز له تصفيف شعر اللحية. كذلك لا يجوز للمحرم ارتداء المخيط من الخف وما شابه ذلك. إضافة إلى ما سبق، يحرم على الإنسان المحرم أثناء الحج الجماع ودواعيه من الأمور التي قد تقود إلى إثارة الشهوات الجنسية. وكذلك الصيد

حيث يجب على المحرم تجنب قتل أي مخلوق حي مهما كان صغيراً أو غير مهم، ولا يحل له أيضاً إفساد النباتات بالقطع أو الانتزاع.

وفي صبيحة اليوم الثامن من ذي الحجة، تبدأ مناسك الحج بعد صلاة الفجر مباشرةً؛ فيدخل المسلم المحرم البيت الحرام ليقوم بطواف القدوم: ويتكون من الطواف حول الكعبة سبعة أشواط بعكس اتجاه عقارب الساعة بحيث تكون الكعبة على يساره، ويبدأ الحاج من الركن اليماني محاذياً الحجر الأسود مقبلاً له أو متسلماً له أو مشيراً إليه كيفما أمكنه. وغالباً ما يكون عدد الحجاج كبيراً جداً في موسم الحج من كل عام، لذلك فإن الوصول إلى الكعبة وتقبيل الحجر الأسود قد يكون صعباً في كثير من الأوقات، وبالتالي على الحاج أن يرضى في أغلب الوقت بالطواف حول الكعبة من بعيد. وكثيراً ما يقص لنا الحجاج العائدون من البيت الحرام كيف كانوا يحملون من فوق الأرض من شدة الزحام ويطوفون حول الكعبة حتى من دون أن تطأ أرجلهم الأرض من تحتهم بقوة الدفع فحسب. إن طواف الكعبة يراه البعض تجسيداً لمركزية الخالق وقدرته واعتماد خلقه عليه، كما تبين الصور الفوتوغرافية التي تلتقط للطواف، الطائفين بالكعبة كحلقات متتالية مثل الدوائر التي تحيط بكوكب زحل أو مجموعة من الجسيمات المكونة للذرات المتجمعة في حلقات حول نواة الذرة. إن دخول المسجد الحرام والاندماج وسط الطائفين بالبيت، يأخذ الأنفاس، فهو يشبه الغرق ولكن في بحر من الحب الإلهي. وبعد الانتهاء من الطواف يصلي الحجاج ركعتين عند مقام إبراهيم [عليه السلام].

بعد انتهاء الطواف والصلاة عند مقام إبراهيم [عليه السلام] يقوم الحجاج بمنسك السعي الذي يعني المشي السريع وغالباً الهرولة أو الجري بين جبلي الصفا والمروة بالقرب من الكعبة. ويعتبر أداء الحاج لمنسك السعي محاكاةً لمحاولات السيدة هاجر زوجة إبراهيم [عليه السلام] وأم ابنه إسماعيل في العثور على الماء لإبنها الرضيع في ذلك الوادي غير ذي زرع الذي تركهما فيه سيدنا إبراهيم [عليه السلام] بسبب غيرة زوجته سارة. وقد سعت السيدة هاجر بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء لتروي رضيعها حتى أظهر لها اللّه بئر زمزم لإنقاذهم. ولهذا، بعد إتمام السعي يقوم الحجاج بشرب ماء زمزم الذي يتميز بالعديد من الخصائص العلاجية.

وعند ظهر اليوم الثامن من ذي الحجة، ينتقل الحجاج بضعة أميال إلى مكان يسمى «مِنى»، حيث يصلون بها الظهر والعصر جمعاً والمغرب والعشاء جمعاً ثم يبيتون بها لإتمام شروط «الإحرام». ولا يخرج الحجاج من «مِنى» حتى تطلع شمس يوم التاسع من ذي الحجة. وبعد صلاة الفجر في منى وطلوع شمس اليوم التاسع، يتم التوجه إلى عرفات وهي تقع شرق منى بحوالى تسعة أميال، حيث يمكث المسلمون بها للدعاء والابتهال وطلب المغفرة والرحمة. ويبدأ وقت وقفة عرفات من زوال شمس اليوم التاسع حتى طلوع فجر اليوم العاشر. ويكفي الوقوف في أي جزء من هذا الوقت ليلاً أو نهاراً ويستمر الوقوف حتى الليل. وتعتبر وقفة عرفات الركن الأعظم للحج، وفيها يستجيب الله لمن دعا ويعتق الرقاب. ويتذكر الحجاج

الواقفون في عرفات خطبة النبي [ﷺ] في حجة الوداع من فوق جبل عرفة. وكما ذكرنا من قبل، فإن الوقوف في عرفة هو ركن الحج الأعظم، حيث قال الرسول [ﷺ] «الحج عرفة»، ومن دون الوقوف بعرفة لا يصح الحج ولا يتم.

عند غروب الشمس يقوّض الحجاج خيامهم وينتقلون، سيرًا إلى الأقدام، إلى «المزدلفة» وهي وادٍ ضيق خارج مكة، حيث يصلي الحجاج بها المغرب والعشاء جمعاً وقصراً ثم يبيتون في الفلاء يدعون الله ويبتهلون تحت سماء الصحراء الصافية. بعد صلاة الفجر في مزدلفة يرتحل الحجاج إلى وادي منى مرةً أخرى حيث يقومون «برمي الجمار». وفي يوم النحر يرمي الحجاج الجمار وهي حصى صغيرة بعدد معين؛ حيث تمثل هذه الشعيرة رجم كل أسباب الشر والإثم. كما يقصد بها أيضاً التشبة بإبراهيم [عليه السلام] حيث عرض له إبليس في ذلك الموضع ليفتنه بمعصية الله، فأمر الله سيدنا إبراهيم [عليه السلام] أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله.

وبعد رمي الجمار يوم النحر يقوم الحاج بالذبح إقراراً بما قام به إبراهيم [عليه السلام]، ثم يحلق الرجال شعرهم بالكامل، أما النساء فلها أن تأخذ قصاصة من الشعر.

في الأيام التالية، ينتقل الحجاج بين منى ومكة للقيام بطواف الإفاضة، وهو مثل طواف القدوم، ثم يعودون إلى منى فيبيتون فيها حتى إذا زالت يوم الحادي عشر من ذي الحجة رمي الجمرات قبل

الغروب ويكررون ذلك في اليوم الثاني عشر والثالث عشر. وقبل مغادرة مكة يجب أن يطوف الحاج طواف الوداع. ويتحلل الحاج من الإحرام حيث يتم الحج ويعود إلى بلاده.

هـ ـ العمرة

يعتبر الحج فرض على كل مسلم مرة واحدة في الحياة فحسب لـ ﴿**من استطاع إليه سبيلاً**﴾[١٣]. وعلى كل حال، فإن «العمرة» وتعني الزيارة للبيت الحرام في أي وقت من أوقات العام، من الأعمال الصالحة ومن السنن المشرفة. وتتشابه العمرة مع الحج في العديد من المناسك. وقد كان الأعراب قبل الإسلام يأتون الكعبة في فصل الربيع ويقدمون القرابين من الأنعام ويطوفون عراة حول البيت الحرام في طواف مع عقارب الساعة ليحاكوا حركة الشمس. إلا أنه كما اتخذ الحج الصبغة الإسلامية، كان الأمر ذاته بالنسبة إلى العمرة حيث أمر الناس بالطواف عكس عقارب الساعة لقطع تلك الصلة مع طقوس عبدة الشمس هذه وبارتداء الملابس دوماً أثناء الطواف.

و ـ المكانة الروحية للحج

كشأن العديد من الشعائر الدينية الأخرى، يمكننا القول إن الحج يعطي للمرء بقدر ما يعطيه المرء في المقام الأول؛ فالأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى. حيث يؤكد القرآن أن صلاح

---

(١٣) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ٩٧.

الإنسان لا يقدر بعدد الأعمال الصالحة التي قام بها ولكن بصلاح النية والإخلاص والإيمان؛ فعلى سبيل المثال، سيجزى من يصلي للناس بحسب نيته؛ فستكون عاقبة التصرف بهذه الطريقة الجاذبة للانتباه نتيجة مادية خالصة: فليس هناك أي روحانية تتعلق بمثل هذا النوع من التظاهر. وفي الواقع، يتوعد القرآن المنافقين الذين تحرك أعمالهم المصالح الشخصية لا محبة الله والرغبة في طاعته.

ويعتبر الحج مثله في ذلك مثل الصلاة عبادة جماعية ظاهرة، بل إن لقب «الحاج» الذي يحصل عليه من بعد حج البيت، يشير من الوهلة الأولى إلى إتمام أحد أركان الإسلام الأساسية. إن إتمام أحد الأوامر الدينية قد يتسبب في العجب بالذات وحب الظهور ولهذا فقد يكون من الصعب التفكير بأن جميع الحجاج يؤدون الحج بنوايا خالصة وخالية من المصالح الشخصية. وفي هذا الصدد، يتوخى العلماء المسلمون الحذر الشديد. حيث يؤكدون أن الحاج المخلص يعود من الحج خالياً من الذنوب كما ولدته أمه، بينما سيعود الحاج حامل النوايا الدنيوية بشخصية أسوأ من التي ذهب بها.

تتعدد النوايا والمصالح الشخصية وتتباين ما بين الأمور التي قد تبدو تافهة ـ مثل الحفاظ على مكانة وشرف العائلة على سبيل المثال ـ إلى الأمور الأكثر جشعاً. حيث يذهب العديد من السارقين والنصابين في موسم الحج إلى مكة ليخدعوا الحجاج ويستولوا على أموالهم خلال المدة القصيرة التي يقضونها في مكة وما حولها من مناطق؛ فالمعروف أنه قدر على أماكن الحج في العالم أجمع أن تجمع ما بين

الثمين والغث، وقد أرجع البعض ذلك إلى الطبيعة القاسية لهذه المنطقة الصحراوية القليلة الماء، ذلك إضافة إلى مشقة الوصول إليها وهو ما زاد من قدسية الأمر. أليست الكنوز كلها محاطة بما يحرسها من ثعابين وعقارب سامة، وعلينا حتى نصل إليها أن نرحب بتقديم بعض التضحيات.

قد لا يكون الحج اليوم بمشقة الحج نفسه قبل ظهور السيارات والطائرات، وفي فترة كان من الصعب فيها إيجاد التسهيلات اللازمة لتسكين العدد الغفير من الحجاج في موسم الحج. وعلى كل حال، فإن رحلة الحج اليوم لا تزال تتضمن العديد من الصعاب والمشقات التي لا تقتصر على وجود السارقين في الحرم؛ فللأسف، يركز بعض الحجاج على التسوق وشراء الأجهزة الكهربائية والملابس الغالية أكثر من تركيزهم على الأهمية الروحانية والمعاني الداخلية لشعيرة الحج ومناسكه. فوجود محلات «ماكدونالدز» بعلامته المشهورة، ولافتات بيبسي وتوشيبا وغيرهما على بعد أمتار قليلة من الحرم المكي لأكبر دليل على تشبع المكان بالفكر الاستهلاكي. وعلى الرغم من تطور تسهيلات تسكين الحجاج في الأعوام الماضية بصورة كبيرة، فإنه لا تزال هناك فجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء. فالأهم دائماً هو صلاح نية الحاج. ومن هنا، إذا كانت النية مشحونة بطاقة روحية كبيرة ورغبة في تعميق الإيمان، فلن يشعر الحاج بأي سلبيات ولن تهمه أي نواقص في تجربة الحج.

ولكن ما هي الأهمية الروحية لمناسك الحج بالنسبة إلى الشخص المسلم؟ في الحقيقة، يمثل الحج العديد من المعاني للعديد من الأشخاص المختلفين، حيث إن الحج مثله في ذلك مثل باقي الشعائر الدينية والعبادات الأخرى يتوقف على نية القائم به؛ فالحج عبارة عن رحلة يقوم بها المسلم بحثاً عن مكان أو مكانة تمثل الكمال، ومن هنا فإن حج بيت الله الحرام ينطبق على هذا التعريف من الناحية الرمزية والحرفية: فالحج من الناحية الحرفية يتطلب الارتحال من مكان إلى مكان ومن وقت إلى آخر جاعلاً الحاج يترك بلاده وأهله، ومن الناحية الرمزية يمثل الحج معراجاً للمسلم في طريقه للتقرب من الله، تاركاً خلفه عوالق الدنيا.

وأينما كان الموطن الأصلي للحاج أو الحاجة، فإن رحلة المسلم إلى مكة هي بمثابة رحلة «عودة إلى الديار» وليس العكس مثلما عاد إليها رسول الله فاتحاً ومنتصراً بعد هجرته إلى المدينة. ورحلة العودة هي في حقيقتها اتجاه إلى الأصل: فمثلما يتوجه المسلمون في صلاتهم اليومية خمس مرات في اليوم والليلة باتجاه القبلة ـ البيت الحرام أينما كانوا، يجب أيضاً على المسلم ولو لمرة واحدة في حياته أن يعود ويتجه مرة أخرى إلى قلب العالم الروحي الخاص به، إلى «بيت الله الحرام». وعلى الرغم من آلاف الأميال التي يقطعها المسلم ليصل إلى هناك ليطوف بالكعبة ، ببيت الله الحرام، فإنه يجد نفسه أمام بناء أجوف فارغ: فالكعبة بناء له ستة أوجه يحيط بمساحة فارغة حاله كحال الاتجاهات الستة: الشمال والجنوب

والشرق والغرب والأعلى والأسفل، فهو يدل على كل شيء ولا يشير إلى شيء. وهذا التجويف والفراغ داخل الكعبة ما هو إلا دلالة على الحقيقة التي يكررها القرآن مرة تلو الأخرى وهي أن الله ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[١٤]، فهو يتفرد عن مخلوقه في كل شيء؛ فصفات الخالق أكبر من أن تحصر في بناء أو إطار مساحي محدد أياً كانت قدسيته.

وتتضمن مناسك الحج العديد من الرموز التي تذكر المسلم بعلاقته مع الله وبحقيقة أن كل الأمور والأشياء والناس مرجعها إلى الله في يومٍ من الأيام.

وعلى سبيل المثال، تذكر رحلة المسلم من دياره إلى مكة بضرورة مغادرته حتماً لهذه الدنيا في يومٍ ما؛ إضافة إلى ذلك فإن لبس جميع الحجاج للإحرام البسيط يذكرهم بأنهم سواسية أمام الله «لا فرق بين أعجمي ولا عربي إلا بالتقوى». بل وتذكرهم أيضاً بالكفن الأبيض البسيط الذي سيلفون فيه عند الموت، تاركين المكانة والمال والجاه خلفهم. كذلك، فإن اجتماع الأعداد الغفيرة من الحجاج على جبل عرفات والمزدلفة تحت سماء الصحراء الصافية تذكرنا بالحشر والبعث واجتماع الخلق للحساب يوم القيامة.

ويعتبر أكثر الرموز تميزاً في مناسك الحج هي شعيرة الهدي أو الذبح في سبيل الله التي يقوم بها الحاج في نهاية المناسك، حيث يقوم الحاج بذبح الهدي سواء كانت شاة أم بقرة أم إبلاً إحياءً لأضحية

---

(١٤) المصدر نفسه، «سورة الشورى،» الآية ١١.

إبراهيم [عليه السلام]؛ إذ أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم [عليه السلام] بالتضحية وذبح ابنه. وبعد معاناة إبراهيم وإسماعيل، وقد أسلما عندها أنزل الله عليه كبشاً من السماء ليضحي به بدلاً من ابنه إسماعيل. في الحقيقة، إن قصة إبراهيم [عليه السلام] تعتبر قصة من قصص الاستسلام الذي يمثل قلب الإسلام. في الواقع، الاستسلام يعني الإسلام.

ثالثاً: لماذا أركان الإسلام خمسة؟

لماذا عدد أركان الإسلام خمسة ؟ لماذا لم تكن ستة أركان مثلاً أو عشرة أو خمسة وعشرين؟ السؤال الأهم هو: لماذا هناك في الأصل أركان للإسلام؟ إن هذا السؤال يتردد كثيراً على لسان من يعتبرون أنفسهم مسلمين، ولكن بالاسم فحسب، من دون تأدية أي من العبادات المعروفة باسم «أركان الإسلام».

يرد القرآن الكريم عن هذه التساؤلات والادعاء بأن الله سبحانه وتعالى غني عن العبادة ولا يحتاج إلى الخلق، بل الإنسان هو من يحتاج إلى عبادة الله؛ فعندما فرض الله الصلاة والصوم على الإنسان لم يفرضها لحاجته سبحانه وتعالى إليها ولكن لحاجة الإنسان بصورة أو بأخرى لها.

ومن هنا، فإن أركان الإسلام الخمسة والعبادات التي تمثلها تعتبر ضرورية للإنسان. أولاً، إن العبادات بما فيها من ممارسات

ملموسة لها فوائد صحية يكتسبها الإنسان من الصيام على سبيل المثال، وكذلك مثل الفوائد الاقتصادية الكثيرة التي تنتج من اتباع نظام الزكاة بدقة. وعلى كل حال، فإن القرآن لا يولي الكثير من الاهتمام بهذه الفوائد المادية بقدر ما يهتم بالأعمال الصالحة التي تصبح نتيجة طبيعية كأحد المظاهر الخارجية للإيمان. إن الإيمان بالله يجب أن يكون المحرك وراء رغبة الإنسان في الصلاة والصوم، لا مجرد العادة أو التعود أو الرغبة في أي مصلحة شخصية قد تنتج منها، وهو الأسوأ. ولهذا، فإن ضرورة الأركان الخمسة لحياة الإنسان لا تتعلق بالفوائد المادية الملموسة، ولكنها تتعلق بالفوائد النفسية والروحانية. وعلى كل حال، ينبغي على الإنسان ألا يفكر في العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج كفاية في حد ذاتها لأنها ليست كذلك؛ حيث تؤكد آيات القرآن أن أركان الإسلام الخمسة تعتبر وسيلة لتحقيق غاية؛ وبناءً على النظرة القرآنية، تعتبر المظاهر الخارجية للعبادة مثل الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة وصوم رمضان أدوات رمزية بشكل من الأشكال: حيث تمثل كل من تلك العبادات شيئاً يذكر الإنسان ـ الذي خلق لينسى ـ بالمكانة السامية التي يجب أن يسعى إليها دائماً. تلك المكانة السامية التي تتضمن حالة من السلام تعتمد على محبة الله ومعرفته والاستسلام للإرادة الإلهية في كل الأحيان والأماكن.

ـ أركان الإسلام الخمسة كرموز

من هنا، يمكن للمرء النظر إلى أركان الإسلام الخمسة على أنها رموز؛ فعلى سبيل المثال، إقامة الصلاة ترمز إلى حال الصلاة الدائمة

التي يجب على المسلم الحفاظ عليها في كل الأوقات وفي كل المواقف. إن الانحناء لله خمس مرات في اليوم والليلة خير ما يذكر الإنسان بأنه ينبغي عليه عدم الانحناء أو الركوع لأي شيء غير الله في أي وقت من الأوقات. إن الابتهال لله خمس مرات على أقل في اليوم والليلة يعتبر رمزاً للاستسلام الكامل لإرادة الله، وهو الأمر الذي يحث الإسلام على تحقيقه في كل مجالات الحياة حتى بعيداً عن الصلاة... وهكذا.

وبالمثل، فإن الصيام والزكاة والحج تعتبر من الرموز التي تشير إلى حقائق أكثر عمقاً من التي يمكن للمرء رؤيتها أو استنباطها من الحركات الخارجية لهذه العبادات؛ فعلى سبيل المثال، يمكن اعتبار الصيام كرمز لاعتماد الإنسان الكامل على الله في كل الأحوال والأوقات؛ وكذلك الزكاة يمكن اعتبارها كرمز أيضاً لتذكير الإنسان بأنه لا يستطيع إنفاق ماله كيفما يحلو له وأن الإنسان مسؤول في كل الأوقات أمام الله وأمام الفقراء أيضاً.

وباعتبار أركان الإسلام الخمسة رموزاً تشير إلى معانٍ عميقة، فيمكن تفسيرها بأشكال متعددة ومن زوايا مختلفة وكثيرة العدد بعدد العلماء المسلمين. وعلى كل حال، فإن المهم أن أركان الإسلام تعتبر مثل أركان البناية التي تقيم البناء وتساعده على الاستقرار والثبات.

رابعاً: بعض الممارسات الإسلامية الأخرى

تجسد أركان الإسلام الخمسة التعبير التطبيقي لمفهوم الاستسلام الذي يوضحه القرآن ويلقي عليه الضوء. وعلى كل حال، فإن أركان الإسلام الخمسة لا تمثل كل شعائر الإسلام وممارساته المفروضة والمتوقعة من الشخص المسلم؛ فكما سنرى في الأجزاء الباقية من هذا الفصل من الكتاب، إن هناك عدداً قليلاً من مجالات الحياة التي تتصل بالأمور الدنيوية، إذ أمر الرسول بالمشاورة فيها والقياس والاجتهاد.

وعلى الرغم من تركيز «أركان الإسلام الخمسة» بصورة كبيرة على علاقة الإنسان بخالقه، فإن هناك أيضاً مجموعة كبيرة جداً من القوانين التشريعية الدينية التي تحكم علاقة الإنسان مع أقرانه ومن حوله من الناس في المجتمع. وتعتمد بعض هذه التشريعات سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة على النصوص والأوامر القرآنية، بينما يعتمد البعض الآخر من هذه التشريعات على السنّة النبوية وتصرفات الرسول [ﷺ] ولكن، بصفة عامة، هناك نوعين أساسيين من التشريعات:

التشريعات التي تتناول العبادات وتتمثل في «فقة العبادات»؛ والتشريعات التي تتناول العلاقات الإنسانية والاجتماعية وهي تتمثل في «فقة المعاملات».

يغطي فقة العبادات كل التعبيرات الخارجية الظاهرة للعبادة مثل الصلاة والصوم والحج وغيرها من العبادات. ومن الناحية

الأخرى، يغطي فقة المعاملات نوعية أخرى من الأمور والقضايا مثل الزواج والميراث والطلاق والعقود التجارية وما إلى ذلك من الأمور. وقسم الفقهاء المسلمون في القرن الثاني والثالث من الهجرة كل القضايا الفقهية ـ سواء من فقه العبادات أم من فقه المعاملات ـ إلى خمس فئات أو أحكام، كما يلي:

الأمور المفروضة والواجبة؛ وتعتبر التعبيرات الخارجية الظاهرة عن الاستسلام لأوامر الله والمذكورة صراحةً في القرآن الكريم مثل الصلاة وصوم رمضان من أشهر أمثلة العبادات المفروضة. وكما رأينا من قبل، إن أركان الإسلام الخمسة كلها أمور مفروضة على الرغم من أن الفروض في الإسلام لا تقتصر عليها فحسب.

ويعتبر النقيض المباشر للأمور المفروضة في الإسلام هي المحرمات. وتغطي هذه الفئة كل الأمور التي يحرمها الله من خلال نصوص القرآن صراحةً، مثل شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وسفك الدماء وارتكاب الزنا، وما إلى ذلك من المحرمات. وتقتصر المحرمات في الإسلام على ما حرّمه الله صراحةً في القرآن، بل إن الله يحذر الإنسان بوضوح من أن يحرّم ما أحلّه الله. وعلى عكس الاعتقاد الخاطئ الشائع، فإن الأصل في الأمور في الإسلام الإباحة، ولا يحتوي الإسلام على الكثير من المحرمات، وبخاصة بالمقارنة مع القائمة الطويلة من المحرمات التي ينص عليها العهد القديم: **التوراة**.

وهناك بعض الأمور في الفقه يمكن تصنيفها من خلال ثلاث فئات أخرى تقع بين فئة الأمور الواجبة أو المفروضة وفئة الأمور

المحرمة، وهي فئة المستحبات والمكروهات والمباحات. أما الفئة **الأولى، المستحبات** فهي الأمور التي يحبها الله سبحانه وتعالى، والتي لا تقع تحت فئة المفروض ولكن القيام بها خير من عدم القيام بها؛ فعلى سبيل المثال، يستحب بعد صلاة الفرض أن يصلي المسلم السنن الرواتب. وعلى الرغم من أن المسلم يُثاب على صلاة هذه السنن كزيادة في الطاعات والقرب إلى الله، فإنه لا يُجازى أو يُعاقب على تركها. ومن أهم الأمور المستحبة في الإسلام الخِتان في اليوم السابع للولادة. والختان للصبية من الأمور الواجبة ومن سنن الفطرة التي يجب على كل مسلم فعلها والمحافظة عليها؛ فقد اختار الله سبحانه وتعالى سنناً للأنبياء وأمر المسلمين بالاقتداء بهم فيها وعدم مخالفتها كالاستحداد ومشط الشعر والتطيب. ويعتبر الختان من سنن الفطرة التي ترجع إلى إبراهيم [عليه السلام] كما أكد الرسول [ﷺ]. هذا بالنسبة إلى الرجال، أما بالنسبة إلى النساء فإن الختان في الإسلام ليس له أي قانون.

وفي الواقع، قد يتعدى عدد المستحبات الآلاف، وتتضمن الأمور المستحبة أيضاً زيارة المسلم لأصدقائه والإحسان لجيرانه والحفاظ على نظام ونظافة المنزل وقيام الليل والتهادي وبخاصة عند الرجوع من السفر، وما إلى ذلك من الأمور. في الحقيقة، إن فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما قام به النبي [ﷺ] من الأفعال والأقوال دون الفروض مستحباً ومندوباً، ما يدفع معظم المسلمين إلى اتباع سُنّة الرسول [ﷺ] في كل جوانب الحياة من النوم والأكل والاغتسال والنوم وحتى قضاء الحاجة.

أما الفئة **الثانية** من التصنيفات الفقهية المتوسطة بين الواجب والمحرم فهي فئة **المكروهات**. وتغطي هذه الفئة الأمور التي يكرهها الله وهي أمور لم يحرمها الله لكن النبي [ﷺ] أمرنا أن نتجنبها. ومن أمثلة المكروهات النوم لما بعد طلوع الشمس، والتبول في الماء الراكد وتناول الطعام حين الجنابة وغيرها من المئات ـ إن لم يكن الآلاف ـ من الأمور المكروهة. باختصار، إن كل ما نهى الإسلام عن فعله ولم يحرمه يعتبر مكروهاً على الرغم من عدم وضع الإسلام عقاباً لارتكاب هذه المكروهات.

والتصنيف **الثالث** من تلك الفئات الثلاث هي فئة **الأمور المباحة**. وتعتبر المباحات أكبر فئة فقهية على الإطلاق، حيث تحتوي على كل أفعال المسلم الذي يقوم بها في حياته الاجتماعية والتي لم يحرمها الله في القرآن أو السُنّة. وكما ذكرنا من قبل، فإن الأصل في الإسلام الإباحة؛ لذلك، فإن كل ما ليس محرماً أو مكروهاً فهو مباح. وتكاد تكون أمثلة المباحات لا تعد ولا تحصى في الحياة اليومية؛ فعلى سبيل المثال، يباح للمسلم أن يعيش ويعمل في البلد الذي يختاره، وأن يتزوج المرأة التي يريد. كما يباح للمسلم العلم أو الدراسة في المجال الذي اختاره من دون قيد، وكذلك يباح للحاكم تطبيق السياسات التي يراها مفيدة في المجالين الاجتماعي والاقتصادي. في الحقيقة، إذا تجنب المسلم المحرمات الصريحة، فإن كل ما يقوم به تبعاً لنيته الخالصة لله يعتبر «إسلامياً» ومقدساً سواء كان ذلك صلاة أم تناول الطعام أم حتى علاقة زوجية أم قضاء حاجة ، فقط إذا أصلح النية. ومرةً أخرى، إن الأصل في الأمور في الإسلام الإباحة.

إن الحياة وفقاً للشرع الإسلامي تحتم على المسلمين محاولة تكييف وتنظيم حياتهم بطريقة تتوافق وتتماشى مع مفهومهم للفئات الفقهية الخمس السابق ذكرها. فمن ناحية، يحاول بعض المسلمين القيام بالفرائض واجتناب المحرمات، إضافة إلى القيام بما يستطيعون من المستحبات أيضاً، بينما يتجنبون الوقوع في المحرمات تماماً، ويحاولون تجنب المكروهات قدر الاستطاعة. ومن الناحية الأخرى، يحاول بعض المسلمين القيام بالفرائض واجتناب المحرمات، لكنهم لا يواظبون على المستحبات والسنن ولا يتجنبون المكروهات. ومرةً أخرى فإن الأعمال بالنيات والحقيقة أن الله لا ينظر إلى صور العباد ولكن إلى قلوبهم.

١ ـ فقه المعاملات

علينا التعرف إلى فقه المعاملات إذا أردنا فهم العديد من الأحكام التي تغطي جوانب الحياة الاجتماعية في حياة المسلم. ومن الأمور البديهية التي تندرج تحت فقه المعاملات ما يخص الحياة العائلية للمسلمين من أحكام كالزواج والطلاق والميراث وحقوق الأطفال. ولا يتسع المجال هنا إلى مناقشة كل من هذه الموضوعات والقضايا بالتفصيل، ولكن سنذكر بعض المصادر والكتب التي يمكن للقارئ الاطلاع عليها لمزيد من المعلومات في هذه المجالات في نهاية الفصل تحت عنوان «لمزيد من القراءة والاطلاع». إضافة إلى ذلك، هناك بعض الاختلافات في الرأي بين الفقهاء حول بعض جوانب هذه القضايا تبعاً لاختلاف المدارس الفقهية.

وقد يتعرف القرّاء غير المسلمين إلى بعض الأحكام الفقهية الخاصة بالحياة الاجتماعية والأسرية للمسلمين من تعاملهم المباشر مع أصدقائهم وزملائهم من المسلمين أو ربما من الإعلام. ولكن يجب التحذير بأن معظم ما يراه المرء على شاشات التلفاز أو يقرأه في الجرائد ـ وحتى في بعض الكتب غير ذات صدقية ـ لا يطابق الحقيقة تماماً. ومن الأمور المثيرة للجدل في القضايا الفقهية الإسلامية موضوع تعدد الزوجات وموضوع حقوق المرأة. وسنعرض في ما يلي فكرة سريعة عن الموضوعين.

٢ ـ تعدد الزوجات في الإسلام

لم يحرّم تعدد الزوجات صراحة في القرآن، إنما سمح للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة إذا ما استطاع ضمان العدل بين زوجاته في المعاملة. وهكذا فإن تصعيب هذا الأمر من حيث النظرية من شأنه إيقافه بشكل طبيعي وفي حينه، وذلك كما الحال بالنسبة إلى الرق فهو لم يلغ مباشرة بل تم التوضيح أنه غير مستحب ما جعله يتضاءل وينتهي شيئاً فشيئاً بشكل طبيعي.

وهناك عدد كبير من المفاهيم والمبادئ الأخلاقية التي يذكرها القرآن ولا يصنفها التشريع الإسلامي في فئة من فئات الفقه مثل الأمر ببر الوالدين والنهي عن الطمع أو الإسراف، وتقع هذه المبادئ تحت فئة الواجبات والفرائض، لكنها تخرج عن نطاق الفقه الأصلي. من هنا، فإن مثل هذه الأمور ترتبط بالمستوى الإيماني للمرء وحال ضميره

الشخصي، والتي لا يمكن قياسها من خلال ممارسات خارجية كالصلاة والصوم. وكما رأينا في العديد من المناسبات، المهم ليس العمل الخارجي ولكن صلاح النية وراء العمل.

٣ ـ الزواج

الزواج في الإسلام اليوم هو العقد المدني بين رجل بالغ وامرأة بالغة، يعقد أمام شاهدين على الأقل. وعادةً ما تكون مراسم الزواج بسيطة يعقدها مأذون عالم بالشرع ويخطب فيها خطبة النكاح. وقديماً، كان المسلمون والعرب بصفة عامة يتعاملون مع الزواج بصفته اجتماع لعائلتين أكثر من كونه اجتماعاً لشخصين، ولا تزال الزيجات المرتبة مسبقاً منتشرة في العديد من أنحاء العالم الإسلامي.

على كل حال، تعتمد حقيقة الزواج في الإسلام على القبول والإشهار، فلا يصح إكراه أي من الرجل أو المرأة على الزواج. حيث يؤكد القرآن الكريم أنه لا يستقيم «الإكراه» في مثل هذه الأمور. ويحل للرجل والمرأة الزواج بمن يريدون طالما أنهما لم ينتقضا حدود المحارم حيث يحرم بالطبع الزواج بين المحارم من الأقارب:

﴿حرّمت عليكم أمّهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمّهاتكم اللاّتي أرضعْنكم وأخواتكم من الرّضاعة وأمّهات نسائكم وربائبكم اللاّتي في حجوركم من نسائكم اللاّتي دخلتم بهنّ فإن لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الّذين

من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ ما قد سلف إنّ اللّه كان غفوراً رحيماً﴾(١٥).

ويعتبر الرجل والمرأة شركاء وشقائق أمام الله في الزواج الإسلامي، وتحتفظ النساء المسلمات باسم عائلتهن قبل الزواج وحتى بعد الزواج. ويجب أن يقدم الزوج إلى زوجته مهراً خاصاً بها لا يحق له فيه شيء. ويتساوى الزوج والزوجة في الزواج الإسلامي من حيث الحقوق المادية، حيث إن للزوج حقوقاً على زوجته، كما إن للزوجة حقوقاً على زوجها. وعلى الرغم من الصورة المنتشرة عن المجتمعات الإسلامية التي يتعامل فيها الرجال مع النساء بصفة عامة ومع زوجاتهم بصفة خاصة على أنهن ملكية خاصة، فإن القرآن لا يشجع هذا السلوك بأي حال من الأحوال.

٤ ـ الطلاق

يعتبر الطلاق من الأمور المباحة في الإسلام، ولكن كسبيل وحيد باقٍ فقط. وعلى عكس الاعتقاد الخاطئ الشائع، فإن النساء المسلمات يمكنهن أن يبدأن إجراءات الطلاق، ويمكنهن أيضاً أن يشترطن في عقد الزواج أن يكون لهنّ الحق في تطليق أنفسهنّ في المستقبل إذا لزم الأمر. ونظرياً، سبقت اتفاقات ما قبل الزواج في الإسلام الاتفاقات التي ظهرت في ما بعد في العالم الغربي بعدة قرون.

---

(١٥) المصدر نفسه، «سورة النساء،» الآية ٢٣.

٥ ـ الميراث

وفقاً لما ورد بالقرآن، يحتفظ بثلثي تركة المرء لورثته مع تخصيص الثلث الأخير لسداد ما عليه من ديون وما شابه. وتقسم التركة في الأصل وفقاً لاحتياجات ورثة المتوفى، على أن يكون للذكر ﴿**مثل حظ الأنثيين**﴾[١٦]. ويتم ذلك لأن الأنثى تتزوج ويعولها زوجها. وبينما لا تزال تُطبق قوانين الميراث، إلا أنه ليس هناك شيئاً يمنع القضاة المسلمين من حرية التصرف في بعض الحالات، مثلاً، ابنة أو بنات الميت قد تستحق مادياً مثل إخوانها الذكور. وفي هذه الحالات، يجوز ـ وهو ما يتم في معظم الأوقات ـ تقسيم التركة بالتساوي بين الورثة، ويمكن التعرف إلى من يحق له الميراث من خلال الآيات ٧ ـ ١١ في «سورة النساء».

٦ ـ الحجاب الشرعي

يعتبر موضوع الحجاب الشرعي في الإسلام من الموضوعات المثيرة للجدل سواء في داخل أو في خارج العالم الإسلامي. ويتناول القرآن الموضوع باختصار شديد، حيث يؤكد أهمية التعامل بين الرجل والمرأة في الإسلام من خلال سياق من اللياقة والاحترام، ويتمثل جزء من هذا الاحترام واللياقة في أهمية «غض البصر» ـ سواء بالمعنى الحرفي أم المجازي للكلمة ـ عن كل ما قد يؤدي إلى الضلال، أو يفتح الباب لخطوات الشيطان والوقوع في الإثم، وبخاصة

(١٦) المصدر نفسه، «سورة النساء،» الآية ١٧٦.

ارتكاب الزنا. ويدعو القرآن أيضاً النساء إلى عدم إظهار زينتهن التي قد تثير الشهوات الجنسية عند الرجل مثل منطقة النحر والرقبة، إضافة إلى الرأس: حيث كانت النساء في الجاهلية لا يغطين هذه المنطقة عند خروجهن، ما قد يؤدي بالطبع إلى إثارة الشهوات عند الرجال، وبالتالي زيادة العلاقات الآثمة والمحرمة التي وجدت قبل ظهور الإسلام. وتؤكد الآية التالية من القرآن الكريم المفهوم السابق: **﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بني إخوانهنّ أو بني أخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التّابعين غير أولي الإربة من الرّجال أو الطّفل الّذين لم يظهروا على عورات النّساء ولا يضربن بأرجلهنّ ليعلم ما يخفين من زينتهنّ وتوبوا إلى اللّه جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون﴾**(١٧).

وتشير كلمة «خُمرهن» في الآية السابقة إلى كل ما يمكن إسداله على الصدر لستره وتغطيته، ويضيف البعض أن الخمار يجب أن يكون غطاء يستر الرأس والصدر. ولهذا، تختار النساء المسلمات ارتداء النقاب وتغطية الجسد كله، أو ارتداء الملابس الفضفاضة والحجاب بحيث يظهر الوجه والكفين فقط.

ليس هناك أمر صريح في القرآن للنساء يأمرهن بتغطية رؤوسهن، إلا أن الكثيرات يقمن بذلك نظراً إلى غموض كلمة

(١٧) المصدر نفسه، «سورة النور،» الآية ٣١.

«الخمار» والنصيحة التي تتناقلها الأجيال من الفقهاء. وفي بعض المناطق الأكثر تشدداً مثل المملكة العربية السعودية التي ينتشر فيها المذهب الوهابي، يفرض على النساء ارتداء النقاب عند الخروج بحيث لا يظهر سوى العينين. ولهؤلاء النسوة الحرية في ارتداء ذلك إذا ما رغبن في ذلك، إلا أنه ليس هناك دليل على وجوب ذلك في القرآن.

٧ ـ حقوق المرأة في الإسلام

تسببت مجموعة من العادات الثقافية والمتوارثة، إضافة إلى بعض التفسيرات المثيرة للجدل لبعض آيات القرآن ـ في بعض مناطق العالم الإسلامي ـ في التقليل من مكانة المرأة التي لم تستطع في أغلب الأحيان التحصيل أو الاستفادة من المساواة في الحقوق التي ضمنها لها الإسلام. إن النساء والرجال مختلفون، لكنهم متساوون ويتمتعون بالمكانة الوجودية نفسها أمام الله؛ فالنساء شقائق الرجال. وقد أعطى القرآن الكريم ـ ما يدعو إلى الدهشة ـ إضافة إلى قوانين الدولة الإسلامية الأولى في المدينة، للمرأة كل الحقوق التي يتمتع بها الرجل مع القليل من الاستثناءات. وحتى مع وجود بعض الاستثناءات، فقد كان السبب فيها السياق وليس النظرية؛ فعلى سبيل المثال، إذا تحدث القرآن الكريم عن اعتماد المرأة على الرجل مادياً، ففي هذه الحالة، يخرج الرجل إلى العمل وتبقى المرأة في المنزل. ولكن التشريعات الحديثة تجعل من مثل هذه التفسيرات سياقية لا معيارية: فعندما تعمل

المرأة اليوم تصبح مستقلة مادياً وغير معتمدة على الرجل، بل إن في بعض الحالات تعمل المرأة ولا يعمل الرجل، فتصبح المرأة هي العائل الوحيد للأسرة، وبالتالي فإن الرجل يعتمد عليها مادياً. هناك مرونة ضمنية في الفقه الإسلامي تسمح بإعادة النظر وبإعادة تفسير الآيات بحسب الظروف المتغيرة، ومنها: الآيات التي تتحدث عن تعدد الزوجات والاستعباد، بما فيها الآية الوحيدة التي تقلل من شأن المرأة.

■ **لمزيد من القراءة والاطلاع**

تحتوي معظم الكتب المقدمة لفكرة الإسلام على أجزاء خاصة بأركان الإسلام. حيث يتضمن كتاب نيل روبنسون (Neal Robinson) الذي ذكرناه من قبل **الإسلام: مقدمة مختصرة** *(Islam: A Concise Introdution)* أجزاءً مفيدة حول الصلاة والصوم والحج والزكاة، بينما يتناول كتاب الإمام الغزالي **أبعاد العبادات الإسلامية** *(Inner Dimensionss of Islamic Worship)* (١٩٨٣) بحثاً في الحقائق الروحية التي تكمن وراء الممارسات الإسلامية، ويقدم هذا الكتاب نظرة إسلامية مدهشة عن «أركان الإسلام الخمسة».



الفصل الخامس

الروحانية

أولاً: البحث في مفهوم «الروحانية الإسلامية»

ذكر أحد الشيوخ المسلمين ذات مرة كيف اقترب منه أحد الشبان يوماً، قائلاً في ابتهاج: «الحمد لله الذي هداني للإسلام، أشعر أخيراً أنني وصلت للأمان»، فابتسم الشيخ ولم يقل شيئاً. لم تطاوعني نفسي أن أخبر الشاب بأن الدخول في الإسلام هو في الحقيقة «الوصول»، ولكن الوصول إلى محطة موقتة في رحلة طويلة من الإيمان.

إذا فندنا التعليق الموجز للشيخ المسلم، فسنجده يشير إلى وجود عالم كامل من المعاني في الحديث الإسلامي وراء الإيمان الشكلي بالله والطاعة الخارجية لشرائعه. إنَّ خلق الإنسان لم يتم لإثبات وجود الله الخالق وطاعة أوامره من خلال مجموعة من الشعائر

والمناسك فحسب: فالله ليس مجرد مبدأ يجب قبوله، أو مشرع يجب طاعته. إن القرآن يصوّر الله المطلق عن الحدود الكامل الذي ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ و﴿**لا تدركه الأبصار**﴾[1] بكل ما تحمله هذه الكلمات من معان، لكن الإنسان يمكن أن يفهم الله من خلال خلقه والأهم من ذلك أن الإنسان يستطيع معرفة الله تدريجياً بالتقرب إليه؛ فالقرآن الكريم يصوّر الإنسان على أنه الخليفة على الأرض ووظيفته في الحياة هي عبادة الله والتعرف إلى خالقه.

إن الروحانية الإسلامية لا تعني بالطبع التشبه بصفات الخالق، بل إنها، في الحقيقة، عكس ذلك تماماً. إن الأمر يتعلق بإدراك أن تلك الصفات التي يراها الإنسان وتجعله كالإله هي في الحقيقة لغيره. وعلى هذا فإن رحلة الإنسان هي طريقه إلى الله وليس محاولة لاتخاذ الصفات الربانية، فهي تتعلق بتطهير النفس والابتعاد عن كل ما يثير في النفس هذا الاعتقاد بأن الإنسان شبيه بالله في صفاته وإتاحة الفرصة لأن يظهر لنا الله من خلال ملكوته. ويعني أنه على الإنسان ألا يتشبه بالله في تصرفاته بل عليه أن يعمل في سبيله، وأن يظهر قدرة الله من خلال تصرفاته. ولكي يتم ذلك، على الإنسان أن يمحو كل ما بداخله من فوضى وبلبلة، هذا الإحساس بالملكية الزائفة بما لدينا من صفات، وذلك حتى تنعكس صورة الله في مرآة النفس.

---

(١) **القرآن الكريم**: «سورة الشورى،» الآية ١١، و«سورة الأنعام،» الآية ١٠٣ على التوالي.

ومن وجهة النظر القرآنية، إن الله هو أصل الوجود وأصل الخلق جميعاً، فالله هو من خلق الإنسان وجعله خليفة على الأرض حتى يعرف الإنسان ربه ويحبه ويعبده. ولكي يتمكن الإنسان من معرفة خالقه، يجب أن يعرف الإنسان أولاً الحكمة من خلقه. وعلى هذا يقول الحديث النبوي: «من عرف نفسه عرف ربه».

يؤكد القرآن الكريم أن الهدف الأساس لحياة الإنسان على الأرض هو المضي في رحلة نحو معرفة ومحبة وعبادة الله من خلال عملية متواصلة من الطاعة والإيمان، كما ذكرنا آنفاً في الفصل السابق من الكتاب. ويكمن الهدف من رحلة الإنسان في التقرب نحو ربه في الوصول إلى درجة من التواصل مع الله أصل الوجود، فتنعكس أنفسنا في علاقتنا به وتنعكس صورة الخالق داخلنا. ولتحقيق هذا الهدف يجب على الإنسان أن يسعى إلى تحصيل ما يسمى بـ «معرفة الله». ويستلزم هذا قراءة وتفسير عشرات الآلاف من الإشارات الموجودة في الإنسان نفسه وفي الكون من حوله والتي تشير إلى صفات الله وأسمائه التي لا تُحصى حتى يستطيع الإنسان في النهاية الوصول إلى معرفة ومحبة وعبادة الله بالمعنى المطلوب. إن الله سبحانه وتعالى ذا الكمال والجلال مطلق عن الحدود والأزمنة؛ ولهذا، فإن الآيات والحقائق التي تتعلق بالله لا عدد لها بالمعنى الحرفي للكلمة: فهي هدف مطلق يتطلب سعي قد لا ينتهي، سعي يجب على المرء فيه أن يتقدم من دون تكاسل، لا أن يتراجع أو يغير وجهته عن الهدف النهائي.

إن السعي إلى معرفة الله هو في صميمه سعيٌ إلى معرفة النفس؛ حيث إن مفهوم الروحانية في الإسلام يعتمد ـ كما سنرى قريباً ـ على مبدأ تطهير النفس. وعلى الرغم من أن هذه العملية قد توحي للوهلة الأولى بتضمنها العقوبات الذاتية القاسية والحرمان والشعور بالخزي، فإنها بعيدة تماماً عن مثل هذه الأمور. ولكن هذا لا يعني أن الرحلة الإيمانية للتقرب من الله وتطهير النفس رحلة سهلة، حيث تُصوّرها الأحاديث النبوية بأنها رحلة صعبة لا يستطيع جميع المسلمين اجتيازها. وعلى كل حال، كل إنسان له الحرية في التسامي فوق النواحي المادية الخالصة لخلقه واكتشاف حقيقته.

تتضمن فكرة «تطهير النفس» والتي تعتبر قلب مفهوم الروحانية في الإسلام استسلاماً تدريجياً لكل إدعاءات البشرية بالسيادة والاستقلال، وإدراك حقيقة أن الله ـ وليس الإنسان ـ هو محور الكون البشري. كما تتضمن أيضاً إدراك أن كل ما نحن عليه وما نملكه مصدره الله، وأن كل صفات الكمال ـ كالمعرفة والجمال والحكمة والقوة وغيرها ـ التي نعتقد بأنها تشكل النفس البشرية، هي في الحقيقة ترجع إلى الله سبحانه وتعالى الذي يجب أن نستسلم له في حياتنا على الأرض. إضافة إلى ذلك، تتضمن هذه الرحلة أيضاً الإدراك التدريجي لحقيقة أن «حكمة الله» تكمن في الإنسان. ولذلك، فإن من الضروري لمعرفة الله أن يعرف الإنسان ماهيته أولاً. وكما ذكرنا من قبل، فكلما عرف العبد نفسه بنقصه وذله، ازدادت معرفته لربه بأوصاف الكمال.

ثانياً: الوجه الخفي للإسلام

إنَّ هناك من الناس من يفاجئهم مجرد وصف الإسلام بالروحانية، استناداً إلى الصورة التي ترسخت في عقولهم عن هذا الدين كأيديولوجية فكرية و«طريقة للحياة» تبدو وكأنها مهتمة أكثر بالنواحي السياسية للدولة الإسلامية من اهتمامها بالروحانية الدينية؛ ففي إحدى المرات قالت إحدى الطالبات المسيحيات لأحد زملائي المسلمين: إن الإسلام يخلو من الرحمة ومن الروحانية. بل واستطردت الطالبة قائلةً: «هل في الإسلام من الآيات أو الأحاديث ما يدعو للتسامح غير المشروط؟»، فنظر إليها زميلي للوهلة الأولى مندهشاً، ثم قرأ عليها العديد من الآيات القرآنية التي تدعو إلى التسامح، بل إنه ذكر لها أيضاً بعض النصوص التي يدعو فيها المسيح [عليه السلام] للتسامح في الإنجيل أيضاً. ثم قال: «على كل حال، إنني أشك في أن أيٍ من هذا له علاقة بغياب أو توافر الروحانية الإسلامية». ولكن الطالبة ردت سريعاً: «كيف هذا.. إن لها كل العلاقة بالروحانية الإسلامية، لقد أثبت أن آيات القرآن تدعو للتسامح والرحمة وكل المبادئ الطيبة التي دعى إليها عيسى المسيح. لكن لم يسمع أحداً من قبل عن هذا الوجه الخفي للإسلام، فالشيء الوحيد الذي يبدو أن المسلمين يهتمون به هو السياسة والقانون. ولو أن المسلمين اهتموا بالجانب الروحاني لانتشرت القيم الطيبة مثل الرحمة والتسامح؛ حيث إن تلك القيم هي في النهاية نتيجة الوعي الروحاني».

قد لا يعرف القارئ الغربي العادي الأبعاد الداخلية للوحي الإسلامي، وعلى كل حال، فإن النظرة الأولى والدراسة غير الفاحصة لآيات القرآن الكريم، تبين بوضوح أن القرآن يخاطب في المقام الأول علاقة الإنسان بخالقه وكيف يجب على الروح والنفس البشرية التعامل مع القضايا التي قد تطرحها هذه العلاقة. إذا قصد المرء بمفهوم «الروحانية» التواصل المباشر مع الله، فإن الإسلام يتحدث عن هذا الموضوع بغزارة وغنى بصورة أكبر من الديانات الأخرى، ولكن على المرء أن يرى ذلك. وهذا ما نعتزم فعله.

عادةً ما يقتصر البحث عن الجانب الروحاني في الإسلام عن النظر إلى المذاهب الصوفية. وعلى كل حال، فإن الصوفية ـ مثل الإسلام ـ يصعب تعريفها وتحديد ماهيتها، على الرغم من أن محاولة تعريفها هي السبيل الوحيد الذي بقي أمامنا، إذا أردنا فهم إحدى أهم القنوات التي أوصلت إلينا العديد من الحقائق حول الجانب الروحاني للإسلام. ولهذا، ففي بداية بحثنا في الجانب الروحاني للإسلام سنبدأ بالنظر إلى الصوفية.

بعد ذلك، سنقوم بالاطلاع على إحدى الحركات الإسلامية المشابهة للصوفية التي تدعو إلى العودة إلى الروحانية في الإيمان بالله وتعتبرها السبيل الوحيد للخلاص والنصرة ـ وهو ما يميزها باختلافها عن كل الحركات الإسلامية الأخرى ـ وتختلف هذه الحركة عن غيرها من التعبيرات المعاصرة عن الإسلام في تركيزها لا على السياسة الإسلامية فحسب، ولكن على الجانب الروحاني. وتبدو هذه الحركة

في المقام الأول حركة روحانية تحظى بدعم كبير في العديد من بلدان العالم الإسلامي، وبخاصة في تركيا وآسيا الوسطى.

وأخيراً، سنلقي الضوء على شيءٍ لا يمكن وصفه بأنه حركة أو مدرسة فكرية، لكن يمكن وصفه بأنه تعبير عن الروحانية التي تتعدى كل اعتبارات الخلافات الدينية أو الجغرافية وهو «الدعاء» ـ الذي يسمى غالباً في العالم الغربي بتلاوة الصلوات أو التحدث إلى الله. إن الدعاء، وخصوصاً بمعنى التواصل مع الله عن طريق الابتهال إليه بأسمائه الحسنى من أجمل طرق الابتهال الذي حوّله المسلمون إلى فن يسمى التواشيح.

ثالثاً: الصوفية

من الصعب تحديد ماهية الصوفية أو تعريفها، مثلها في ذلك مثل الإسلام؛ فكثيراً ما تترجم كلمة الصوفية إلى لفظ (Mysticism) بالإنكليزية وهي ترجمة غير صحيحة؛ حيث إن كلمة (Mysticism) تعتبر كلمة صعبة وغير محددة المعنى مثلها مثل بعض الكلمات في اللغة الإنكليزية التي لا معنى لها. في بعض الأحيان، تعرّف الصوفية أو التصوّف بأنها الحقائق الداخلية المختبئة تحت سطح الدين أو «السرية»، وهي كلمة أخرى يسيء الكثير فهمها وبالتالي لا يحبذونها. وتستخدم كلمة (Mysticism) بالإنكليزية عند الكتّاب الغرب في بعض الأحيان لوصف الجانب السحري المشعوذ والناحية الغامضة من الفلسفة الحديثة أو الحركات الدينية الجديدة. ومن

الناحية الأخرى، تستخدم الكلمة نفسها في بعض الأحيان أيضاً لوصف «الشعور بالغموض» الذي يشعر به من يدّعي الروحانية ممن لا يستطيعون ربطها تحديداً بأي دين من الأديان السماوية. وعلى كل حال، الصوفية لا علاقة لها بكل ما سبق. إذا أردنا أن نعرف التصوف في الاصطلاح، لا بد من الرجوع إلى أقوال الصوفية في ماهية التصوف، وكذلك أقوال أصحاب الطرق. وفي ما يلي أقوال أربعة من الصوفيين:

«التصوّف أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة».

(جنيد)

«الصوفية تتكون من ترك النفس لله بحسب إرادة الله».

(رويم بن أحمد)

«التصوف أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء».

(سمنون)

«التصوف هو الدخول في كل خلق سنيّ والخروج من كل خلق دنيء».

(أبو محمد الجريري)

ويبدو أن أصول الصوفية معقدة بقدر تعقيد تعريفها. حيث لا يعرف الكثيرون أصل الصوفية ومن أين بدأت، فالبعض يقول إنها استمرار طبيعي للحنفية ــ الدين الحنفي للنساك العرب قبل ظهور الإسلام ــ بينما يعتقد البعض الآخر أنها ظهرت بعد الإسلام كنتيجة

لما أدخل على الدين من قبل الفقهاء من أمور مقيدة وخانقة. ومن الناحية الأخرى، يعتقد البعض أن الصوفية هي ببساطة الشكل الإسلامي للحكمة المطلقة (Sophia perennis) التي تكمن في قلب كل الأديان. إن أصل كلمة «الصوفية» من الناحية اللغوية غير واضح في علم تاريخ اللفظ، إلا أنه قد يكون نسبة إلى ارتداء الصوف الذي يمثل نوعاً من الزهد.

١ ـ الصوفية المبكرة

يصف البعض الصوفية المبكرة التي ظهرت في القرنين الثامن والتاسع أنها «فئة داخلية» للإسلام. حيث كانت الصوفية محاولة للتواصل المباشر بصورة ما مع الله الخالق، والسعي وراء روح القانون لا حروفه. ومن هنا، يجب أن ننظر إلى الصوفية المبكرة على أنها صوفية تدرك حقيقة أن المعرفة الحقيقية هي معرفة الله والتي بالتالي يمكن الوصول إليها عن طريق التحصل على معرفة الذات فحسب: ومعرفة مدى ضعف وذل العبد لمعرفة مدى قوة وعزة الخالق. وعلى ذلك، فإن الصوفية تركز بصورة أكبر على إيمان الإنسان والاستسلام الداخلي بدلاً من التركيز على الجوانب الخارجية لدين الإسلام. وكنتيجة لذلك، جسّدت الصوفية المبكرة وعبّرت عن الروحانية القرآنية. وعلى كل حال، الصوفية المبكرة لم تتجنب التعبيرات الخارجية عن الدين ـ أداء المناسك والعبادات. في الحقيقة، يعتبر التركيز على أهمية ممارسة العبادات وتطبيق الشريعة من أهم المميزات

البارزة لتعاليم الصوفية المبكرة ـ وهي تعتبر القناة التي يتجسّد من خلالها التعبير الخارجي للدين الإسلامي. ومن هنا، احتفظت الصوفية المبكرة بالتناغم الذي يجب أن يتواجد بين الجوانب الداخلية والخارجية للإيمان.

إن مسمى الصوفية المبكرة له كثير من الأهمية؛ حيث تعرضت هذه الظاهرة إلى العديد من التغييرات بمرور الوقت: فتحولت من مجرد كلمة تصف ببساطة البحث المخلص الخاص لشخص ما عن الروحانية والمنهج المستخدم لتسهيل تلك الرحلة ليتسع نطاقها في ما بعد لتشمل وتغطي العديد من الأشكال المختلفة «للطرق» المنظمة و«المذاهب» الباحثة عن الحقيقة.

إن تحول الصوفية التدريجي إلى مؤسسة مستقلة حدث على مدار ثلاث مراحل مميزة: إذ تحولت الصوفية أولاً من مفهوم استسلام المرء الفردي لله؛ إلى الاستسلام الجماعي لأوامر ما يسمى بـ«الطريقة»، وفي النهاية الاستسلام إلى شخص بعينه وهو شيخ الطريقة وهي مرحلة تسمى باسم «الطائفة».

٢ ـ الطريقة الصوفية

ترمز كلمة «الطريقة» إلى الرحلة نحو القرب من الله، وتستخدم لوصف اجتماع مجموعة من «المريدين» حول قائد هو «شيخ الطريقة»، حيث يتعهد له المريدون بالولاء بصفته مرشدهم الروحي. ويعتبر الشيخ الوريث الروحي لمؤسس الطريقة، الذي

يعتقد المريدون بأنه ورث روحانيته وسلطته من جماعة أخرى من الشيوخ والقديسين والصوفيين من قبله في سلسلة من السلطة الروحية ترجع ـ كما يدعون ـ إلى الرسول محمد [ﷺ]. من هنا، لكل طريقة نسبها الخاص الذي يستطيع كل شخص تتبعه، بدءاً من مؤسس الطريقة، وانتهاءً بالرسول [ﷺ]. إن وجود علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] في معظم هذه السلاسل وكونه العامل الرابط بينها كلها، دفع بعض الكتّاب إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الشيعة هي أصل الصوفية. وفي الحقيقة، لا يمكننا إغفال حقيقة أن علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] يعتبر عنصراً مهماً في التكوين الروحي للشيعة والصوفية، لكن لا يمكننا اعتبار ذلك دليلاً دامغاً على أن إحدى الطائفتين كانت سبباً في نشأة الأخرى. من الناحية التاريخية لطالما كانت الصوفية في الواقع ظاهرة سُنّية متأصلة، وعلى الرغم من أن ظهور الطرق الصوفية التي تشبه الشيعة في الشكل، فإن هذا يعتبر شذوذاً عن القاعدة وليس الأصل.

في الحقيقة، إن بذور فساد الطرق الصوفية المبدعة حديثاً تكمن في المحاولات التدريجية لتحويلها إلى مؤسسة؛ فمع مرور الوقت، تحولت الروحانية التي كانت في فترة من الفترات عفوية وفردية إلى ممارسة تخضع للقوانين والتجربة الجماعية. ومع ظهور «شيخ الطريقة» بصفته قائداً روحانياً، استسلم المريدون في معظم هذه الطرق إلى التقليد الأعمى؛ فتحول بذلك المريدون المخلصون إلى عبيد روحانيين. وأدى انتشار الطرق الصوفية في أنحاء العالم

الإسلامي، وبخاصة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، إضافة إلى التفاعل المتبادل بين العادات الثقافية والدينية المختلفة التي أدت كلها إلى ظهور بعض الممارسات المبتدعة، كما في الطرق الصوفية تتناقض مع المبادئ الأصلية للصوفية المبكرة، ما تسبب في إنتاج فروع وأقسام اختلفت تماماً عن الروحانية الإيرانية التي تميزت بها الصوفية المبكرة. ولهذا السبب، يمكننا القول إنه منذ بداية العصور الوسطى حتى الآن، انقسمت الصوفية إلى نوعين سارا بالتوازي على مر السنوات، وهما: تصوف الخاصة، وتصوف العامة.

أما **تصوف الخاصة،** فهي الفئة الصوفية التي بقيت ملازمة من حيث الممارسات والمعتقدات لمبادئ الصوفية المبكرة ومن قبلها الحنفية، ويتميز هذا النوع من الصوفية بالتزامها بالسُنّة النبوية من خلال الطرق السُنّية كالطريقة «المولوية» المتمركزة في بلاد أناتوليا؛ والطريقة «النقشبندية» المتمركزة في بلاد ترانسوكزانيا.

أما **تصوف العامة،** فيتمثل في مجموعة من الطرق المبتدعة كطريقة البكتاشيرية والطريقة الحروفية التي تتبنى مجموعة من الممارسات المبتدعة غير الصحيحة المنافية للسُنة والمبادئ الإسلامية، ليس من وجهة النظر السُنّية التي تشكك في كل الطرق الصوفية، بصفة عامة فحسب، ولكن أيضاً من وجهة نظر المتصوفين الخاصة أنفسهم.

٣ ـ تصوف العامة

لا تحمل صوفية العامة إلا القليل، وقد لا تحمل أصلاً، من حكمة أعلام طرق الصوفية المبكرة أو الصوفية الخاصة، ولا تمت هذه الطرق من قريب أو بعيد لتعاليم القرآن الكريم والإسلام بصفة عامة بشيء. وفي الحقيقة، إن أصول هذه الطرق المبتدعة غير معروفة بالمرة، لكنها تطورت وانتشرت على هوامش العالم الإسلامي، وسط جماعات المسلمين القبلية في المناطق الصحراوية النائية، حيث اختلطت تعاليم الإسلام مع مجموعة مختلفة من المعتقدات والممارسات المستوردة من العقائد الهندوسية والبوذية والمسيحية والشامانية. وعرفت طرق الصوفية العامة السلفية وغيرها من أشكال المعتقدات والممارسات الدينية المبتدعة في ما بعد باسم «المغالاة» أو المغالين في الدين. وهم مجموعة من الأشخاص المسلمين بالاسم والذين اعتنقوا تعاليم مهرطقة مبتدعة، بحيث أخرجتهم من الملة السليمة. وقد انتشرت بعض المعتقدات الفاسدة مثل «التشبه» والتمثل والتناسخ للأرواح، والحلول للذات الإلهية في الإنسان، وغيرها من المعتقدات الفاسدة عند جماعات الغلاة. ثم أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مبادئ تصوف العامة، على الرغم من اختلاف تلك المعتقدات والممارسات من منطقة إلى أخرى. وعلى كل حال، فإن جماعات المغالاة اختفت اليوم من خريطة الفرق الإسلامية في العالم الإسلامي، وأصبح مصطلح «تصوف العامة» يطلق في معظم الأحيان على تصرفات العامة من المسلمين غير المتعلمين والجاهلين، الذين تمثل زيارة القبور وأضرحة أعلام المشايخ الصوفية جزءاً مهماً من حياتهم الروحانية.

٤ ـ الصوفية في العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى

وجدت الصوفية في أنحاء العالم الإسلامي منذ قديم الزمن. وينعكس مدى انتشار التعاليم والمشايخ الصوفية وشهرتها في عواصم العالم الإسلامي الحضارية من خلال التاريخ؛ فعلى سبيل المثال، يحكي لنا المؤرخ المسلم المشهور المقديشي ويصف مدينة شيراز التاريخية في نهاية القرن التاسع قائلاً: «لقد كثر عدد الصوفيين، إذ كانوا يناجون الله في مساجدهم عقب صلاة الجمعة ويرددون الصلوات على النبي [ﷺ] من على المنابر».

وحتى بعد مرور مئات السنين وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالتحديد، كان عدد الصوفيين لا يزال كبيراً، لكن الفارق في هذا الوقت هو تجمعهم على هيئة طرق منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي. ومع تحوّل الصوفية إلى مجموعة من الطرق، ظهر التقسيم الداخلي الجزئي ونمو المظلة الشاملة التي تضمنت العديد من المجموعات والأقسام الفرعية والتي ازدهرت بدورها كلها بشكل واضح، وحصلت على الولاء الروحي من أعداد كبيرة من الناس سواء من المتعلمين أم من غير المتعلمين. وفي الحقيقة، إذا قصرنا نظرنا على كونها مجرد نزعة دينية مبتدعة تقتصر على مجموعة صغيرة من الصوفيين الذين تناقضت أهدافهم وتعاليمهم مع السُنة والجماعة، فإننا بذلك نلغي الصلة الوحيدة التي كانت تربط عدد كبير من الناس بالإسلام. إضافة إلى ذلك، فإننا سنتجاهل مدى انتشار المظاهر الصوفية المختلفة في العالم الإسلامي العام، فغالباً ما نرى عشرات

الآلاف من الأشخاص في المدن الكبيرة يتبعون إحدى الطرق الصوفية بشكل أو بآخر. حيث انتشرت الطرق الصوفية الرئيسة في كل أنحاء العالم الإسلامي.

وعلى الأقل في سياق العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى، وعلى الرغم من أن الصوفية كانت تعتبر منهجاً مختلفاً لاعتناق الإسلام، وبالتالي كانت إلى حدٍ ما منافسة لغيرها من المناهج، فإن الصوفية لم تكن يوماً خارجة أو منفصلة عن التيار العام والدين الإسلامي بصفة عامة. في الواقع، إن ظهور الطرق الصوفية في العالم الإسلامي في بداية العصور الوسطى جعل من الصوفية جزءاً لا يتجزأ من الدين الإسلامي، وعنصراً مهماً في التكوين الروحي للكثير من المجتمعات الإسلامية؛ حيث كانت الصوفية تعمل بمختلف أشكالها خلال مستويات المجتمع الإسلامي كافة.

٥ ـ معتقدات الصوفية وممارستها

بالنظر إلى العدد الكبير من المعتقدات والممارسات التي يتضمنها المفهوم العام الشامل للصوفية، فإن من المستحيل بالطبع اختزالها كلها في مجموعة قليلة من الفقرات، وتقديمها بصفتها التعريف العام للعقيدة والشعائر الصوفية. وفي السطور التالية، سنقدم عرضاً تجريبياً لهذه المعتقدات والممارسات التي تعتبر صوفية سواء من ناحية الأصل أم الطبيعة والتي لا تخلو منها الطرق الصوفية كلها بصفة عامة.

تعتبر «حلقات الذكر» من أهم عناصر الشعائر الصوفية، وتتضمن حلقات الذكر تكرار أسماء الله الحسنى بطريقة معينة. ويمكن أن يتم الذكر في الصمت أو بصوت عالٍ كنوع من الترنيم والتوشيح، وكذلك يمكن أن يقوم الشخص بالذكر منفرداً أو في جماعة. ويرجع اشتقاق كلمة «ذكر» في اللغة العربية إلى معنى التذكر، ويقصد بها هنا تذكر أسماء الله وصفاته بعدد معين وبصورة معينة مع التدبر، بحيث يساعد الشخص نفسه في محاولته الحصول وبصورة معينة على الوعي المستمر بالله الخالق بكل صفاته.

إضافة إلى حلقات الذكر، تتضمن شعائر الصوفية أيضاً الدعاء والابتهال إلى الله وقراءة آيات من القرآن، إضافة إلى بعض التواشيح والقصائد؛ إذ أنتجت الصوفية بصفة عامة ـ وبخاصة مع تنوع الشعر الإيراني ـ مجموعة غنية من القصائد الشعرية، بما في ذلك أعمال الشعراء الإيرانيين الوطنيين أمثال سعدي وحافظ وجلال الدين الرومي ـ المعروف بأنه زعيم شعراء الصوفية ـ الذي اشتهر كتابه **المثنوي**، وعظّمه الإيرانيون حتى أسموه بـ «قرآن بهلوي»، أي «قرآن الفارسية».

وفي حلقات الذكر، تصاحب الأنغام في كثير من الأحيان الذكر والتواشيح على الرغم من أن هذا يعتمد بشكل كبير على التوجه الخاص للطريقة الصوفية المعنية. حيث تفضل كل طريقة من الطرق نوعاً معيناً من حلقات الذكر يعكس المنهج الذي أرساه مؤسس الطريقة في المقام الأول. وبهذا الشكل، ومع كل الممارسات العقائدية، فإن كل طريقة من الطرق الصوفية لها الخط الروحي المتميز من الناحية

البنائية. أما بالنسبة إلى استخدام الموسيقى والآلات، فإن بعض الطرق الصوفية تفضل استخدام الموسيقى، بينما تفضل بعض الطرق الأخرى الغناء والدعاء من دون مصاحبة الموسيقى. وبالمثل، فإن بعض الطرق الصوفية توظف بعض العروض الحركية المسماة باسم «السمأ» والتي تتضمن حركات جسدية منمقة يقوم بها المريدون في الطريقة.

٦ ـ المعتقدات الصوفية

بما أن الصوفية تعتبر فئة منبثقة من الإسلام في المقام الأول، تتطابق معتقداتها مع المعتقدات الأصلية في الإسلام، والتي يؤكدها القرآن الكريم. وعلى كل حال، تركز الصوفية على السعي إلى تطهير النفس. ويحدث هذا من خلال رحلة يجب على كل شخص متصوف المضي فيها، وتعرف عادة باسم «الطريقة».

٧ ـ عقيدة «الطريقة» الصوفية

بحلول القرن التاسع، بدأ الكتّاب الصوفيون بالتعبير عن المعتقدات الأساسية في الصوفية من خلال كتابات مختصرة ركزت على «الطريق» الروحية للطريقة، التي يجب على المتصوف اتباعها حتى يتقدم في طريقه إلى التقرب لله. وقسم معظم أعلام الصوفية الأوائل «الطرق الصوفية» إلى ما يسمى بـ «المقامات»، والتي يختلف عددها من معلم إلى آخر، لكنها تشترك كلها في الهدف وهو: ترك وجحود «النفس الأمّارة بالسوء»، والاتصال مع الله. ويقوم الأنموذج أو

المتصوف الساعي في الطريق، الذي يوصف أحياناً باسم «السالك»، في الرحلة باتباع طريق تتكون من سبع مراتب، هي: التوبة والزهد والورع والفقر والصبر والتوكل والرضى. وفي نهاية الطريق يحصل السالك أو المسافر الروحي ـ بكرم من الله ـ على مستوى أعلى من الوعي الذي يمكّنه من رؤية ـ بعين العقل والقلب ـ حقيقة أن المعرفة سواء المتحصل عليها أم المعلومة التي عرفها هي في النهاية شيء واحد. وعلى الرغم من اختلاف المناهج والمذاهب المتبعة من متصوف إلى آخر، فإن الرسالة موحدة بينهم جميعاً، وهي أن الإنسان خلق لمعرفة نفسه التي ستمكّنه من معرفة ربه. بل وادّعى الصوفيون أيضاً أن هذا النوع من المعرفة لا يمكن تحصيله إلا عبر الطرق الصوفية.

لا تزال المذاهب الصوفية موجودة إلى يومنا هذا، على الرغم من اعتقاد الكثيرين أن الصوفية الموجودة اليوم ما هي إلا ظل وبقايا للصوفية الأصلية؛

فقدت الصوفية اليوم محتواها العقلي والعاطفي، وانقسمت ـ في أغلب الأحيان ـ إلى الآلاف من الجماعات الصوفية الكاذبة التي تؤمن إيماناً سطحياً باللسان وليس بالقلب والمبادئ الصوفية الأصلية/ لكنها تعمل في المعظم كحركات حديثة لا تربطها بالإسلام سوى علاقات واهية.

وعلى كل حال، لا يزال المبدأ الأساسي للمذهب الصوفي الأصلي ـ وهو تطهير النفس والرغبة في الاتصال مع الله ـ حياً وموجوداً حتى الآن، حتى من خلال تعاليم الأشخاص الذين لا

ينتمون بشكل رسمي إلى إحدى الطرق الصوفية، أو يتخذونها طريقاً للحياة. والخطوة القادمة في بحثنا حول الروحانية الإسلامية ستكون من خلال التعرف إلى أحد هؤلاء الأشخاص وعرض الأفكار التي يتضمنها منهجه. وهو المنهج الذي يصفه الكثيرون بأنه نوع من الصوفية الخاصة بالقرن الواحد والعشرين.

رابعاً: أسرار النفس ـ لغز «النفس» البشرية

يكمن مفتاح الاستسلام قطعاً في تطهير النفس. ولكن ما هي «النفس» التي يتحدث عنها جميع الشيوخ وعلماء الدين في كل المذاهب الروحانية بهذا الشغف؟

اشتهر العالم التركي سعيد النورسي (١٨٧٦ ـ ١٩٦٠) في كل أنحاء العالم الإسلامي بكتابه **رسائل النور**، وهو مجلد من خمسة آلاف صفحة. ولم تكن **رسائل النور** في نهاية أمرها غير فيض من حقائق القرآن، كما عبّر النورسي نفسه في أكثر من مناسبة، وهي خلاصة «العلوم الدينية» حيث تغطي علوم اللاهوت والفلسفة وأركان الإسلام، إضافة إلى العديد من العلوم الأخرى. وكان هدف النورسي عند كتابة ذلك العمل أن يحيي الإيمان في قلب مجتمع تهدده المادية العلمانية تهديداً مستمراً.

تضمنت رسائل النورسي عرضاً للمشاكل التي يسببها سوء تعامل الإنسان مع «نفسه» التي بين جنبيه. ويظهر هذا العرض من خلال عمل قصير يعرف باسم «رسالة في النفس البشرية». وفي هذه

الرسالة المختصرة، قام النورسي ببيان كيف تميز هذه الظاهرة النبيلة الموجودة بداخل جميع البشر ـ والتي تمكّن كل شخص من التعرف إلى نفسه وتمييز ذاته ـ بين كل إنسان عن الأنفس البشرية التمييزية الأخرى والتي تكوّن جميعاً الجنس البشري. وسيكون من التضليل أن نطلق على هذه الظاهرة اسم «الأنا» نظراً إلى وجود نظرية سيغموند فرويد في علم النفس، والتي يستخدم فيها المصطلح نفسه. ومن المحتمل أن يكون النورسي ـ الذي عاصر فرويد ـ قد تجنب استخدام مصطلح «الأنا» لهذا السبب تحديداً، ولمعرفته العميقة أن «الأنا» و«الأنا الأعلى» و«الهو» في النظرية الفرويدية، تختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم «النفس» في الروحانية الإسلامية. ولكي نفهم بالتحديد معنى مفهوم «النفس» ولماذا يعتبر فهم طبيعتها ووظيفتها من المتطلبات المهمة للرحلة الروحانية، دعونا نلقي نظرة أقرب على كتابات النورسي.

١ ـ الأمانة الإلهية

يقول النورسي إن قدرة كل إنسان على التحدث عن نفسه كـ «نفس متميزة»، تعتبر هبة أعطاها الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان كجزء من الأمانة الإلهية ﴿**إنّا عرضنا الأمانة على السّموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً**﴾[٢].

إن «الأمانة» هي شيء يعطى لشخص ما بحيث يكون له حق التصرف به: حيث يتوقع من هذا الشخص استخدام تلك الأمانة بالطريقة التي يريدها معطي الأمانة، على الرغم من أنه يمكنه التصرف

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٧٢.

في الأمانة بصورة تخالف رغبة المعطي ويفعل بها ما يحلو له. وفي سياق علاقة المخلوق بخالقه، ما هي هذه «الأمانة» التي وافق الإنسان على تحملها والتعهد بها بعد أن أبت الظواهر الكونية العظيمة كالسماوات والجبال أن يحملنها؟ إن النورسي ليس وحده من يعرف هذه الأمانة بأنها القدرة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى ليعمل كخليفة الله على الأرض، وبقبول الإنسان لهذه الأمانة فقد أخذ على نفسه العهد بالعمل كخليفة الله على الأرض.

ولكي نعرف بالتحديد ما تتضمنه خلافة الخالق على الأرض، يجب علينا تدبر الآيات القرآنية التي تشير إلى خلق الإنسان. حيث تناقش العديد من الآيات القرآنية خلق الإنسان الأول ـ آدم ـ لكن أكثر هذه الآيات إعجازاً هي الآيات التالية من «سورة البقرة»: ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السّموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾[٣].

إن مفتاحنا لفهم معنى هذه الآيات، يكمن في فهم معنى «الأسماء» التي علّمها الله سبحانه وتعالى لآدم ـ الذي بكونه

---

(٣) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآيات ٣٠ ـ ٣٤.

الإنسان الأول يمثل الجنس البشري كله. وبالنسبة إلى النورسي ـ مثله مثل غيره من المفكرين الصوفيين في الإسلام ـ فإن الأسماء التي علّمها الله لآدم هي أسماء الله الحسنى. وعندما علّم الله الإنسان الأسماء الحسنى، فقد علمه أيضاً التعرف إلى كل صفات الجمال وصفات الكمال، بل والأهم من ذلك أعطى الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان القدرة على التحلي ببضع من تلك الصفات بوعي كامل؛ وبالتالي، جعله خليفة على الأرض. وبمعنى آخر، فإن الإنسان لدية القدرة على التعرف إلى صفات الكمال الخاصة بالله سبحانه وتعالى مثل القوة والحكمة والرحمة والجمال، وغيرها من الصفات لأنه إلى حد ما قد جبلت به بعض من صفات الله.

إنه التكريم والمكانة السامية التي اكتسبها الإنسان لكونه خليفة الله على الأرض، هو السبب وراء أمر الله للملائكة بأن يسجدوا لآدم تكريماً له. وكما يخبرنا القرآن، فإن الملائكة قد أعطوا معرفةً قاصرة بأسماء الله، وعلى الرغم من الإخلاص والوعي في عبادة الملائكة لله، فإنهم يفعلون ذلك لطبيعتهم المطيعة؛ فالملائكة خلقت لتطيع الله. أما من الناحية الأخرى، فقد كرم الله الإنسان ليس بمعرفة أسماء الله فحسب، ولكن أيضاً بحرية الاختيار: فإذا استخدم الإنسان علمه بأسماء الله بحكمة وعبد الله باختياره، فإن مكانته تعلو عن الملائكة ويصبح كالجوهرة التي تزين وسط العقد بالنسبة إلى غيره من المخلوقات. وعلى كل حال، فإذا أساء الإنسان التعامل مع أسماء الله الحسنى وفشل في القيام بواجبه نحو «الأمانة»،

فإنه ينزل إلى مستوى وضيع يصفه القرآن الكريم بأنه ﴿أسفل سافلين﴾[٤].

ومن هنا، فإن «الأمانة» تعطي من يحملها المقدرة على معرفة الله والتعامل معه من خلال أسمائه الحسنى وصفات الكمال الخاصة بذاته جُلّ وعلا. لكن على من يقبل حمل «الأمانة» أن يتحمل مسؤولية التصرف فيها بناءً على ما يحبه معطيها له: فإذا قام بمسؤوليته على أكمل وجه فسيجزى خيراً، وإذا فشل في هذه المسؤولية فسيواجه عواقب أفعاله. وفي سياق الأمانة الإلهية التي أعطاها الله سبحانه وتعالى للإنسان، فإن المسؤولية ستكون كبيرة، حيث لا تقتصر على العمل باسم الله فحسب، ولكن تشتمل أيضاً على العمل بما يوافق تماماً إرادته سبحانه وتعالى. إن السبيل الوحيد لإدراك السبب وراء رفض الظواهر الكونية كالسماء والجبال ـ التي تعتبر رموزاً للقوة والعظمة ـ لتحمل هذه الأمانة هو أن ندرك مدى أهمية «الأمانة» وما يعني تحمّلها من الناحية التطبيقية.

٢ ـ وظيفة «النفس» البشرية

بناءً على ما سبق، يعتبر النورسي «النفس» جزءاً من «الأمانة» التي أعطاها الله للإنسان. ويقول النورسي إن «النفس» ليست الوسيلة لمعرفة واستيعاب أسماء الله فحسب، لكنها تعتبر أيضاً «مفتاح الطلاسم المغلقة للخلق». ويؤكد النورسي أن الإنسان إذا فهم

(٤) المصدر نفسه، «سورة التين،» الآية ٥.

معنى «النفس»، فإن الأبواب المغلقة للخلق ستفتح كلها وسيحل لغز الوجود؛ فمن عرف نفسه عرف ربه.

إن قدرة «النفس» على معرفة الله تنبثق من حقيقة أن النفس تحتوي بداخلها على ما يسميه النورسي «الآيات والإشارات» التي تعكس أسماء الله وصفاته. من هنا، فإن «النفس» مثل وحدة القياس التي توجد فقط من أجل إثبات وجود وقياس شيء آخر. ومثلها مثل غيرها من وحدات القياس، فإن «النفس» ليس لها وجود مادي ملموس:

«ليس من الضروري أن يكون لوحدة القياس وجود حقيقي، بل قد تكون وحدة القياس مثل الخطوط الافتراضية الهندسية معتمدة على الافتراضات. وليس من الضروري أن يقوم وجودها الافتراضي على معرفة ودلائل ملموسة»(٥).

وعلى كل حال، فإننا لا نعرف، وعلى الأرجح لن نستطيع أن نعرف، ما إذا كانت «النفس» التي يشير إليها النورسي جزءاً من الروح أو النفس، وما إذا كانت وظيفة من وظائف العقل أو النفسية. وعلى الرغم من ذلك، فإن من الواضح ومن المؤكد أن «النفس» هي شيء معنوي، وظيفتها بيان أسماء الله الحسنى وصفاته. وهي بذلك ضرورية على ما يبدو في التقرب إلى الله المطلق عن الحدود؛ ففي الظروف العادية لا يمكن لعقل الإنسان استيعاب ما هو مطلق بلا

(٥) انظر: Bediuzzaman Said Nursi, *Man and the Universe* (Istanbul: Sozler Publication, 1983), p. 22.

شكل محدد؛ فإذا كان لون الكون كله أحمر لما استطعنا أن ندركه، والسبب أنه لا يوجد ما يخالف الأحمر أو ما نستطيع مقارنته به وتميزه عنه؛ فالشيء يظهر بضده: إذا كان كل شيء أحمر اللون لما استطعنا تمييزه. ويستخدم النورسي مثال النور المطلق ليثبت حجته:

«على سبيل المثال، قد لا يعرف أو يتميز النور المطلق دون ظلام. لكن إذا رسمنا خطاً وهمياً من الظلام فإنه (النور) يصبح مميزاً»[٦].

يتميز النور فقط لأن له درجات. وبمعنى آخر، من دون وجود الظلام لن نستطيع تمييز النور. لهذا، فإننا نحتاج إلى الظلام حتى نكتشف ونستطيع تمييز وجود النور. من هنا، إن الظلام مجرد وحدة قياس مثله في ذلك مثل «النفس» البشرية، وكذلك، فإن الظلام مثل «النفس» ليس له وجود مادي ملموس. إن الظلام هو ببساطة غياب النور.

وعلى هذا، فإن وحدة القياس التي تتمثل في «النفس» البشرية تعتبر ضرورية ومهمة، لأن كل صفات الله وأسمائه مثل المعرفة والقوة والرحمة والرأفة والحكمة، شاملة وكاملة ومطلقة عن الحدود وليس لها مثيل. وبما أنها كلها مطلقة فإنه لا يمكن تحديدها، وبالتالي لا يمكن تمييزها. ولكي نستطيع تمييزها يجب أن نعطيها حدوداً وهمية، مثلما يستخدم الظلام للتعرف إلى النور، تقوم «النفس» بوضع هذه الحدود الوهمية.

---

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢.

إن «النفس» تقوم بهذه العملية ببساطة شديدة عندما تتخيل أنها ملك لذاتها. وبمعنى آخر، تدّعي النفس امتلاكها كل صفات الكمال التي تختبرها كجزء من وجودها. تنظر النفس البشرية إلى صفات القوة والجمال والحكمة والرحمة والمعرفة القاصرة التي وهبها الله إياها داخل نفسها، ثم تدعي أن لها السلطة عليها. وبتطور كل إنسان، فإن هناك إحساساً يتطور أيضاً بامتلاكه لصفات الكمال التي يختبرها في نفسه، وقد تبدو هذه السلطة حقيقية للوهلة الأولى ولكنها وهمية، حيث إن وظيفتها هي مجرد الكشف عن أو الإشارة إلى المالك الحقيقي لصفات الكمال: الله سبحانه وتعالى. وبصفة عامة، يتعرف الإنسان إلى صفات الله عن طريق مقارنتها بالصفات التي يجدها في نفسه: «على سبيل المثال، قد تفهم النفس بسلطتها الوهمية على ما تملكه، قد تفهم سلطة الله على خلقه. وبتملكها قد تفهم النفس حقيقة ملك الخالق، فتقول: مثلما أملك أنا هذا المنزل فإن الله أيضاً يملك كل الخلق»(٧).

وبالمثل، فإن الإنسان يستطيع من خلال معرفته بنفسه أن يفهم معنى معرفة الله، ومن خلال إبداعه الخاص يستطيع الإنسان فهم إبداع الخالق. وهكذا، يستخدم الإنسان صفاته كوحدة قياس يستطيع من خلالها إدراك قوى الخالق. إن نظر الإنسان إلى قدراته الإبداعية وما ينتج منها، واستخلاصه نتيجة أن من خلق الكون وأبدعه لا بد وأن له مثل تلك الصفات ولكن على مستوى مطلق

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٣.

كامل لا عيب فيه. وفي هذه المرحلة البدائية من رحلة الإنسان الروحانية، يتشارك الإنسان الصفات مع الله بحيث يرى أن قوته انعكاس لقوة خالقه، ولكن قوى الخالق على مستوى عالٍ، وينطبق الشيء نفسه على كل صفات الكمال الأخرى.

من هنا، فإن النفس بمثابة وحدة قياس كالمرآة، أو بمثابة أداة يستطيع الإنسان من خلالها اكتشاف الخالق: إن الأداة ليس لها معنى في حد ذاتها، وهي توجد للكشف عن وجود ومعنى الخالق فحسب. على كل حال، تعتبر النفس سلاحاً ذا حدين، كما يوضح النورسي، فعلى الرغم من أنها مصممة خصيصاً لكي تقود الإنسان إلى الله، فإذا أساء الإنسان فهمها فقد تقوده في اتجاهات أخرى وتضلله.

إذا استخدم الإنسان النفس في رحلته إلى الله فإنه سيدرك في مرحلة ما ـ سواء عن طريق عقله أم عن طريق هدايته للحق من الله سبحانه وتعالى ـ أن خالق الكون ومسيّره لا بد وأن يكون خالقاً واحداً لا إله إلا هو ولا مثيل له. وبمعنى آخر، فإن الصفات التي كانت النفس تشترك فيها مع الله سبحانه وتعالى بصورة معنوية، يجب الآن أن تصبح مستسلمة بالكامل لله وحده؛ فالله المطلق عن الحدود يجب أن يتصف بصفات أبدية ومطلقة: فالحكمة الإلهية مطلقة، والقوة الإلهية مطلقة، والجمال الإلهي مطلق.. وهكذا؛ فإذا كانت القوة الإلهية مطلقة، فما هي مكانة قوة الإنسان؟ وهل هي حقيقية أم وهمية؟

يقول النورسي: إن قوة الإنسان هي قوة وهمية. في الحقيقة، إن الإنسان لا يملك شيئاً: إن السلطة التي يمارسها الإنسان على صفاته ما هي إلا وهم، ووظيفتها هي بيان الصفات الحقيقية والمطلقة لخالق الإنسان فحسب. ويؤكد النورسي، إن إدراك هذه الحقيقة هو مفتاح العبادة الحقيقية والاستسلام الحق لله سبحانه وتعالى: «وهذا يعني، أن «النفس»... تدرك أنها تخدم غيرها. إن أصلها له معنى إرجاعي فقط. ما يعني أن النفس تفهم أنها تحمل معنى شيء آخر. وأن وجودها يعتمد على غيرها. ومن هنا تعتقد أن وجودها متوقف فقط على وجود شيء آخر وأن استمرار وجودها يعتمد فقط على إبداع آخر. ولهذا فإن سيادتها وهمية، فالنفس تعلم أن سيادتها موقتة بحسب ما يسمح مالكها»[٨].

٣ ـ النفس الطيبة

إن مسألة «السيادة» هنا تعتبر مسألة مهمة للغاية، حيث إن «الاستسلام» الرمزي لسيادة الإنسان الموقتة والوهمية على صفاته هي محور «الإسلام» أو الاستسلام. إضافة إلى هذا، فإن تخلي الإنسان عن ادعائه السيادة والسلطة على صفات نفسه، هو ما يمكّنه من تنفيذ فكرة «تطهير النفس» والتي تعتبر محور الروحانية في القرآن.

ويصبح الاستسلام ممكناً إذا أدركت «النفس» ماهيتها الحقيقية فحسب: فالنفس تقنية نبيلة مهمة توجد لتشير إلى وجود

---

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٩.

الخالق فحسب. وفي اللحظة التي تقبل فيها النفس هذه الحقيقة، فإنها تتخلى عن سلطتها الوهمية وتقر بأن كل صفات الكمال ترجع إلى الله وحده. وستدرك النفس أيضاً أن كل ما يبدو وكأنها تملكه ما هو إلا بمثابة قرض أو أمانة استودعها إياها الله ويجب ردها إلى مالكها الحقيقي. ويعني رد الأمانة هنا أن نستخدمها بالطريقة التي يريدها معطيها لنا في المقام الأول؛ فعلى سبيل المثال، إجبار المعرفة (الوهمية) للإنسان لمزيد من التعلم والرعاية ابتغاء وجه الله واستخدامها بحسب إرادة الله وحده. وهذا يعني أيضاً إرجاع كل صفات الكمال لله وحده في كل الأوقات وتحت كل الظروف، وعدم نسبها إلى النفس، أو تخيل أن الإنسان له أي سلطة عليها أو على التصرف بها. يتضمن الاستسلام إرجاع كل صفات الكمال لله وحده بشكل واعي، بحيث يستطيع الجميع التعرف إليها.

إن الرحلة الإيمانية المذكورة في القرآن والتي يركز عليها النورسي هي رحلة يسعى فيها الإنسان إلى التخلق بالصفات العليا المقاربة لصفات الكمال بطريقة واعية. وهذا لا يعني بالطبع أن يسعى الإنسان إلى التشبه بالله سبحانه وتعالى. ولكن يعني أن يفرغ النفس من كل ادعاءات السلطة وتطهير مرآة النفس حتى يظهر فيها إبداع الله وقدرته. وهذا يعني أيضاً أن يتخلى الإنسان عن كل ادعاءاته بالسلطة أو السيادة، ويسلّم ويعترف بالسيادة الحقيقية الواحدة. حيث إن السبيل الوحيد للحصول على هذا السلام النفسي هو الدخول في الإسلام والاستسلام لله وحده.

٤ ـ «النفس» الفاسدة

يوضح النورسي أن البديل المتوافر للنفس داخل الإنسان هو التمسك بسلطتها الوهمية وإنكارها لوجود خالق له سلطة وسيادة عليا. ويحدث هذا عندما تفشل «النفس» في إدراك وظيفتها الحقيقية وترى نفسها فقط في ضوء المعنى القاصر الظاهر لها. إذا اعتقدت «النفس» بأنها تملك ذاتها، فلن تستطيع القيام بوظيفتها الحقيقية كخليفة لله على الأرض بالصورة الواعية وبالإخلاص المطلوب؛ وبالتالي، سوف تفشل في حمل «الأمانة».

من السهل أن نفهم السبب وراء ميل «النفس» لاختيار طريق إثبات الذات بدلاً من طريق استسلام الذات؛ فإذا خلقت «النفس» من روح الله وأعطاها سبحانه وتعالى بعضاً من صفات الكمال، فإن من غير المفاجئ أن ترغب هذه «النفس» في نسب هذه الصفات إلى ذاتها وادعاء تحكّمها بها. فإذا اعتاد الإنسان الإحساس بصفات القوة والحكمة والجمال وما إلى ذلك من الصفات، ثم أُخبر أن كل هذه الصفات لا تنسب إليه بل وعليه أيضاً التخلي عنها أو استخدامها بحسب تعليمات أحد غيره، فإن رد الفعل الطبيعي في هذه اللحظة سيكون التكذيب للوهلة الأولى، وقد يتبع بالتمرد أو الرفض والإنكار في كثير من الحالات. وكلما طال مدى ادعاء «النفس» سلطتها على صفاتها، كلما ازداد استسلامها صعوبة. وفي النهاية تنتفخ تلك «النفس» مغترةً بسلطتها الوهمية حتى تحول الإنسان إلى مخلوق تحركه الاعتبارات الذاتية الخاصة «بالنفس» فحسب. وبدلاً من استخدام «النفس» كوحدة قياس تدل على

وجود الخالق، يبدأ الشخص بقياس كل ما حوله مقارنةً بنفسه، وتصبح «النفس» محور الكون الخاص بها. ولكي تحافظ «النفس» على السلطة التي تعتقد أنها تملكها على صفاتها، فإنها تبدأ في «تقسيم» السلطة والسيادة المطلقة لله بينها وبين غيرها من المخلوقات؛ فعلى سبيل المثال، بدلاً من إرجاع تلك «النفس» الآبقة صفة القوة إلى الله فإنها ترجعها إلى الطبيعة أو إلى الأسباب أو غيرها من المخلوقات. وكما يقول النورسي: «تماماً مثلما يسرق شخص ما عملة نحاسية من بيت المال: فالطريق الوحيدة لتبرير أفعاله هي الموافقة على أن يأخذ عملة فضية لكل واحد من أصدقائه الحاضرين. ولهذا، فإن الإنسان الذي يقول: أنا ملك نفسي. يجب أن يؤمن ويقول: إن كل شيء يملك ذاته»(٩).

وهنا تكمن أولى الخطوات إلى طريق الشرك والوقوع في أكبر الكبائر والخطيئة غير المغتفرة التي خشيت السماوات والجبال من الوقوع فيها إذا قبلت تحمّل «الأمانة» وفشلت فيها.

ويمكن للقراء المهتمين بتحليل النورسي الروحي لنفسية الإنسان، أن يطلعوا على رسالته المختصرة في «النفس» البشرية، فهي تعتبر من الأعمال المثيرة. وعلى كل حال، القضية التي تعرضها هذه الرسالة هي: عندما يتعرف الإنسان إلى الطبيعة الحقيقية لنفسه ويعرف أن عليه تطهيرها حتى يصل إلى الله سبحانه وتعالى، فماذا عليه أن يفعل من الناحية العملية، وكيف له أن يسلك هذه الطريق ويبدأ هذه الرحلة؟

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٦.

٥ ـ خطوة إلى الأمام

قد يكون أعلام الصوفية المبكرون قد حددوا بعض الممارسات المعينة المتعلقة بالزهد، ومن ناحية أخرى فقد فضّل الرهبان المسيحيون العديد من الأشكال المختلفة لامتهان النفس جسدياً. وعلى كل حال، إن النورسي كان على الأرجح أول من وافق في هذا الوقت على أنه لا حاجة للإذلال الجسدي للنفس: فإن أحداث الحياة اليومية تعرّض النفس يومياً للإذلال بطرق مختلفة وبما يكفي من دون الحاجة إلى لبس الملابس المهلهلة والتعامل مع الخرائب وفرض العقوبات على الذات. إن اتباع الصراط المستقيم وتجنّب كل ما هو محرم في القرآن، لأمر شاق بالفعل، حيث يتضمن الصبر والاستسلام في تحمل كل ما ستلقيه الحياة في طريق الإنسان من فقر ومرض وحروب وفراق الأحبة وما إلى ذلك، والقائمة للأسف لا نهائية. ومن هنا، فإن الحياة في حد ذاتها تحمل في طياتها إذلالاً وتعذيباً كافياً للنفس، من دون الحاجة إلى إضافة المزيد من الصعوبات المتعمدة.

وعلى كل حال، يستلزم السبيل إلى تطهير النفس «تغيراً في العقل» بصورة شاملة وجذرية. بل إنه لا يقتصر على التغيير في العقل فحسب، بل أيضاً على تغيير القلب والعادات. ويؤكد القرآن هذه النقطة من خلال وصفه لطريق الايمان والاستسلام: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾[١٠].

---

(١٠) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد،» الآية ١١.

يؤكد القرآن أن التغيير ممكن، ولكنه يجب أن يبدأ من النفس. سيكون موضوع الجزء الأخير من هذا الفصل من الكتاب هو «الدعاء»، وسنرى كيف يمكن تحقيق التغيير الذي تحدثنا عنه.

خامساً: الدعاء

أخيراً، سنتحدث عن العبادة التي تمثل قلب الروحانية القرآنية وهي الدعاء، وبخاصة من خلال الابتهال بأسماء الله الحسنى.

تكمن فلسفة الدعاء في مدى التذلل والضعف الذي يشعر به الإنسان العبد المخلوق عندما يتأمل خالقه. إن الطبيعة المطلقة للخالق ولصفات الكمال المتمثلة فيه، مع مفهوم الخلق المستمر وتدبير شؤون الخلق جميعاً في آنٍ واحد، كلها تشترك في تعريف الإنسان بأنه لا شيء، وبأن كل ما يملكه هو برحمة الله وبرأفته عليه. إن الله يرعى الإنسان في كل لحظة وفي كل نَفَسٍ يأخذه، ويزداد رعاية بصفاته الكاملة وأسمائه الحسنى. إن الإنسان بكل ما فيه وكل ما يملكه يعتمد اعتماداً كلياً على مصدر النور الدائم ومصدر الخلق جميعاً: فإذا تخلّى الله بقوته عن الإنسان ثانية واحدة لتخبط الإنسان في ظلمات العدم.

من هنا، الهدف من الدعاء ليس تمجيد الله فحسب، ولكن أيضاً الاستعانة به وطلب العون والدعم من خلال الابتهال إلى الله بأسمائه الحسنى. وعندما يقوم الإنسان بذلك، فإنه يقر بضعفه وذله أمام الله العزيز، ويعترف بواجبه الدائم بشكر الله على إعطائه بضعاً من صفاته

وسماحه سبحانه وتعالى للإنسان بأن يكون خليفته على الأرض. إن قضية كون الإنسان خليفة الله على الأرض، هي ما تمنع الإنسان من الوقوع في براثن اليأس نتيجة كونه نكرة كمخلوق عادي لا حول له ولا قوة. وطالما لم ينسب الإنسان صفات الكمال لنفسه، فمن الممكن أن يهب الله ذلك الإنسان صفات الكمال إلى الأبد، أو بالأحرى طالما استخدمها ابتغاء وجه الله وفي سبيله أثناء فترة حياته على الأرض.

ولا يحدث الخطأ في إرجاع صفات الكمال لمالكها إلا عندما ينكر الإنسان أصله، ويرفض وجود الله ويعطي نفسه القدر والسيادة، ليصبح سيد نفسه، كما ذكرنا من قبل. ولهذا، فإن ممارسة الدعاء تساعد على تذكير الإنسان باستمرار بالمالك الحق لكل الخلق وللإنسان نفسه؛ فيجب أن يقوم الإنسان بكل أفعاله في ضوء كونه حاملاً ـ وليس مالكاً ـ لصفات الكمال. ولهذا، فعندما نطهو الطعام ونتناوله، يجب أن نقوم بهذا باسم الله المعطي الرزاق. وهذا على الأرجح هو سبب مواظبة المؤمنين على البسملة قبل الأكل.

ولا يقتصر استخدام صيغة البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» على تناول الطعام فحسب، حيث يردد المسلمون في كل مكان البسملة قبل الخروج من المنزل وقبل السفر وقبل القيام بأي عمل ذي بال وحتى قبل مضاجعة زوجاتهم؛ فقد قال الرسول [ﷺ] «كل عمل لم يبدأ باسم الله فهو أبتر». وعلى كل حال، إن الهدف الأساس ليس أن يمضي المسلم يومه مكرراً البسملة أو غيرها من الأذكار بلسانه فحسب، ولكن الهدف هو أن يعيش المسلم حياته في

صحوه ونومه باسم الله وفي سبيله. وكلما تقدم المؤمن في هذه الطريق الروحية مع استمرار دعاء الله وتذكره نفسه باعتماده الكامل على الله، فسوف يحظى المؤمن بالقوة والثبات والسلام نتيجة ذلك. حيث إن الإنسان سيعتمد في كل شؤونه لا على نفسه ـ التي لا تستطيع مساعدته حتى لثانية واحدة ـ ولكن على الله القوي المتين الذي شملت قوته كل شيء ولا ينضب دعمه أبداً ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها**﴾[١١].

لهذا، فإن الدعاء هو الوسيلة التي يستطيع الإنسان من خلالها التقدم إلى الطريق الروحية حتى يتواصل مع الله، ويصل إلى النقطة التي تصبح فيها روحه متأثرة جداً بالله حتى يعيش باسم الله في كل وقت وحين. ويؤكد الحديث القدسي التالي هذه المسألة:

عن الرسول [ﷺ] أن الله سبحانه وتعالى قال: «ما تقرب إلي عبد بأحب مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، والرجل الذي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

من هنا، يمكن لروح المؤمن الصادق أن تصل عن طريق الاستمرار في الدعاء والابتهال إلى الله بأسمائه الحسنى إلى نقطة تتأثر فيها جداً بالله سبحانه وتعالى، بحيث تصبح تلك الروح مرآة لكل ما

(١١) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٥٦.

يحب الله سبحانه وتعالى، وبهذا ينجح المؤمن في وظيفته كخليفة الله على الأرض بالمعنى الصحيح للكلمة. وعندما يعمل الإنسان كخليفة لله على الأرض فإنه يضرب بذلك مثالاً يحتذى به لغيره من الناس مثلما كان الرسول [ﷺ] مثالاً يحتذى للبشرية كافة.

■ **لمزيد من القراءة والاطلاع**

يوجد الكثير من الأعمال التي تتناول الجوانب المختلفة من الروحانية في الإسلام ومن بينها كتاب تشيتيك وموراتا **الرؤية الإسلامية** *(The Vision of Islam)*. تميز تشيتيك مرةً أخرى بكتابه الرائع عن الصوفية في سياق الإسلام والتاريخ الإسلامي **الصوفية: مقدمة مختصرة** *(Sufism: A Short Introduction)* (٢٠٠٠). ويعتبر كتاب **تطهير القلب: العلامات والأعراض والعلاج للأمراض الروحية للقلب** *(Purification of the Heart: Signs, Symptoms, and Cures of the Spiritual Diseases of the Heart)* (٢٠٠٤) للكاتب حمزة يوسف (Hamza Yusuf)، من الكتب الرائعة التي تنقب في أعمال النفسية الإسلامية الروحانية، حيث يعتبر الكتاب ترجمة لأحد الكتيبات الصوفية المدهشة، والتي تتناول موضوع أمراض الروح والعلاجات المقترحة.

وهناك مثالان يستحقان الوقوف عندهما من بين الأدعية الكثيرة التي يشجع أعلام الشيعة اتباعها بترديدها دائماً. **أولهما** هو دعاء يدّعي الشيعة أن علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] علمه لشاب جاءه يوماً طالباً دعاءً شافياً لأبيه الذي بلغ منه المرض الجسدي والنفسي كل مبلغ، فنصحه علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] أولاً بالتوبة الصادقة وترديد ذلك الدعاء حتى برأ الأب؛ أما الدعاء **الثاني** فينسبه الشيعة إلى الإمام الشيعي الرابع زين الدين وهو ابتهال لله سبحانه وتعالى. وعلى الرغم من أن ترجمة هذه الأدعية إلى اللغة الإنكليزية تفقدها الكثير من جماليتها الأصلية في اللغة العربية، إلا أنها لا تزال مثيرة.

الفصل السادس
الإحياء والإصلاح
وتحدّيات الحياة العصرية

يهدف هذا الفصل إلى «مناقشة الإسلام والسياسة في العالم المعاصر»، وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا الفصل لا يتماشى مع ما سبقه من فصول، حيث إنها تتناول الإسلام، بينما يتناول هذا الفصل المسلمين أنفسهم؛ فغالباً ما يتم المزج ما بين الاثنين، حيث يعتقد في كثير من الأحيان أن الإسلام يتمثل في حال المسلمين، وبالتالي نرى غالباً الأحكام الصادرة في حق هذا الدين تنبع عن تصرفات من يدّعون اعتناقه؛ فهذا الفصل لا يتناول إلا أقل القليل بشأن دين الإسلام في حد ذاته، ويرجع ذلك إلى كثير من الاعتبارات، منها غياب أسس العقيدة وتعاليم الدين الحق ـ أركان الإسلام ـ إلى حد كبير عن السياق السياسي الديني المعاصر.

إلا أنه لم يكن بمقدوري أن أختم مثل هذا الكتاب من دون أن ألقي بعض الضوء على قضية العالم الإسلامي المعاصر البالغة التعقيد، مع الأخذ بالحسبان، خصوصاً حال الرعب التي واكبت ما حدث في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وما تلاها من هجمات لاحقة شنها الائتلاف الأمريكي ـ البريطاني على مختلف بقاع العالم الإسلامي؛ ففي الواقع أن معظم ما نشر عن الإسلام خلال الخمس سنوات السابقة لم يكن ليكتب لولا مأساة برجي التجارة العالمي. إذ بدا الإسلام وثيق الصلة بتلك الأحداث، على الأقل في مخيلة من عكف على الكتابة والنشر بهذا الشأن حتى قبل أن ينقشع الدخان من مانهاتن.

وما زالت القضية حتى الآن للكثيرين كما كانت عندما صوّرها ـ في خريف عام ٢٠٠١ ـ صانعو السياسات وصحفيو الدرجة الثانية ومن يزعمون أن دراستهم للإسلام والشرق الأوسط غير قابلة للدحض أو الاعتراض. إلا أن أصحاب العقول الواعية يدركون أن تلك القضية لا تقتصر على كونها غير مثبتة ولكنها بلا أساس على الإطلاق، مجرد قضية ملفقة من بدايتها حتى نهايتها، كما إنهم يعون جيداً أن الرابط بين أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وبين الإسلام، يشبه في ضآلته الرابط بين تفجيرات مدينة أوماغ الإيرلندية (Omagh) التي نفذتها منظمة ريل آي. آر. إيه. (Real IRA) عام ١٩٩٨، والمذهب الكاثوليكي، أو الرابط بين اليهودية وتفجير فندق الملك دافيد في عام ١٩٤٦ التي ارتكبتها جماعة إرغون اليهودية

السرية. حتى وإن كان هذا الرابط قد يجد ما يدعمه في أن مرتكبي هذا الأمر المزعومين قاموا بهذه البشاعات باسم دين الإسلام، ما هو إلا ذريعة لهم للقيام بما يرغبون فيه، إلا أن الأمر كما جاء بالمقولة القديمة «ذكر الأمر لا يجعل منه حقيقة».

يتناول هذا الفصل استعراض موجز للتاريخ السياسي لمناطق محددة من العالم ـ الشرق الأوسط بالتحديد ـ حيث يشكل المسلمون أغلبية السكان، وتأتي أهمية الإطار الزمني لهذا الاستعراض لأنه يمثل الفترة التي تلت مرور ثلاثمئة عام ـ مع زيادة أو نقصان عقد أو عقدين ـ على بداية ما عرف بالتدهور البطيء القاسي للعالم الإسلامي على المستويات الثقافية والاقتصادية والسياسية على حد سواء؛ حيث شهدت الامبراطوريات الثلاث العظام المسيطرة على العالم الإسلامي في العصور الوسطى: الامبراطورية العثمانية في آسيا الصغرى؛ امبراطورية الصفويين في إيران؛ وامبراطورية المغول الكبار في شبه القارة الهندية بداية القرن الثامن عشر وهي تمر بحال من الاضمحلال التدريجي وخيبة الأمل والاستياء، لتنتقل من «عصرها الذهبي» إلى الشيخوخة بحتميتها المحزنة.

إن العدد الكبير من الحضارات التي يربط بينها الإسلام ـ بدرجات متفاوتة ـ والتي تشكل هذا الكيان المبهم المسمى بالعالم الإسلامي، مرت بالعديد من العصور الذهبية تفوق ما يمكن أن نحصيه هنا. إلا أن هذا التعبير ـ تعبير العصر الذهبي ـ ليعتمد في مطلقه على رؤية الفرد. ومن أشهر أمثلة العصور الذهبية التي شهدتها

الحضارة الإسلامية هو عصر الرسول [ﷺ] نفسه، الذي أسس فيه دولة المجتمع الإسلامي في المدينة. والتي بها المثل كثيرة باعتبارها الأنموذج المثالي لنمط المجتمع الذي يمكن للفرد تأسيسه إذا أطاع الله واتبع سُنّة رسوله [ﷺ]. وبالتأكيد يلخص تعبير «الحلم بعالم المدينة» هذا الحنين لفترة تتسم بالمثالية مع بدايات الحضارة الإسلامية، أي إنها ماضٍ نستدعيه، كما هو الحال بالنسبة إلى مختلف العصور الذهبية، ليمدنا بما قد يعوضنا نفسياً عما نعانيه في الحاضر من ويلات وإخفاقات.

تعد الفترة ما بين منتصف العصور الوسطى حتى آخرها، عصراً ذهبياً آخر للحضارة الإسلامية، حيث شهدت تلك الفترة وصول العثمانيين والصفويين والمغول الكبار إلى أعلى قمم التفوق الحضاري، إلى ما يفوق تخيلات أسلافهم ويتخطى طموحات حفدتهم. ولكن مع نهاية القرن السابع عشر بدأت هذه الامبراطوريات كلها بالاضمحلال في آن واحد. من الصعب تحديد مقدار التدهور، فالأمر يعتمد بشكل كبير على إطار الأمور ومنظورها. إلا أن الحقيقة التي تظل قائمة تتمثل في وجود عدة أسباب متتابعة ـ منها السياسي ومنها الاقتصادي بل والثقافي أيضاً ـ تآمرت على هذه القوى الإقليمية الثلاث وعجّلت بانحدارها التدريجي لتصل إلى اضمحلال سياسي اجتماعي.

في البداية عزا البعض التدهور الذي يشهده العالم الإسلامي إلى ضعف إيمان المسلمين ونقص همتهم. ولكن مع بداية القرن

التاسع عشر ظهر إطار جديد يختلف كليا عن سابقه، ألا وهو سياق العلاقة المتفاوتة بشكل متزايد بين العالم الإسلامي وأوروبا، حيث تتمتع أوروبا بالريادة الثقافية والسياسية التي اعتاد عليها العالم الإسلامي لأكثر من خمسمئة عام. وهكذا ظهرت علة أخرى تضاف وراء هذا التدهور، فالأمر لا يتعلق بضعف الإيمان فحسب، بل أيضاً بهذه السيطرة الغربية على العالم الإسلامي التي اتخذت الشكل التدريجي.

ومع قدوم القرن العشرين، كانت العودة إلى تعاليم الدين الإسلامي الأصلية الوسيلة الوحيدة ـ لكثيرين من العالم الإسلامي ـ ليس للتخلص من الاضمحلال الاجتماعي والأخلاقي الذي تعانيه المجتمعات الإسلامية فحسب، بل لمحاربة شرور الاستعمار الغربي والإمبريالية الثقافية. بينما رحب آخرون بالتقدم العلمي والتكنولوجي المتاح في الغرب بأذرع مفتوحة مع استمرار استنكارهم للهيمنة الغربية على العالم الإسلامي، مؤكدين التوافق بين الإسلام والعلم، مرددين أن لا داعي لأن يخشى المسلمون التحديث طالما أنه غير مرتبط بتبعيتهم لأسياد أجانب، وهو الأمر الذي يجب تجنبه بالأشكال كافة، وذلك لطمأنة العناصر الأكثر تحفظاً في المجتمع. بينما اتفقت أقلية صغيرة مع الفريق الداعي بشدة بضرورة التوصل إلى حل أكثر جذرية وهو تطبيق حكم الديني ـ باستخدام القوة في حال الضرورة الملحة ـ والذي ينتسب إلى نظام الخلافة القديم القائم بشكل أساسي على الشريعة.

تنوعت استجابات الأفراد بشكل هائل تجاه العلاقة الجديدة بين الأمة الإسلامية وباقي العالم، وتشعبت ما بين العديد من الآراء والاتجاهات المختلفة، إلا أن العامل المشترك ما بين تلك الاتجاهات كافة، هو استمرار الإسلام على وضعه المركزي في هذه القضية بشكل عام سواء كان من ساهم في توليد هذه الاتجاهات وصياغتها من دارسين ومفكرين وأيديولوجيين مسلماً حقاً يعتنق الإسلام عن اقتناع، أو يتبعه لمجرد انتمائه لتلك البقعة جغرافياً فحسب.

غالبا ما غلفت معظم ردود الفعل تجاه الأزمات التي عاناها العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر والعشرين، بمصطلحات إسلامية صريحة وهو ما لا يدعو للدهشة، حيث إن إسهامات الإسلام ـ بشكل عام ـ في إحساس الفرد بهويته في العالم الإسلامي يعود إلى أسباب تاريخية ونفسية لا مجال لذكرها الآن ويفوق بكثير ما أسهمت به المسيحية في تطور هوية من يعيشون في أجزاء كثيرة من العالم الغربي.

قد يساعد هذا الاستطراد البسيط على إيضاح هذه النقطة؛ فمن المتعارف عليه أن عدد من لديه الاستعداد للاعتراف بإلحاده بين المسلمين على سبيل المثال قد ظل دائماً أقل من الغرب، ولا يعني هذا أن الملحدين ليس لهم وجود في العالم الإسلامي، بل الأمر بعيد عن ذلك كل البعد. ولكن يرجع ذلك إلى تفضيل الناس في المجتمعات الإسلامية المحافظة إخفاء اتجاهاتهم تحت ستار من النفاق بدلاً من المخاطرة بالعار الذي سيجلبه اعترافهم بالكفر، وهو الأمر الذي دفع

أحد العلماء المسلمين إلى تناول تلك المشكلة ـ التي وردت تحذيرات بشأنها في القرآن نفسه ـ قائلاً: «ربما يكون الإلحاد مشكلة الغرب، ولكن مشكلتنا أسوأ بكثير، فهي تتلخص في النفاق والتظاهر والادعاء، ونحن نعلم جميعاً أن مقام المنافقين في النار أسوأ بكثير من مقام الملحدين».

نؤكد أن هذا الكتاب ليس موضوعاً لبحث صحة عقيدة المسلمين، أو لتقرير أيّهم المؤمن الحق وأيّهم المدعي، فاستطرادنا البسيط السابق ما هو إلا محاولة لتوضيح إلى أي مدى يؤدي الإسلام دوراً مركزياً في هذا الجزء من العالم الذي نطلق عليه العالم الإسلامي ما يحتم إدراجه في مختلف المناقشات حول قضايا مثل الانحدار والحداثة وضرورة التصدي للهيمنة الغربية. بل إن استخدامنا لتعبير «العالم الإسلامي»، لهو أكبر دليل يعكس مدى تمركز الإسلام في هوية معظم ساكني هذا العالم، بغض النظر عن مدى صدق إيمانهم.

وبناءً على ذلك، يجب إدراك «الصحوة الإسلامية» التي ظهرت على الساحة بحسب البعض خلال ٤٠ ـ ٥٠ سنة الأخيرة على أنه صحوة للهوية، وهو الأمر البعيد كل البعد عن الصحوة من حيث الاهتمام بالإسلام في حد ذاته أو بالتبعية له؛ فليس الأمر أن المسلمين قد زادوا إيماناً أو أصبحوا أكثر قدرة على التعبير، وقد يكون هذا حال بعض الحالات الفردية، ولكن ما حدث بالفعل في العالم الإسلامي هو محاولة بعض الجماعات إعادة فرض هويتهم في مواجهة

التهديدات الخارجية. وبينما اهتم البعض بإبراز صلاتهم التي لا تنفصم بالإسلام ـ سواء أكانت دينية أم ثقافية أم مزيجاً منهما معاً ـ حاول آخرون استغلال دور الإسلام المركزي بالنسبة إلى الديناميكيات السياسية والاجتماعية والثقافية في العالم الإسلامي من أجل الدفع ببرامجهم السياسية والعقائدية إلى الأمام.

وانطلاقاً من هذا المنظور، فإن العديد من هذه الحركات على مر ١٥٠ عاماً الماضية، والتي توصف كلها تقريباً بأنها حركات إسلامية لا تمت بصلة، وإن وجدت، فهي أقل القليل بالصحوة في الإيمان والعقيدة في حد ذاتهما. بل في الواقع إن معظم تلك الحركات كانت سياسية بالدرجة الأولى، وظل الهدف الضمني لقادتها هو التوصل إلى حل مشكلة بعينها، ألا وهي: هذا التخلف الملحوظ الذي تعانيه شعوب العالم الإسلامي وتبعيتهم للغرب سياسياً وثقافياً؛ إلا أننا سنلتفت هنا إلى بدايات وأصول هذه الحركات مع أوائل القرن الثامن عشر.

أولاً: بدايات الإحياء

شكّل التراجع السياسي التدريجي للمسلمين في القرنين السابع عشر والثامن عشر، الخلفية لظهور واحدة من أهم تطورات العالم الإسلامي خلال مئات عدة من السنين، ألا وهي نمو حركة الأحياء المدعومة بروح التجديد والبعث الديني، التي بدأت مع منتصف القرن الثامن عشر، وانتشرت فعلياً في بقاع العالم الإسلامي

كافة. وتنوعت أشكال الحركة تبعاً لاختلاف المجتمعات والتقاليد الإسلامية؛ ففي بعض المناطق تقدمت تلك الحركة عبر جهود العلماء المتشددين، وفي البعض الآخر من خلال الاتجاهات الصوفية السائدة. أياً كانت الطريقة التي ظهرت بها تلك الحركة، المهم هو عرضها لرسالة رئيسة ألا وهي: أن سبب تدهور العالم الإسلامي هو انحدار الإسلام نفسه. حيث حاول البعض أن يبرهن على أن الممارسة الصحيحة للدين الإسلامي تشوّهت عبر قرون من التأثيرات الخارجية والبدع الأجنبية غير الإسلامية، في حين أدى الغلق المستمر لباب الاجتهاد إلى تحجر الفقه، ما تسبب في سلب ديناميكية القانون الإسلامي. وترتب على ذلك ارتداد المسلمين عن طريق الحق. ولإنهاء هذا الانحدار يجب عليهم الرجوع إلى أصول الإسلام الأولية ـ وهي القرآن والسُنّة ـ بحثاً عن الهداية، وعبر ذلك يتمكنون من إحياء الإيمان الصادق الذي ميز الرسول [ﷺ] وصحابته [رضي الله عنهم].

١ ـ صعود الحركة الوهابية

جاءت الحركة الوهابية في القرن الثامن العشر لتكون أول أهم حركات الإحياء الإسلامي. وجاء اسمها نسبة إلى مؤسسها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢)؛ حين رأى ـ الذي درس فقه المذهب الحنبلي واتبع تعاليم الفقيه وعالم الدين المتشدد ابن تيمية (ت. عام ١٣٢٨) ـ أن الظروف الاجتماعية في ذلك الوقت لا تختلف كثيراً عما كان عليه الحال في عصر الجاهلية في شبه الجزيرة

العربية قبل ظهور الإسلام، وإن كان أفضل منه بقليل. تخوفاً واستياءً مما وجده منتشراً بين العامة من خرافات وبدع وممارسات مريبة مثل تعبد الأولياء وتبجيل المقامات والأضرحة، دعا ابن عبد الوهاب إلى إحياء كلي للإسلام من خلال اتباع تعاليم الدين الحقة التي طبقها النبي محمد [ﷺ] في المدينة؛ فالمجتمع ـ الدولة الذي أسسه الرسول [ﷺ] مثّل لابن عبد الوهاب العصر الذهبي للإسلام؛ واعتبره مرجعاً ومصدراً للإلهام لكل المجتمعات الإسلامية في المستقبل.

أيد ابن عبد الوهاب قيام ثورة مسلحة ضد العثمانيين، وقرب النهاية، انضم إلى قائد قبلي محلي هو محمد بن سعود (ت. ١٧٦٥)، وهكذا تمكن من تكوين حركة مقاتلة إحيائية انتشرت انتشار النار في الهشيم عبر شبه الجزيرة العربية؛ ففي مكة والمدينة سويت مقابر الرسول [ﷺ] وصحابته [رضي الله عنهم] بالأرض وفي مدينة كربلاء ـ مدينة الشيعة المقدسة ـ دمر مقام الإمام الحسين [عليه السلام] وذبح العديد من الحجيج الشيعة. ومع بدايات القرن التاسع عشر، تمكنت الحركة الوهابية من السيطرة على شبه الجزيرة العربية وتلمس كُثُرٌ تأثيرها الواسع في أجزاء معظم العالم الإسلامي.

أما اليوم، فإن المذهب الوهابي الشديد التحفظ، يتمتع بتأثير ونفوذ لا يتناسب مع قلة عدد أنصاره، ويرجع هذا التناقض بشكل كبير إلى تمويل العديد من المساجد والمؤسسات التعليمية والجامعات الإسلامية خارج العالم الإسلامي بأموال سعودية.

٢ ـ الشاه ولي الله

أدى الشاه ولي الله لدلهي (١٧٠٣ ـ ١٧٦٢) دوراً مماثلاً لدور ابن عبد الوهاب، ولكن في شبه القارة الهندية، وإن يكن هناك بعض الاختلافات المهمة بين الدورين، حيث تبنى شاه ولي الله أحد أشكال الصوفية ـ إذ كان من أنصار الطائفة النقشبندية ـ الخالية من الإضافات الأجنبية والخرافات الشعبية. ستضطلع تلك الحركة الصوفية «المطهرة» في الهند المغولية وفي العديد من باقي أجزاء العالم الإسلامي بدور الحركة الوهابية نفسها «شديدة التعصب دينياً» في الجزيرة العربية، حيث افترضت أن العودة إلى الإسلام الحق الذي دعا إليه الرسول [ﷺ] هي الطريقة الوحيدة لحل مشاكل هذا العصر. كما دعا شاه ولي الله إلى العودة إلى الاجتهاد الذي رسم ابن تيمية حدوده مثلما فعل عبد الوهاب.

نمت روح الإحياء سريعاً في أماكن أخرى من العالم الإسلامي؛ ففي أفريقيا ظهرت سلسلة من الحركات الإحيائية التي بلغت أوجّها بتأسيس العديد من الدول الإسلامية مثل حركة عثمان بن فودي (عثمان دان فوديو) (١٧٥٤ ـ ١٨١٧) في نيجيريا؛ وحركة السنوسي في ليبيا (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩)؛ والمهدي السوداني (١٨٤٨ ـ ١٨٨٥). كما ظهرت اتجاهات مماثلة في وسط وجنوب شرق آسيا مع الظهور المتلاحق للعديد من الحركات الإحيائية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

مع نهاية القرن الثامن عشر، كان هناك أمر واحد واضح، وهو أنه على مر المئتي عام الماضية، توصل العديد من علماء الدين والمفكرين السياسيين في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي تقريباً إلى النتيجة نفسها، ألا وهي أن حال الإسلام في عمومه لا يسر، ومن ثم يجب إحداث بعض التغييرات الجذرية في المنهج والممارسة لضمان مستقبل الدين وأتباعه؛ فبينما اختلفت أسباب عدم الرضا من جهة إلى أخرى تبعاً للظروف الاجتماعية والسياسية الخاصة بها، ظل هناك إجماع واسع على ما يجب اتباعه كسبيل للحل، وهو الإحياء والعودة إلى الإسلام الحق كما نشره الرسول [ﷺ] ومارسه. لكن كطبيعة الأمور، وجدنا الأفكار تختلف مرة أخرى حول كيفية تطبيق ذلك من مفكر إلى آخر، وإن كان الجميع قد اتفق على حتمية التطبيق حتى يستمر الإسلام؛ فما كانت تتمتع به القوى الإسلامية الثلاث الكبرى من عظمة أصبح الآن تدهوراً وانحداراً، ويرجع ذلك ـ كما يدّعي البعض ـ إلى تراخي شعوبهم في التمسك بعقائد الإيمان، وكان القول إذا ما تم إحياء هذا الإيمان حينها فحسب سيستعيد العالم الإسلامي سيادته من جديد.

إلا أن التحدي تجاوز قدرات الجميع، إذ لم يكن على المسلم أن يتصارع مع شياطين الداخل فحسب، بل وجد أيضاً نفسه أمام تحدٍ آخر أكبر آتٍ من الخارج، ألا وهو أشباح الاستعمار الأوروبي. لذا دعونا الآن نرى محاولات إقدام أوروبا وتعدياتها على العالم الإسلامي.

ثانياً: الاستعمار الأوروبي ورد فعل المسلمين

قابل التدهور الذي حدث في العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر، التنمية الاقتصادية والتقنية في الغرب والتي وصلت ذروتها مع الثورة الصناعية وهيمنة الدول الأوروبية في مجالات التجارة والصناعة والتكنولوجيا؛ فالعالم الإسلامي كان يعاني في هذا الوقت التدهور في هذه المجالات وكل ما كان بمقدوره هو النظر بعين الحسد والغبطة إلى العالم الأوروبي، هذا العالم الذي قضى أزماناً طويلة منبهراً بألمعية الحضارة الإسلامية، بدأ الآن بالتفوق عليها على الجوانب كافة. بل والأهم من ذلك فإن القوة العسكرية والبحرية للغرب أصبحت مع نهاية القرن الثامن عشر على مقدرة ليس على التفوق على العالم الإسلامي اقتصادياً فحسب ولكن السيطرة سياسياً عليه. ومع مطلع فجر القرن التاسع عشر، كانت بدايات فترة الاستعمار الأوروبي. وفي نهاية القرن التاسع عشر، كانت أغلب دول الشرق الأوسط الإسلامية وباقي العالم الإسلامي إما تحت سيطرة الغرب بشكل مباشر، أو عرضة لمحاولات إضفاء الطابع الغربي عليها بشكل كبير.

١ ـ سقوط الامبراطورية العثمانية

جاءت أواخر محطات نهاية الامبراطورية العثمانية مع احتلال نابليون بونابرت لمصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١). وجاء الأمر كنقطة فاصلة في تاريخ المسلمين، إذ كانت تلك هي المرة الأولى منذ الحروب

الصليبية التي تقوم فيها إحدى القوى الأوروبية بالاستيلاء على جزء من العالم الإسلامي، وعلى الرغم من عدم بقاء الفرنسيين لفترة طويلة في مصر، إلا أنه بقي لهم تأثير دائم على الطبقة النخبوية في المجتمع المصري، وجاء بعدها الضابط العسكري الألباني محمد علي (١٧٦٩ ـ ١٨٤٩) ليملأ ذلك الفراغ في السلطة الذي تركته قوات نابليون بجلائها عن مصر. حيث حظي باعتراف الدولة العثمانية له كوالٍ على مصر، وهكذا بدأ محمد علي في أمر لم يسبقه إليه غيره في العالم الإسلامي، في برنامج تحديث للبلاد استوحاه من النظام الفرنسي، فصادر الأوقاف وكوّن جيشاً نظامياً على غرار الأوروبيين، وأرسل عدداً من البعثات التعليمية إلى مختلف بقاع أوروبا. وعندما قام الوهابيون بغزو العراق وسعوا إلى الاستيلاء على مكة والمدينة، استنجد السلطان محمود الثاني (حكم ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) بمحمد علي للقضاء على حركة التمرد هذه، وقد دعّم انتصاره على الوهابيين موقفه، ومكّنه من حكم مصر بشكل يقترب من الاستقلالية. كما جعله انتصاره هذا أكثر طموحاً وهو ما دفعه إلى أن يتمرد بعد ذلك على أوليائه العثمانيين وضم سوريا، وكان بوسعه الإطاحة بالسلطان نفسه لولا تدخل القوى الأوروبية لمنعه بناءً على طلب السلطان محمود، ورُدّت سوريا مرة أخرى إلى العثمانيين عام ١٨٤٠، في حين كانت مكافأة الأوروبيين على تدخلهم منحهم ما يكفي من الامتيازات التجارية التي منحتهم السيطرة على معظم الامبراطورية العثمانية.

وبدءاً من منتصف القرن التاسع عشر، اتخذ تدهور حال الامبراطورية منحى أسرع؛ فاستقلت اليونان عام ١٨٣٠ وتبعتها سيبيريا بعام، وفي الفترة ما بين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٧، سقطت الجزائر من يد العثمانيين إلى قبضة الفرنسيين، ونالت بلغاريا استقلالها بحلول عام ١٨٧٨، وفي العام ذاته استطاعت النمسا احتلال البوسنة والهرسك، ومع عام ١٨٨١، أصبحت تونس تحت الحماية الفرنسية، بينما سقطت جارتها ليبيا في يد الإيطاليين عشية الحرب العالمية الأولى والتي عند حلولها كانت الامبراطورية العثمانية قد فقدت معظم ما تبقى لديها من دول أوروبية في حروب البلقان بين عامي ١٩١٢ ـ ١٩١٣.

وفي محاولة لإصلاح هذه الأزمة، وهو الأمر الذي قد يتسبب في سقوط الامبراطورية العثمانية كلية في أيدي القوى الأوروبية، بدأ السلطان عبد المجيد (حكم ١٨٣٩ـ١٨٦١) سلسلة من الإصلاحات ذات الطابع الغربي، عُرفت باسم «التنظيمات»، والمقصود بها إعادة التنظيم. وجاءت المرحلة الأولى للتنظيمات عام ١٨٣٩، حيث جعلت جميع الجماعات الدينية على قدم المساواة أمام القانون، وهو ما يُعد تحولاً جذرياً بالنسبة إلى ما كان سائداً تحت اللواء الإسلامي العثماني الذي كان يفصل الجماعات غير المسلمة ويعاملها بدونية. وفي عام ١٨٥٦، ظهر مرسوم سلطاني أكد مبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين؛ وفي عام ١٨٦٧، بدأ المسيحيون والذين يمثلون ٤٠ في المئة من رعايا السلطان في شغل مناصب في مجالس الدولة.

وتبع هذه النقلة الكبيرة نحو المساواة ما بين الرعايا، مجموعة من التغييرات الجذرية في الأنظمة القانونية والتعليمية وهي الأنظمة التي كانت تخضع في الماضي لسيطرة علماء الدين، ومع عام ١٨٤٠، بدأ التأثر بالطابع الغربي من حيث المحاكم والقوانين، وتم إعادة هيكلة الإدارة لتصبح على شاكلة النظام الفرنسي، وأدخلت تغييرات جذرية أخرى في النظام التعليمي، حيث أنشئت مؤسسات تعليمية علمانية ليخرج منها صفوة المجتمع، التي بدورها أكملت مسيرة الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

كما شهدت هذه الآونة الاهتمام بالبنية التحتية للبلاد، فاستصلحت الأراضي وأنشئت المصانع وورش العمل، هذا إلى جانب إقامة نظم للبريد والتلغراف وبناء السكك الحديد.

أدرك المصلحون العثمانيون أنه حتى تتمكن البلاد من الاستمرار مع حتمية هذا التنافس مع قوى غير مسلمة، لا بد من إصلاح الامبراطورية حتى ولو كانت على هدى الشكل الأوروبي نفسه إذا ما لزم الأمر. وكانت إصلاحات التنظيمات من أكثر محاولات الإصلاح البعيدة الأثر في العالم وأكثرها ثورية. ومع هذا، إذا ما كان الغرض من هذه الإصلاحات هو رفع شأن الامبراطورية حتى تتمكن من الوقوف أمام منافسيها الأوروبيين على قدم المساواة وفقاً لشروطها وإرادتها، فيمكننا بالفعل الحكم عليها بالفشل الذريع؛ فما أظهرته هذه الإصلاحات لم يكن سوى سيطرة أوروبا وانتصارها على الامبراطورية العثمانية، حيث كان كل ما أسس

وأنشئ من مؤسسات وممارسات على النمط الأوروبي، وفي أغلب الأحيان تم ذلك على يد خبراء ومستشارين أوروبيين.

خلف السلطان عبد المجيد شقيقه السلطان عبد العزيز (حكم ١٨٦١ ـ ١٨٧٦)، والذي استمر على درب الإصلاحات ذات الطابع الغربي، ما أدى إلى سقوط الامبراطورية العثمانية في مغبة الإفلاس، فما استخدم من قروض لتمويل مشروعات جاءت من بنوك غربية هو ما أتاح الفرصة للحكومات الأوروبية ومؤسسات التمويل لفرض سيطرة غير مسبوقة على اقتصاد الامبراطورية. وفي ظل حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) تدهور حال ثروات الامبراطورية العثمانية، وأصبحت من سيء إلى أسوأ؛ في حين كانت ذروة إصلاحات «التنظيمات» بدستور عام ١٨٧٦، جاءت الحرب الضارية مع روسيا بعدها بعام، التي نتج منها معاهدة برلين المخزية، وما تلاها من فقدان معظم الأراضي الأوروبية التابعة للامبراطورية العثمانية. وهكذا مع وقوع العديد من مواقع التأثير في الشرق الأوسط تحت السيطرة الأوروبية، وجد السلطان عبد الحميد في ذلك الذريعة التي كان يرغب فيها، ألا وهي وضع حد لعمليات التحرر هذه ومتابعة الإصلاحات وفقاً لما يراه هو مناسباً، أي تحت سيطرته المطلقة. ومع حلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر، حلّت ألمانيا تحت قيادة القيصر فيلهلم محل فرنسا وبريطانيا العظمى كحليف ومستشار عسكري للامبراطورية العثمانية، في حين استهوى السلطان عبد الحميد اتجاهات فكرية جديدة تدعو إلى

الوحدة الإسلامية، وهو ما كان دائماً مثار المناقشة، وإن كان لم يتخذ حيز التنفيذ. وهذه الاتجاهات ما كانت إلا خطة الهدف منها توحيد الأراضي والشعوب الإسلامية.

٢ ـ «تركيا الفتاة»

إلا أن السلطان عبد الحميد قد واجه في عقر داره من يعارضه. وهم من يطلق عليهم مسمى «تركيا الفتاة» والذين كانوا يفضلون إسباغ شكل أكثر علمانية على القومية العثمانية، ولقد كانت الثورة التي قام بها أتباع تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩، قد أنهت استبداد السلاطنة العثمانيين. وتحت إمرة جمعية الاتحاد والترقي التابعة لـ «تركيا الفتاة»، تم تشكيل حكومة دستورية برلمانية تعكس الاتجاه المتزايد تجاه القومية التركية. واندلعت حروب البلقان بعد قيام الحرب العالمية الأولى، ما أدى إلى دفع العنصر العسكري لحركة «تركيا الفتاة» إلى الأمام لتأخذ الأمور ذروتها بالسيطرة على الأجواء السياسية في اسطنبول بما كان يعرف باسم «الحكومة الثلاثية لتركيا الفتاة»، وهم «أنور» و«طلعت» و«جمال باشا»، الذين قادوا العثمانيين إلى الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان، إلا أن هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الأولى أنهت تماماً صدقية «تركيا الفتاة»، وهو ما مهد الطريق إلى قيام حركة قومية جديدة تحت لواء ضابط عسكري يدُعى مصطفى كمال والذي عرف في ما بعد باسم «أتاتورك»، أي «أبو الأتراك»؛ ففي ظل حكم

«أتاتورك»، بدأ طريق تركيا نحو العلمانية ونحو اتخاذ الطابع الغربي على يد الحكومة القومية. ولهذا الغرض، أصبحت تركيا جمهورية مستقلة عام ١٩٢٣، مطيحة بالخليفة بعد ذلك بعام. ومع نهاية فترة ولاية العثمانيين التي امتدت على مدار ٦٠٠ عام، سقطت واحدة من أعظم الامبراطوريات الإسلامية إن لم تكن أعظمها على الإطلاق.

٣ ـ مصر تحت الحكم البريطاني

كما عانى الاقتصاد العثماني سوء إدارة السلطان عبدالعزيز، جاء الدور على مصر في عهد الخديوي إسماعيل الذي حكمها في الفترة بين عامي ١٨٦٣ و١٨٧٩، إذ فاقت رغبة إسماعيل في التحديث رغبة جده محمد علي، وقد وجد ضالته المنشودة في إقامة قناة السويس في عام ١٨٦٩، وكانت تكلفة هذا المشروع إضافة إلى مشاريع أخرى كإنشاء السكك الحديد وبناء دار للأوبرا، سبباً مباشراً في تزايد الديون الخارجية. ومع ظهور شبح الإفلاس، وجدت مصر نفسها فريسة السيطرة المالية البريطانية ـ الفرنسية، ومع ثورة عرابي عام ١٨٨١ ـ هذه الثورة الشعبية التي كانت بسبب التدخل الإنكليزي ـ وجدت مصر نفسها أمام واقع جديد بعد عامين، ألا وهو تعيين «إيرل كرومر» قنصلاً عاماً في مصر، وكان هذا الرجل هو الحاكم الفعلي لمصر حتى عام ١٩٠٧.

٤ ـ العرب ومأساة سايكس ـ بيكو

إلا أن التدخل البريطاني في المنطقة لم يقتصر على مصر، حيث أظهرت بريطانيا اهتماماً واضحاً لباقي رعايا الامبراطورية العثمانية وهم كثر.. بالملايين، ولم يكن الأمر مفاجأة حينما جذب انتباه بريطانيا بشكل خاص الشعوب التي أفاقت من وهم الحكم العثماني ورغبت بتحقيق استقلالها. ومن هؤلاء «شريف مكة» [حسين بن علي]، إذ أوضحت بريطانيا صراحة أنها على أتم الاستعداد للوقوف بجانب العرب ولديها الرغبة في مساعدتهم بالطرق الممكنة كافة. إلا أن الأمر الذي لم تفصح عنه، هو أن أي دعم ستقدمه إلى العرب في مسعاهم نحو الاستقلال والحرية، لم ينبع من منطلق حبها لمساعدة الغير ونزعاتها الخيّرة، بل كان الأمر خدمة لمصالحها السياسية فحسب. وفي عام ١٩١٦، وعلى غير علم من العرب، قامت بريطانيا بالتوقيع على اتفاقية سايكس ـ بيكو، وهذه الاتفاقية ما هي إلا مخطط لتقسيم الشرق الأوسط بعد زوال الحكم العثماني إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى، أصبح شريف مكة، الملك حسين ملك الحجاز، ومعه ظهرت خمسة كيانات سياسية كبيرة مصطنعة قطّعت من أوصال أماكن أخرى من الامبراطورية العثمانية، ألا وهي: فلسطين ولبنان وسوريا والأردن والعراق، وأصبح ولدا الملك حسين ملكين للأردن والعراق، ولكن تحت الحماية البريطانية، فحُكمت فلسطين مباشرة من الانتداب البريطاني، في حين سلمت كل من سوريا ولبنان إلى الفرنسيين.

٥ ـ حال إيران

كان وضع شرق الامبراطورية العثمانية إلى حد ما مختلفاً؛ فبينما لم تقع إيران بشكل فعلي تحت سيطرة أي قوة أوروبية، كانت محلاً للصراع العنيف بين إنكلترا وروسيا طوال القرن التاسع عشر. وإن جود حكومة مركزية ضعيفة لآل كاجار (Qajar)، التي كانت تضع نصب اهتمامها مصالحها الشخصية، سهّل الأمر على روسيا في أن تتحكّم وتسيطر على معظم منطقة القوقاز وأذربيجان. في حين استطاعت إنكلترا أن تضع قدمها على جنوب إيران من خلال عقود احتكارية عدة منحها إياها العرش الإيراني تحت إمرة ناصر الدين شاه (١٨٤٨ ـ ١٨٩٦)، الذي كان مفتوناً بكل ما هو غربي. ولقد وضحت بالفعل هذه السيطرة التجارية لروسيا وبريطانيا على إيران، عندما حصل بارون رويترز على العديد من الامتيازات في مجال الأعمال المصرفية والتعدين. ربما لم تكن إيران مستعمرة أوروبية بالمعنى الفعلي للكلمة، إلا أن كل ما نادت به إيران قبل عام ١٨٧٢، من مطالبات للاستقلال الاقتصادي والسياسي تبدو الآن مجرد شعارات جوفاء.

وكان الاعتراض على النفوذ والتدخل الغربي في إيران دائماً على لسان فقهاء وعلماء الشيعة الذين عرفوا باسم «العلماء»، وهو الاسم الذي يُساء ترجمته أحيانًا ليصبح «رجال الدين». وفي عام ١٨٩٠، حين منح اتحاد إنكليزي احتكار إنتاج وبيع التبغ، أصدر أحد كبار رجال الدين الشيعة فتواه الشهيرة بتحريم التبغ، وهو الأمر

الذي لاقى رواجاً كبيراً في كل أنحاء إيران وباقي المجتمعات الشيعية في الشرق الأوسط، وهو ما أسقط الامتياز.

استمر تدخل فقهاء الشيعة في السياسة حتى القرن التالي، حيث أدّوا دوراً مهماً ومؤثراً في الثورة الدستورية الإيرانية عام ١٩٠٥. إلا أنه مع اعتلاء «رضا خان» العرش وتعيينه على يد البريطانيين في عام ١٩٢٥، تحولت إيران إلى دولة علمانية ذات توجهات غربية، وقام الحاكم الجديد «رضا شاه» بتحجيم سلطة العلماء ومنع ارتداء الزي التقليدي الإسلامي لكل من الرجال والنساء؛ وفي إطار التحديث، بدأت مجموعة من الإصلاحات الاجتماعية والتربوية والسياسية الغربية.

٦ ـ العالم الإسلامي الأكبر

بعيداً عن حدود الامبراطورية العثمانية وإيران، فإن باقي بلدان العالم الإسلامي، تعرضت لدرجات متفاوتة من النهب من أوروبا خلال القرن التاسع عشر. وفي آسيا الوسطى، شهد النصف الثاني من القرن امتداد الأراضي الروسية حيث ابتلعت في طريقها خيوة وبخارى وكوكند والأقاليم المعروفة اليوم باسم كازاخستان وطاجكستان وتركمنستان.

وإذا اتجهنا جنوباً نجد بريطانيا قد أحكمت سيطرتها على الهند مع حلول عام ١٨٢٠، مانحةً المسلمين والهندوس حرية اتباع عقائدهم بما يتفق مع سياسة «اقسم واحكم». ومع حلول أواخر

القرن أحكمت بريطانيا السيطرة على ولايات مالاي، في الوقت الذي كان فيه الهولنديون يكملون استعمارهم لأندونيسيا. وفي أفريقيا، كانت الأمور كالتالي: بريطانيا لها الحكم المشترك على السودان مع مصر، كما سيطرت على معظم مناطق سلطنة سوكوتو لتضعَها ضمن الحماية البريطانية لشمال نيجيريا. أما الفرنسيون فنجحت مساعيهم، وضموا العديد من دول غرب أفريقيا في الفترة ما بين عامي ١٨٩٠ و١٩١٢، وهو العام الذي خضعت فيه المغرب للحماية الفرنسية.

٧ ـ رد فعل العالم الإسلامي

في الوقت الذي أثار فيه التدهور الداخلي للامبراطوريات الإسلامية الثلاث العظمى، العديد من ردود الفعل القوية بين علماء ومفكري المسلمين خلال القرن الثامن عشر، مؤدياً إلى ظهور حركات إحيائية كالحركة الوهابية؛ ضربت السيطرة الأوروبية على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر على الوتر نفسه وإن اختلفت النتائج. أخذت الاحتجاجات أحياناً شكل ثورات وانتفاضات تحت مسمى «الجهاد» أو «الحرب المقدسة الدفاعية» للنضال ضد الأوروبيين: ومن أهم الأمثلة على ذلك جهاد جنوب شرق آسيا ضد الهولنديين، وجهاد الطائفة السنوسية ضد الحكم الإيطالي في ليبيا، وحركة المهدي في السودان. أما في المناطق الأخرى من العالم الإسلامي، فقد شارك العلماء في الثورات الدستورية، كما حدث في إيران عام ١٩٠٥.

وكانت الرغبة الحقة في وحدة العالم الإسلامي، العامل المركزي الذي دارت حوله هذه الحركات، وهذا الشعور هو الذي انبثقت عنه التصورات والنظريات الأولية التي جعلت من الأمة المسلمة المحور الأساس للتضامن الإسلامي. وكان من أبرز من آمن ودعا إلى هذا، المفكر والصحافي والمحرض السياسي جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧).

٨ ـ جمال الدين الأفغاني

جاب جمال الدين الأفغاني الإيراني المولد والذي يعد من الشخصيات الغامضة التي لم تكتمل ملامحها حتى الآن، طول البلاد الإسلامية وعرضها، محذراً من الانقياد الأعمى للغرب، وكان يؤمن أن الضعف الذي حاق بالمسلمين لم يكن لعيب في الإسلام بل لِعيب في المسلمين أنفسهم؛ إذ افتقد أغلب المسلمين هذه النزعة الروحية والأخلاقية وهذا التفوق الفكري والعلمي، وهي الأمور التي أدت إلى قيام الامبراطوريات الإسلامية العظمى في الماضي. ووفقاً له، يمكن استعادة عظمة الإسلام بمساعدة التكنولوجيا والتعليم الغربي، لكن مع احتفاظ المسلمين بما كان لديهم من قبل من رواسخ روحية وثقافية؛ فمن دون رؤية جديدة للإسلام، لن يستطيع المسلمون أبداً استعادة تلك الحيوية التي اتسموا بها حين كانوا إحدى القوى العظمى المسيطرة على العالم، يوحّدهم مجتمع دولي واحد لا يتأثر باختلافات اللغة أو الثقافة أو المظهر.

أثّر الأفغاني في الفكر الإسلامي في آسيا الوسطى وتركيا العثمانية والهند. ولم تكن تعاليمه مصدر وحي ثورة عام ١٨٨١ في مصر فحسب، بل كانت كذلك للحركة الدستورية بأكملها في إيران.

٩ ـ محمد عبده

تبع محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) ـ تلميذ الأفغاني ـ نهج أستاذه نفسه، وهو رئيس جامعة الأزهر. آمن عبده أن خضوع العالم الإسلامي لقوى الغرب ليس لضعف بالإسلام بل لأن معظم المسلمين فقدوا النهج الحق للإسلام، ورأى في التقليد الأعمى سواء من حيث التعاليم الشرعية أم أسس الإسلام، السبب الأساس لتخلف المسلمين؛ فوفقاً له، ما يحتاج إليه العالم الإسلامي هو العودة إلى تعاليم الإسلام الحق، كما وردت بالقرآن والسُنّة، وكذلك السير على نهج السلف الصالح. وأطلق على حركة الإصلاح التي دعا إليها اسم «السلفية» وكان لها صدى مؤثر في مسلمي العالم. سعياً إلى التماثل مع العصر الذهبي للإسلام، ذلك العصر المثالي في كل شيء، عصر الرسول [ﷺ] والخلفاء الراشدين، دعت السلفية إلى التغيير المتبع لتعاليم الماضي حتى يرتفع شأن المسلمين في عصرنا هذا ليكون على مستوى ما كان في العهد المثالي في ما سبق، وإن كان ذلك يجب أن يتم بشكل يتوافق مع روح التقدم العلمي والاجتماعي الذي يعيشه الغرب. إن هذا عن حق هو «الحلم بالمدينة» ولكنه حلم يدخل فيه تراث النبي [ﷺ] في إطار من المعاصرة، حيث يجتمع كل ما يمكن أن يقدمه العلم والتكنولوجيا.

ثالثاً: التحرر من الاستعمار والإحيائية الجديدة

إذا كان القرن التاسع عشر قد جاء بالعديد من الويلات على المسلمين، وأصبحت خلاله معظم أجزاء العالم الإسلامي خاضعة لسيطرة أوروبية مباشرة، فحلول القرن العشرين كان بمثابة الأمل الجديد للأمة.

إلا أن الأمور المتدهورة في العالم الإسلامي بدأت في التحسن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى؛ حين بدأ الأتراك العثمانيون والإيرانيون وهم من لم يخضعوا رسمياً لاستعمار القوى الأوروبية، بحل مشاكلهم الداخلية، واستطاعوا تدريجياً الإمساك بزمام الأمور، إلا أنه حتى هذا الوقت لم تستطع العديد من الشعوب المسلمة التخلص من السيطرة الأوروبية حتى تتمكن من امتلاك مصيرها بأيديها؛ وخدمت مسيرة التخلص من الاستعمار التي شهدها العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين هذا الغرض وأتاحت الفرصة لأغلب المسلمين للتحرر من السيطرة السياسية المباشرة للأوروبيين.

كانت مصر من أوائل مناطق الامبراطورية العثمانية التي حققت استقلالها، فعندما دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى كحليفة لألمانيا، أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، واعدة بالسماح بدرجة من التغير السياسي بمجرد انتهاء الحرب. ودعماً لفكرة تحقيق الاستقلال الذاتي قام قوميون مصريون بتكوين جماعة «الوفد» في عام ١٩١٨، للتخطيط لنيل استقلال مصر، إلا أن بريطانيا نكثت بوعودها وقامت بنفي زعيم حزب الوفد وكان الرد وقتها ثورة

وانتفاضة عارمة شملت الشعب المصري كله، واستمرت الاضطرابات حتى عام ١٩٢٢، حتى أعلنت بريطانيا مصر أخيراً مملكة مستقلة تحت حكم الملك فؤاد الأول.

وبعد أعوام عدة، ظهرت المملكة العربية السعودية الحديثة على الساحة. خروجاً من منفاه في الكويت، استعاد آل سعود عاصمتهم القديمة الرياض في عام ١٩٠٢، وفي عام ١٩٠٦، استطاعت قوات عبد العزيز آل سعود إحكام السيطرة الكاملة على نجد، وأخذ منطقة الأحساء في عام ١٩١٣، ومكة في عام ١٩٢٤، والمدينة في عام ١٩٢٥، وعسير في عام ١٩٢٦. وبعدها نصّب نفسه ملكاً على الحجاز قبل معاودة مسيرته في توحيد الأراضي التي استعادها؛ وفي عام ١٩٣٢، أطلق على مملكته اسم العربية السعودية.

وجاء بعدها دور العراق وسوريا والأردن ولبنان، وهي تقسيمات تخيلية كانت من قبل جزء من الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. والتحقت العراق، التي كانت تحت الانتداب البريطاني في ما سبق، بعصبة الأمم كعضو مستقل وحر في خريف عام ١٩٣٢، وأصبحت سوريا عضواً بالأمم المتحدة في عام ١٩٤٥، بعد قيام شعبها بثورات أدت إلى تدخل عسكري بريطاني وجلاء للقوات الإدارية الفرنسية. وبعدها بعام أسقطت بريطانيا انتدابها في شرق الأردن والتي عُرفت كدولة مستقلة ذات سيادة، وأطلق عليها اسم الأردن بعد ذلك بأربعة سنوات، وشهدت لبنان عام ١٩٤٦ جلاء آخر القوات الفرنسية عن أراضيها، وبذلك حصلت على استقلالها التام.

أما استقلال المناطق الأخرى في العالم الإسلامي، فاستمر بعد الحرب العالمية الثانية، وظهرت دولة باكستان على الساحة عام ١٩٤٧، وبعدها بعامين إندونيسيا، وأصبحت ليبيا دولة ملكية مستقلة في عام ١٩٥١. وفي عام ١٩٥٦، تحررت كل من المغرب وتونس بعد سنوات من السيطرة الاستعمارية الفرنسية، وحصلت السودان على حريتها من بريطانيا، وفي العام نفسه تحررت مصر. أصبحت مالايا دولة مستقلة عام ١٩٥٧. وعام ١٩٦٠، حصلت العديد من الدول الأفريقية ذات الأغلبية المسلمة على استقلالها ومنها مالي وموريتانيا والنيجر ونيجيريا والصومال وفولتا العليا المعروفة الآن باسم «بوركينا فاسو». وأخيراً في عام ١٩٦٢، استطاعت الجزائر التحرر من قيود الحكم الفرنسي وكان ذلك بعد نضال استمر ثمانية أعوام نتج منه مليون شهيد وما يقرب من ٢ مليون لاجئ.

١ ـ القضية الفلسطينية

ظهر تيار آخر معاكس للتيار العام للتحرر من الاستعمار، والذي استمر لسنوات عدة من الاضطراب والكفاح في العالم الإسلامي، ألا وهو قيام دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية عام ١٩٤٨. كانت بريطانيا قد انتزعت فلسطين من الأتراك العثمانيين في نهاية الحرب العالمية الأولى بمساعدة العرب الذين حصلوا على وعد من بريطانيا باستقلال فلسطين بمجرد انتهاء الحرب، إلا أن بريطانيا أصدرت وعدين آخرين يتناقضان بشكل كامل مع هذا

الوعد، وجاء **الأول** في اتفاقية سايكس ـ بيكو التي أبرمت مع كل من فرنسا وروسيا عام ١٩١٦، والتي تعهدت فيها بريطانيا بتقسيم المنطقة وحكمها مع حلفائها. و**الثاني**، في وعد بلفور الذي صدر في العام التالي، والذي وعدت فيه بريطانيا اليهود «بوطن قومي» لهم في فلسطين، هذا الوعد الذي دعمه وجود فلسطين تحت الانتداب البريطاني عام ١٩٢٢. وليس من المدهش أن يرفض الفلسطينيون العرب حق بريطانيا في التوقيع على أحقية أرضهم لطرف ثالث، وهكذا قامت سلسلة من الانتفاضات المضادة للصهيونية. إلا أن بريطانيا رفضت محاولة الصهاينة اعتبار كامل فلسطين حقاً لهم، ولكنها أعادت التأكيد على دعمها لليهود وتكوينهم لوطنهم القومي الجديد. وعلى الرغم من الثورات العربية والإجراءات التي اتخذتها بريطانيا للحد من أعداد اليهود الذين يدخلون فلسطين، إلا أن الهجرة اليهودية قد زادت وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. وفي ظل عدم القدرة على إيجاد حل للمشكلة التي تسببت فيها، ألغت بريطانيا الانتداب على فلسطين وفي نيسان/أبريل ١٩٤٧، دعت بريطانيا الأمم المتحدة إلى النظر في الأمر.

وعلى الرغم من حقيقة أن عدد الفلسطينيين من السكان الأصليين كان ضعفي عدد اليهود، فاليد العليا كانت لليهود في ما تم بعد ذلك، بالحصول على دعم من الحكومة الشبه مستقلة التي كان يقودها الاجتماعي ديفيد بن غوريون (١٨٨٦ ـ ١٩٧٣)، ومن منظمة عسكرية ذات كفاءة عالية تُدعى الـ «هاغاناه»، كان استعداد

اليهود أفضل بكثير من العرب الذين لم يكونوا قد استفاقوا من تبعات الثورات التي كانت تحدث على مدار عقد مضى. وعندما اقترحت الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية، رفض العرب الخطة في الوقت الذي وافق فيه اليهود. وفي الحرب التي تبعت ذلك، عانى العرب هزيمة ساحقة. وفي ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨، تم إعلان قيام دولة إسرائيل.

ومنذ ذلك الحين والصراع القائم بين إسرائيل وجيرانها من العرب هو إحدى السمات المميزة لتاريخ منطقة الشرق الأوسط، وذلك في ظل الدعم الكبير الذي يقدم إلى الدولة الصهيونية من الدول الغربية وبخاصة من الولايات المتحدة، ذلك الدعم الذي يعد بالنسبة إلى العديد من المسلمين دليلاً لعزم الغرب على التواجد في قلب الشرق الأوسط المسلم وإن كان بشكل غير مباشر من خلال هذه الدولة، وكان قيام دولة إسرائيل بمثابة الشوكة في جانب ليس العرب فحسب في منطقة الشرق الأوسط، بل في جانب المسلمين في أنحاء العالم بأكمله، فالعديد منهم، سواء أكانوا على خطأ أم صواب، يدرك وجود أجندة سياسية للتحالف الأمريكي ـ الإسرائيلي تلعب دائماً على وتر ما تم من معاملة لليهود على يد النازيين في السنوات التي سبقت قيام الحرب العالمية الثانية. وفي الحقيقة فإنه عندما يصف قادة العالم أمثال جورج دبليو بوش بعض جوانب التدخل في منطقة الشرق الأوسط على أنها «كالحرب الصليبية»، فإنه ليس من الصعب علينا فهم ما قد يجعل من العداوة للإسلام السبب الذي قد يراه بعض المسلمين وراء السياسة الخارجية الأمريكية.

أحد مآسي القضية الإسرائيلية ـ الفلسطينية هو وجود مجموعات من الجانبين ليست على وعي كافٍ، ترى الصراع على أنه صراع ديني، وأن إسرائيل كيان صهيوني وليس يهودياً. والحقيقة تقال، هناك العديد من اليهود القوميي العقيدة مثلهم مثل الفلسطينيين يعارضون قيام دولة إسرائيل، كما إنهم يعبرون عن استنكارهم لانتهاكات حقوق الإنسان التي يقوم بها النظام الصهيوني ضد من يعيشون تحت براثن الاحتلال، إلا أنه للأسف هناك العديد من المسلمين ممن لم يدركوا ذلك ويرون احتلال فلسطين اتجاهاً مضاداً للإسلام، وهذا ما يضيف إلى نيران الاضطراب الديني في المنطقة، ومع رحيل ياسر عرفات وتحالف كل من بوش وبلير وعزمهما ـ كما يقولون ـ على إعادة السلام إلى المنطقة، علينا انتظار ما في جعبة القدر للمحاصرين في الأرض المقدسة.

٢ ـ التحرر من الاستعمار وخيبة الأمل

على الرغم من أن معظم العالم الإسلامي كان قد تخلّص من الاستعمار الأوروبي بحلول منتصف القرن العشرين. وبالنسبة إلى العديد من المسلمين، كان هذا التحرر ما هو سوى واجهة فوضوية محاولة تجميل الأمور، الغرض منها تهدئة المسلمين، ومنحهم هذا الشعور الكاذب بالأمان، ففي الوقت الذي كانت تنال فيه الدول الإسلامية استقلالها الواحدة تلو الأخرى بسرعة مقبولة، كانت هناك حقيقة غير مستساغة متنامية لم تخف على أحد في معظم حالات

الاستقلال المتتالية، ألا وهي أن من قاد هذه الشعوب نحو التحرر ما هم سوى في الأغلب أفراد تلقوا تعليمهم في الغرب ويحملون توجهات غربية، وعلى الرغم من أن استيلاءهم على السلطة قد دل بالفعل على النهاية الرسمية للسيطرة الأوروبية على مسلمي الشرق الأوسط، فكونهم نتاج للغرب يعني أنه من السهل نسبياً على أوروبا، وبالأحرى من السهل على الولايات المتحدة أن تستمر في السيطرة على المنطقة من خلالهم، فالمساعدات الاقتصادية وكثرة المشروعات الصناعية والزراعية والتعليمية ما هي إلا بعض الآليات التي تستخدمها القوى الغربية للحصول على درجة من السيطرة على المستعمرات السابقة. وكذلك على الدول التي لم تُستعمر من قبل بالمعنى الحرفي للكلمة مثل إيران. وتدريجياً أصبح من الواضح للعديد من المسلمين في الشرق الأوسط أنهم لم يتخلصوا بالكامل من براثن الاستعمار الغربي.

رابعاً: الإحيائيون الجدد

إن تطوير الشرق الأوسط المسلم المستقل، قد توازى مع ظهور الاتجاه الذي يتميز بالإحياء الجديد، وهو الاتجاه المدعوم من الإدراك المتزايد بأن العالم الإسلامي، وعلى الرغم من استقلاله الواضح، لا يزال خاضعاً للسيطرة الغربية حتى وإن كان هذا الأمر ضمنياً. ولم يكن يهدف الإحيائيون الجدد إلى أقل من النجاح في إحداث تحول كامل في المجتمع وفقاً لما يرونه من أطر إسلامية. ولهذا

الغرض، مزجوا ما بين التعاليم الأخلاقية والشرعية للقرآن مع النشاط الاجتماعي العلني والجذري أحياناً. وبالنسبة إلى الإحيائيين الجدد، فإن الإسلام هو عبارة عن «أسلوب كامل للحياة»، بمعنى أنه أيديولوجية كاملة قادرة على رفع العالم الإسلامي من ظلام الجهل والخرافات والأساطير الذي وقع فيه. إلا أنه على غير شاكلة الإصلاحيين المعاصرين منذ قرن مضى، فهم لم يعيدوا تفسير الإسلام لكي يتواءم مع الأفكار الغربية. وفي حين كان نظر هؤلاء الإصلاحيين الأوائل موجهاً ناحية الغرب، حيث كانوا يحاولون توفير المنطق القرآني لكي يتناسب مع أكثر العناصر المفيدة في التعليم الغربي والثقافة. أكد الإحيائيون الجدد كمال الإسلام وشمولية تعاليم القرآن الذي لا يتناقض مع التقدم والتكنولوجيا والثمار الأخرى للحداثة، وأرادوا التقدم وفقاً لمعايير الإسلام وشروطه وليس ما يمليه الغرب.

ـ الحلم بالمدينة: البنّا والمودودي

لقد تميزت الإحيائية الجديدة بحركتين استمرت تأثيراتهما حتى اليوم الحالي. هما حركة الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية.

تأسست حركة **الإخوان المسلمين في** عام ١٩٢٨، على يد مدرِّس مصري يدعى حسن البنا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩). بدأت الحركة كجماعة من الشباب، كان هدفها منذ البداية هو تجديد الأخلاق. إلا أنه مع نمو النشاط الصهيوني في فلسطين، بدأت الحركة في مناصرة بعض القضايا السياسية. وفي عام ١٩٣٩، تحولت الحركة إلى حزب

سياسي، بأهداف بسيطة تتلخص في تحرير العالم الإسلامي من السيطرة الأجنبية والتوصل إلى حكومة إسلامية حقيقية. وفي عام ١٩٤٨، تم حظر نشاط الحركة بسبب انتقادها وإلقائها اللوم على الحكومة المصرية لانتصار الإسرائيليين على العرب، ما دفع واحداً من أعضاء الإخوان إلى اغتيال رئيس الوزراء المصري حينذاك. وكرد فعل انتقامي قامت عناصر من الحكومة بقتل البنّا، وذلك على الرغم من قيامه شخصياً بشجب واستنكار عملية اغتيال رئيس الوزراء. وبعدها بعام تم رفع الحظر عن الإخوان المسلمين وعلى مدار سنوات كانت هناك هدنة يشوبها الحذر بين الحركة والحكومة التي قامت بخلع الملك فاروق في عام ١٩٥٢. إلا أن مشاركة الإخوان المسلمين في محاولة اغتيال جمال عبد الناصر في عام ١٩٥٤، أدى إلى إعدام أربعة من أعضاء الحزب واعتقال آلاف آخرين، وكان كلما تزايدت معارضة الحكومة للحركة، زاد دعم واهتمام الشعب للحركة، وظهر لها أفرع في العالم الإسلامي.

ولقد تزامن نمو حركة الإخوان المسلمين في مصر مع **الجماعة الإسلامية** في شبه القارة الهندية، التي تأسست عام ١٩٤١، على يد مولانا المودودي (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩) كوسيلة لمعارضته لمطالب الاتحاد الإسلامي لقيام باكستان، وهو ما رآه اتجاهاً غير إسلامي يشجع القومية الهندوسية، وبعد التقسيم عام ١٩٤٧، أُجبر المودودي على الانتقال إلى باكستان حيث أصبحت الجماعة شوكة عالقة في جانب الحكومة.

هناك أوجه شبه عديدة ما بين الأفكار الأيديولوجية والسياسية لكل من البنا والمودودي، إذ استطعنا من خلال تعاليمهما التعرف إلى الدعوة الأولى الواضحة في العالم الإسلامي الحديث لقيام «دولة إسلامية» على أسس دينية، فكلاهما يدعو إلى التنفيذ الكامل للشريعة، لإيمانهم بقيمتها الحقيقية كخطة الله المعدة للبشرية، وكطريقة للتخلص من الإمبريالية الغربية من أراضي الإسلام، وتبعاً لما قاله المودودي، فإن الدولة الإسلامية سيحكمها فرد واحد ـ وهي عودة الخلافة ـ ما دام أن هذا الفرد يتفق مع أيديولوجية الدولة والتي هي أيديولوجية الإسلام، وسيساعده في حكمه العلماء من القادرين على تفسير الشريعة.

تم تجاهل برنامج المودودي وتصوره للدولة الإسلامية لعقود طويلة، إلا أنه وبعد فقدان شرق باكستان ـ بنغلادش ـ في عام ١٩٧١، بدأ العديد بالتفكير في الإسلام كوسيلة لقيام دولة، وظل المودودي من أكثر الأشخاص الذين يتمتعون بحب المسلمين له حتى بعد مماته بخمسة وعشرين عاماً، كما أن تأثيره في الفكر السياسي الإسلامي الحديث لا يمكن المغالاة في تقديره.

خامساً: العالم الإسلامي اليوم

اليوم ونحن في أواسط العقد الأول من القرن الواحد والعشرين من التقويم المسيحي، نجد الانتماء الاسمي للإسلام أصبح ظاهرة عالمية، إذ يمكنك السفر من المحيط الأطلسي في الغرب عبر

نطاق واسع من الأرض التي تمتد عبر أفريقيا الشمالية وخلال الشرق الأوسط إلى آسيا الوسطى قبل التوجه جنوباً إلى المحيط الهادي عبر المناطق الشمالية لشبه الجزيرة الهندية وشبه جزيرة مالاي، ومجموعة الجزر الإندونيسية من دون ترك عالم المسلمين. واليوم فإن تعداد من يعتنقون الإسلام قد وصل إلى بليون فرد، ويمثل المسلمون أغلبية عدد السكان في ما يزيد على ٤٠ دولة، كما يمثلون أقلية في العديد من الدول الأخرى بما في ذلك العديد من دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وبعد ١٤٠٠ سنة من موت النبي محمد [ﷺ]، استمرت العقيدة الإسلامية في الاتساع بسرعة كبيرة أكثر من أي ديانة أخرى من الديانات العالمية.

١ ـ «ازدراع» الإسلام

إن هجرة أعداد كبيرة من المسلمين إلى أجزاء متنوعة من أوروبا، وكذلك هجرة «العمالة غير الدائمة» التركية إلى ألمانيا، وكذلك الجزائريين والمغاربة والتونسيين إلى فرنسا، وأعداد كبيرة من شبه الجزيرة الهندية إلى المملكة المتحدة، إلى جانب بعض الأحداث الأخرى كزيادة أسعار النفط في منتصف السبعينيات، وكذلك النهضة المصاحبة للدول العربية، كممثلين أساسيين على المسرح السياسي العالمي، أدت إلى تكوين نظرة عن الإسلام وعن العالم الإسلامي لدى الغرب. كما شاعت المصطلحات الإسلامية في كل مكان بدءاً من «آية الله» وفتواه في أخبار المساء حتى الإمام

المجاور له، وحملته لتقديم لحم حلال في المدارس الابتدائية المحلية. فالإسلام فرض نفسه بطرق متنوعة فيْ كل مكان من القرية العالمية، من خلال مسلمين يتمتعون برؤية غير مسبوقة في تاريخهم المتراكم.

٢ ـ صورة الإسلام في الغرب

لسوء الحظ، إن أحد طرق تأثير عالم الإسلام على الغرب، تُعتبر ضعيفة مقارنة بالطريقة التي ينظر بها الأفراد الأوروبيون أو الأمريكيون إلى جيرانهم المسلمين، أو علاقتهم على المستوى اليومي بأصدقائهم المسلمين أو بزملائهم في مكان العمل. ولعلها حقيقة واقعة أنه على مدار الخمسة والعشرين عاماً الماضية عموماً ـ والخمس سنوات الأخيرة خصوصاً ـ فإن المسلمين قد أصبحوا في بؤرة التركيز لموجة سلبية ومعادية للإسلام أحياناً ظهرت في الصحافة، وقد كانت بالفعل قبل أحداث ١١ أيلول/سبتمبر، وهو ما سنناقشه في نهاية هذا الفصل.

إن النظرة الغربية إلى الإسلام على أنه دين قاس ليس به تسامح يتطلب طاعة عمياء صارمة من أتباعه والذين إذا ما دُفعوا لن يترددوا في نشر معتقداتهم بالعنف والإرهاب، هي نظرة لا تقتصر على مسيحيي القرن العشرين؛ فالخوف من الإسلام والمسلمين، أو ما يعرف باسم «فوبيا الإسلام» يمكننا رؤيتها اليوم بوضوح أكثر من أي وقت مضى. منها الرسوم التصويرية للمسلمين كشياطين تأكل الأطفال وهو ما كان سائداً أيام ريتشارد قلب الأسد، وبعدها بثمانمئة

عام طالعتنا أعمال عن الإسلام ظاهرها خطير، حيث حملت أغلفتها صور رجال دين يحملون السلاح، أو صور إرهابيون يرتدون «البالاكلافا»، ويكونون في الغالب خلف ستار تفجير السفارات أو اختطاف الطائرات. في الوقت الذي تقع مسؤولية تكوين مثل هذه الصورة السلبية على الصحافة الموجزة والمثيرة، المستعدة دائماً لإثارة خوف القراء من المجهول، إلا أن هناك جانباً أخر من مسؤولية التشويه تقع بشكل أكبر على الكُتاب والأكاديميين الذي يجب عليهم أن يعرفوا أكثر من ذلك. وعلى ما يبدو فإن العالم الإسلامي اليوم هو الشبح الجديد المخيف والذي يصدّنا كلما اقتربنا، بحسب كلمات أحد الأكاديميين من «نهاية التاريخ».

وعلى ذلك فإن فكرة الإسلام كدين لا ترفض استخدام العنف لتحقيق أهدافه، كما إنها لا تخدم مصالح الغرب فحسب. فعلى مدار الخمس وعشرين سنة الماضية، كان هناك تضخيم لمشاهد الجماعات العسكرية والمقاتلين في العالم الإسلامي والتي كانت تلوح بالعنف ـ وأحياناً تستخدمه ـ كوسيلة لتحقيق أهدافها،حتى وإن كان ذلك في الصراعات الداخلية كما حدث في الجزائر وأفغانستان، أو في الكفاح ضد الأعداء الخارجيين كالاضطرابات المستمرة في فلسطين المحتلة والأراضي المحيطة، في حين أن هناك جماعات أخرى غير مشهورة باستخدام العنف صراحة إلا أنه من المتوقع منهم استخدامه عندما يقومون بإجبار أفراد الشعب لديهم على الالتزام بمعتقداتهم وهم من يطلق عليهم اسم حركات «الأصولية

الإسـلامـيـة»، مـثـل الـذيـن تـوصـلـوا إلى الحكـم في إيـران والسـودان وأفغانستان على مدار ربع القرن الماضي.

تشترك جميع هذه الجماعات في سمتين، **أولاهما**، أنه كما هو الحال مع جميع الإحيائيين الذين سبقوهم، فإنهم يعبّرون صراحة عن الرغبة في العودة بمجتمعاتهم إلى الحكم السلفي، وذلك من أجل حل المشكلات الكثيرة التي هي عبارة عن نتيجة لإيقاع العصر السريع والتقليد الأعمى للثقافات المغايرة ولسيطرة الغرب، **وثانيهما**، قوة تأثيرهم في مجريات السياسة العالمية، عادة ما يُنظر إليهم أنهم ممثلو الإسلام وممولوه.

٣ ـ الإسلام السياسي وجذوره

إن ما تمثله هذه الجماعات ليس إسلاماً ولكنه إسلام سياسي، ألا وهو جعل الإسلام مبدأ سياسي وتحويله إلى أيديولوجية، ويجب أن نضيف أنه لوقف الاتهامات بعدم الدقة على أساس أن الإسلام في الأصل يحمل الطابع السياسي، فهذه الجماعات تمثل مظهراً واحداً مـن مـظـاهـر «الإسـلام السيـاسـي» فـحـسب؛ فـبالنسبة إلى «الإسلام السياسي» أو «النشاط السياسي المسلم»، فإنه يأتي على أشكال عدة وليس كوحدة مصمتة، كما يوصف الأمر في الأغلب، وعلى الرغم من أن الإسلام السياسي محوره الأساسي سياسات السلطة والحكم، فـإنـه يـتـميز بالتنوع، ففي حين تتشـابه أهداف مختلف الجماعات الإسلامية وتتفق مع محور ارتكاز واحد وهو العودة «إلى الحكومة الإسلامية»، تختلف الاستراتيجيات التي تتبناها كل منهن من أجل

تنفيذ أهدافها، وفي الواقع فإن هناك أنواعاً متعددة من الإسلام السياسي كما هو الحال في الإسلام نفسه.

ويعد الإسلام السياسي إلى حد كبير أحد نواتج عملية إعادة التأكيد العام على هوية المسلمين والذي تمّ على مدار نصف القرن الماضي، هذا الإحياء لروح المسلمين الجماعية، أو ما يُسمى بـ«الطفرة الإسلامية»، ظهر كرد فعل لمجموعة من العناصر الداخلية والخارجية، إذ ساهمت كل من مشكلات المعاصرة المتسارعة، وعدم قدرة الحكام المحليين على القضاء على الفقر والهجرة من الريف إلى الحضر، والعولمة والتواصل مع العالم الأكبر غير المسلم وعدم القدرة على فرض وسائل تطوير وثقافات جديدة في ظهور المشكلات، والتي نظراً إلى فشل العلاجات العلمانية كالحركات الاشتراكية والقومية، دفعت العديد من المسلمين للنظر إلى هويتهم كتابعين لدين الإسلام للبحث عن حلول لمواجعهم.

وما بين الخمسينيات والتسعينيات من القرن العشرين، ظهرت أحداث عدة على المستوى العالمي كعوامل محفزة على إعادة التأكيد على هوية المسلمين، فحرق المسجد الأقصى في القدس عام ١٩٦٩، على سبيل المثال أدى إلى تكوين حركة سياسية جديدة بالكامل كانت ذروتها مع تكوين منظمة المؤتمر الإسلامي والذي تجمع من خلالها وزراء الخارجية من مختلف بلدان العالم الإسلامي، إضافة إلى بنك التنمية الإسلامي ومؤسسات أخرى تختص بالقضايا العلمية والثقافية والتربوية والاقتصادية، ليعبروا عن قلقهم بشأن وحدة الأمة

الإسلامية، وبعدها، بدأت الجماعات والمؤسسات الدينية والجماعات المتخصصة في بلدان العالم الإسلامي، بالانتباه إلى الإسلام ودوره كبديل اجتماعي قابل للتطبيق لما فشل من أيديولوجيات في الماضي.

على الرغم أن الحرب التي قامت بين العرب وإسرائيل عام ١٩٦٧، كانت بمثابة نكسة سياسية، فأنها اكتسبت أهمية من الناحية الأيديولوجية، حيث كانت علامة على التحول من القومية العربية إلى البحث عن هوية إسلامية ثابتة قد توفّر أساساً أكثر ثباتاً للوحدة والتعاون بين مسلمي العالم؛ وقد مثلت «الثورة الإسلامية» لإيران عام ١٩٧٩، نقطة فاصلة لها أهمية كبيرة، وأياً كانت وجهة نظرنا للاتجاه الذي تحولت إليه ثورة آية الله الخميني بعد موته عام ١٩٨٩، فإننا لا يمكن أن ننكر حركته تلك المضادة للشاه وما تلاها من قيام أول حكومة دينية منتخبة ديمقراطياً في التاريخ، ما أدى إلى تعزيز الروح المعنوية للمسلمين والإسلاميين السياسيين في أنحاء الأمة كافة، ما أضفى على العديد الشعور أن الإسلام قادر على الاستجابة بنجاح إلى مشكلات العالم الإسلامي المعاصر؛ فالثورة الإسلامية في إيران برهنت بالنسبة إلى كثيرين أن «الحلم بمجتمع المدينة» يمكن أن يكون حقيقة إذا ما سعى الإنسان بجدية إلى تحقيق ذلك.

في الوقت الذي يجذب فيه الإسلام السياسي العناوين كافة، هناك تيارات اجتماعية وفكرية أخرى ظهرت في العالم الإسلامي تستحق الانتباه بدرجة مساوية؛ ففي إيران، على سبيل المثال، حيث

ينظر من خارجها إلى التجربة الإسلامية على أنها نموذجية، إلا أن الحماسة للعقد الأول من الثورة قد أفسح الطريق في السنوات القليلة الماضية إلى منهج أكثر عملية وأكثر توافقاً للقضايا المحلية والدولية، وإلى سياسة أكثر واقعية وعملية ترتكز على الوعي المتزايد بأنه يجب التعايش مع الجيران من الدول الأخرى، وأنه يجب قبول الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وأن الخلافات الأيديولوجية غالباً ما يمكن حلها إذا ما دارت الأمور بسلاسة في حكومة إسلامية معترف بها.

٤ ـ الإسلام الليبرالي

إن تصحيح الأوضاع التدريجي لإيران ـ بغض النظر عن موقفها مع الولايات بالنسبة إلى الملف النووي ـ هو جزئياً نتيجة الاعتراف الطبيعي بالحدود التي تصل إليها الحركات الثورية كافة، كما إنه جزئياً نتيجة النمو، داخل إيران بل أيضاً في باقي العالم الإسلامي الخاص، للاتجاه الإصلاحي الجديد بين المفكرين والأكاديميين المسلمين، الذي يتخذون قوته من القدرة الفطرية للإسلام على التجدد، ونفس روح التحليل النقدي الذاتي اللذين شجعا كلاً من الحركة الإحيائية في نهاية القرن الثامن عشر، وحركة الحداثة في نهاية القرن التاسع عشر، وهو ما عرف باسم «الإسلام الليبرالي».

ظهرت حركة «الإسلام الليبرالي» نتيجة أفكار وكتابات مجموعة من الأكاديميين والمفكرين الملتزمين بتعاليم الإسلام، لكنهم

يرون في الإسلام السياسي تمثيلاً خاطئاً للمفهوم المثالي الوارد في القرآن، فوفقاً لهم أن هذا الأمر لا يعني الفهم الليبرالي للوحي الإسلامي فحسب، بل يتعلق أيضاً بأن يأمر الإنسان باتباع الأسلوب الليبرالي في الأمور الإسلامية كافة. وعلى ذلك إن مؤيدي حركة «الإسلام الليبرالي» تناصر قضايا مثل حرية الخطاب وحرية اختيار ديانة الفرد وعدم الإكراه على اتباع تعاليم الإسلام ما لم يكن الإنسان ملتزماً ومتديناً، وكذلك حرية ممارسة الاجتهاد، وهي ـ كما يدعون ـ حقوق يكفلها كلها القرآن نفسه. كما ناقشوا أموراً أخرى، منها مسألة الديمقراطية وفصل «الدين» عن الدولة والمعنى الحقيقي للعلمانية، ومسألة الجنسين وحقوق المرأة والأقليات الدينية، وحماية البيئة ومفهوم التقدم الإنساني.

أصبحت حركة «الإسلام الليبرالي» محور اهتمام كبير وبخاصة مع انتشار التعليم في العالم الإسلامي ومع تنامي الاتجاه نحو تطبيق الديمقراطية، ورفض العديد من المسلمين المتعلمين الاتجاه الذي يتخذه الإسلام السياسي، كطبيعة الأمور، فكما «للإسلام الليبرالي» من مؤيدين فهناك من يرفضه، ويرى البعض في المجموعة المتفرقة لهذه الأيديولوجيا، الترويج لكتاباتهم وتعاليمهم، مدافعين عن الدين، هدفهم الرئيس ليس خلق «دولة إسلامية» فحسب، بل تكييف الإسلام مع الحداثة، وذلك لتشجيع اتجاهات سياسية قد تجد لها مكاناً بين القيم المسيطرة على العالم التي يتبناها الغرب مثل الديمقراطية الليبرالية والعلمانية، ويرى العديد من المسلمين المحافظين «الإسلام الليبرالي»

كحركة غير إسلامية، في حين يؤكد صنّاع السياسات في الغرب الذين عادة ما يؤيدون أهدافها أنها ليست ليبرالية بالدرجة الكافية.

وتحاكي هذه الانتقادات رد الفعل لحركة الإصلاح الحديثة في بداية القرن العشرين، حينما واجه الإصلاحيون المسلمون اتهامات أقرانهم التقليديين على أنهم «أعوان الشيطان». وإذا كان على الناس في العالم الإسلامي أن يحيوا ويزدهروا في هذه القرية العالمية التي تتضاءل جوانبها يوماً بعد يوم من موضع قوة وكرامة، فإنه من الواضح أن الإصلاح هو ما يجب أن يتم. وما إذا كانت حركة «الإسلام الليبرالي» ستؤدي دوراً مهماً في مستقبل العالم الإسلامي أم لا، فهو أمر علينا الانتظار لنرى تبعاته. ويكفي القول إن هناك من المسلمين من يشعر بعدم الارتياح تجاه الإسلام السياسي، ويرى في الإسلام الليبرالي مأوىً آمناً لأفكارهم؛ وهناك من يرى أن كلاً من الإسلام السياسي والإسلام الليبرالي عاملين متكاملين للسياق نفسه للسلطة، يتراهنان لمعرفة أيهما أصلح وأقرب للحقيقة، وأيّ من تفسيرهما لما ورد في القرآن سيسود، كما إن هناك البعض وإن كانوا أقلية صامتة ينظرون في حيرة مع الاستمرار بعيداً عن سياسة هذا التوجه الفارسي، هذا «الطفل المجهول الأبوين»، والسعي إلى عيش بأفضل السبل الممكنة، وهي الحقيقة التي يفندها الآخرون بمثل هذه السرعة.

سادساً: خاتمة ـ الإسلام والإرهاب

على الرغم من أن هذا الموضوع بعيد عن موضوع الكتاب، إلا أنه لا بد وأن تكون به كلمة عن الموضوع المثار حول «الإرهاب

الإسلامي»، هذا الوحش الذي أطل علينا برأسه في الأعوام الخمسة والعشرين الماضية، وعلى ما يبدو فإن هذا الوحش ينتمي إلى سجلات تاريخ «الغابة»، وليس إلى سجلات التاريخ العادية، فكلما حاول الفرد منا إلقاء اللوم على من يزعم بوجوده أو يدحض المزاعم بوجوده، كلما ازدادت حدته وظهوره كشبح مخيف. وحتى مع تسليم المحللين الغربيين أن تنظيم القاعدة أو «الجماعات الإرهابية» ليس لها وجود فعلي، كما هو الحال بالنسبة إلى جيش التحرير الإيرلندي أو انفصاليي الباسك؛ فقد قام هؤلاء المحللون أنفسهم باتخاذ موقف سلبي من المزاعم التي تقول إن الإرهابيين المسلمين مستعدون لإنزال أقصى صنوف العذاب والمعاناة على المدنيين الغربيين الأبرياء.

إن مصطلح «الإرهاب الإسلامي» ليس منطقياً على الإطلاق؛ فحتى مع التأويلات والتفسيرات غير الصحيحة للآيات القرآنية التي تتحدث عن «قتل غير المؤمنين في أي مكان تجدهم»، فسنواجه بحقيقة غير مستساغة وهي أن القرآن يقر القتال، بل وإذا ما تم تفسيره بطريقة معينة يمكن أن يكون معطياً الضوء الأخضر للحرب العدوانية الهجومية أكثر من الحرب الدفاعية، ولكن دعونا نقول لأجل المناقشة إن القرآن قد شجع هذا النوع من الهجوم على أعدائه، أليس هذا هو ما استخدمته أمريكا في الحرب على العراق من أجل الإطاحة بنظام صدام حسين؟ ودعونا نفترض أيضاً أن الإسلام يدافع عن استخدام السيف ضد من يعارضه على الرغم من أن هذه كلها

صور زائفة لحقائق القرآن، ولكن دعونا نفترض كل هذا، ونتعرض كذلك لمصطلح «الإرهاب الإسلامي» ففي أي موضع في القرآن أعطى الله للمؤمنين الإذن بترويع أعدائهم؟ إن إلقاء الخوف والرهبة في قلوب الأعداء شيء، وترويعهم بالصورة التي نفهمها اليوم شيء آخر تماماً، فالأعمال التي يقوم بها أمثال «بن لادن» و«الزرقاوي» اليوم في هذا العالم، ليست هي المقياس الفعلي لتعاليم الإسلام. ودعونا نتساءل في أي موضع في القرآن نجد إقراراً بهذا النوع من السلوك؟

ونعود لنؤكد أن مشكلتنا هنا هي مشكلة تعريف؛ فالرجل الذي يعتبر إرهابياً بالنسبة إلى شخص ما هو مناضل من أجل الحرية بالنسبة إلى آخر، ولا بد لنا من السماح بالاختلافات في التفسير، إننا هنا لا نهتم بنوع العنف الذي يمارس ضد دولة ما وهو الذي يمكن أن يكون شرعياً إذ يقوم به الأفراد الذين يرغبون في تحرير بلادهم من براثن القمع الأجنبي، فهل كان الراحل عرفات إرهابياً أم كان مناضلاً من أجل الحرية؟ بالطبع الإجابة تعتمد على الجانب الذي تتخذه من جانبي الصراع، فتبعاً للمعايير الإسرائيلية فإن ياسر عرفات بلا شك كان إرهابياً، ولكن إلى أي مدى كانت تختلف أعمال العنف التي كان يقوم بها ياسر عرفات عن أعمال نظرائه أمثال مناحم بيغن على سبيل المثال، الذي ساعد في تفجير راح ضحيته ما يزيد على ٩٠ شخصاً بريئاً في فندق الملك داود (David) في القدس عام ١٩٤٦، وعلى الرغم من ذلك حصل على جائزة نوبل للسلام، كما حصل عليها عرفات نفسه.

إن الفصل بين المناضلين من أجل الحرية والإرهابيين، لا يعني أن الإسلام يقر استخدام العنف في القضايا ذات الطبيعة القومية في الأساس، ولا يهمنا هنا إذا كان المناضلون من أجل الحرية تحت راية الإسلام على حق أم لا، إلا أن ما يجب أن ننتبه إليه هو هل معرفة الإرهاب كمصطلح قد تمت مناقشته أم لا؟ فنحن نحتاج إلى أن نتأكد مما نحن نعنيه بالمصطلح قبل مقارنته مع أي مصطلح يرتبط به.

ومع افتراض وجود مرجعية واضحة للإرهاب، وعلى افتراض أننا نوافق على أن أمثال «أسامة بن لادن» و«الزرقاوي» وغيرهم، هم بإجماع العالم إرهابيون بالمعنى الحرفي للمصطلح، فإننا يمكننا أيضاً أن نوافق كذلك على وصف هؤلاء بأنهم «إرهابيين إسلاميين»، وهذا مصطلح مضلل عن عمد في بعض الأحيان، إذ إن هناك من ينسبون هذه الأعمال الوحشية إلى الإسلام وهي التي ليس لها أي ذكر لا في سيرة محمد [ﷺ] ولا في تعاليم القرآن. ولا يعني أن ارتكاب بعض ممن يعتنقون الإسلام لبعض الأعمال الإرهابية هنا أو هناك، أن إرهابهم قد أصبح «إسلامياً» للحقيقة المجردة أنهم مسلمون. ودعونا نعود إلى قصة مشابهة لذلك ولكنها قديمة؛ إن أدولف هتلر كان من المؤمنين بالمسيح [عليه السلام]، إلا أن ذلك لم يجعل اضطهاده لليهود يُفسر على أنه من أعمال الإبادة الجماعية على يد المسيحيين، وبالأسلوب نفسه، هل تم استخدام مصطلح «الإرهاب المسيحي» لوصف الأعمال الوحشية التي قام بها جيش تحرير إيرلندا مثلاً؟ وحتى ممارسات «توركومادا» وأتباعه ممن عملوا في المحاكم

التفتيشية، كان يُشار إليها على أنها «إسبانية» وليست «مسيحية»، وكان ذلك يتم بلا شك لإبعاد خزي نسب هذه الأعمال الوحشية عن العقيدة المسيحية وعن تعاليم المسيح [عليه السلام] والذي كانت كلها تدعو إلى الحب والعطف والتسامح.

وفي الواقع إن «الإرهاب الإسلامي» وهم، وهو بناء غربي حلمت به طبقة من المحافظين الجدد ومن المفكرين السياسيين الأمريكيين، الذين حُرموا من شبح الشيوعية القديم، لذا استوجب الأمر وجود وحش جديد لإطلاقه على العامة، إلا أن شبح المسلمين هذه المرة في أكثر صوره الوحشية وبعنف لا يقدم بشكل المسلم الذي يسيطر على الآخرين بقوة السيف، ولكن هو الإسلامي الانتحاري الذي يفجر نفسه من أجل الجهاد ومن أجل الوعد بالحور العين كدافع له.

إن وسائل إعلام الغرب وبخاصة في أمريكا الشمالية، ترى الأصولية الإسلامية معادية لكل شيء غربي وهذا ما يثير الدهشة. فالتدخل العسكري الأمريكي في أفغانستان في الثمانينيات من القرن العشرين، قد استمد دعمه من بعض الحركات الإسلامية المسلّحة، ومن الذين دربوا طالبان في ندوات دينية تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية في كل من باكستان وأفغانستان، كما إن وكالة الاستخبارات الأمريكية نفسها كانت من بين المنخرطين في مساعدة وتدريب حرب العصابات لهذه الجماعات في باكستان، حيث كان الإعداد لشن حملة عسكرية ضد الروس يسير خطوة خطوة بالاتفاق

مع دروس أصول الدين والشريعة، كما إن الآلاف من المنشآت التعليمية الدينية التي انتشرت تحت حكم الجنرال «ضيا» وأتباعه، والتي وضعت فيها بذرة حركة طالبان؛ تلك الحركة التي كبرت وازدهرت بفضل دعم الولايات المتحدة، وقد كان الجهاد المدعوم من الأمريكيين في هذه الندوات بغرض زعزعة استقرار النظام العلماني السوفياتي الذي كان مسيطراً على أفغانستان في هذا الوقت. وقد دعم التجنيد في هذه الحركة نشر مجموعة من الفتاوى الشرعية التي يصدرها بعض رجال الدين، وهو ما كان يروق للجيل الأصغر من المسلمين، هذه الدعاوى كانت تحث الشبان على الذهاب إلى أفغانستان وعلى الجهاد هناك، تلك الدعاوى التي كانت تمدح من يقوم بالتضحية بحياته من أجل قضايا الأمة الإسلامية.

ولذا فإن الجنّي الذي انطلق بفضل الأمريكيين من القمقم، لم يرفض العودة إليه مرة أخرى فحسب، بل إنه استدار وقام بعضّ اليد التي امتدت إليه يوماً بالمساعدة، ولذا فإن العواقب كانت وخيمة بل ومأساوية تلك التي نتجت من أعظم سخريات اليوم، فما حدث في ١١ أيلول/سبتمبر، لم يمهل أي فرد للتحقق من الأمر؛ فبغض النظر عن مرتكبي هذا العمل الوحشي ـ وهناك الكثيرون ممن لا يصدقون السيناريو الرسمي الذي أذيع عقب هذه الأحداث ـ إلا أنه من الواضح أن الهدف منه كان تقديم ذريعة؛ ذريعة للحرب على الإرهاب التي بدأت بسحق أفغانستان وتدمير العراق ـ والتي تهدد أيضاً بابتلاع سوريا وإيران وغيرهما من العديد من الدول الأخرى

المارقة إذا ما لزم الأمر. تميزت الحرب على الإرهاب في مرحلتها الأولى بإبادة العراق، وعلى ما يبدو أنها استراتيجية طويلة المدى لا تهدف إلا إلى الضم التدريجي لمناطق كبيرة من دول العالم الإسلامي إلى الامبراطورية الأمريكية الجديدة، ولكن ما هو رد فعل المسلمين وما هو الدور الذي يجب على الإسلام تأديته في ظل هذا المستقبل الغامض، تلك هي التساؤلات والوقت وحده هو الكفيل بالرد عليها؟

■ **لمزيد من القراءة والاطلاع**

في الوقت الذي تتوافر فيه فعلياً مئات الكتب للاختيار من بينها هنا، إلا أن القارئ يمكنه الاختيار ما دام الكتاب الذي أمامه يميل إلى الوسطية وليس التطرف، ولأخذ نظرة شاملة عن الدين والموضوعات السياسية للعالم الإسلامي الحديث، لن يمكننا مقاومة كتاب *Islam: The Straight Path* لإسبوزيتو، وكذلك كتاب إدوارد مورتيمر (Edward Mortimer) **العقيدة والسلطة: السياسة في الإسلام** *(Faith and Power: The Politics of Islam)* (١٩٩٨)، على الرغم من أنه قد مضى عليه أكثر من عقدين.

■ **موضوعات أخرى**

ويقدم لنا ماجد فخري من خلال مؤلفه *A Short Introduction to Islamic Philosophy, Theology and Mysticism*، استعراضاً موجزاً مصاغاً بشكل مميز لموضوعه بأسلوب شيق مليء بالتحدي. أما بالنسبة إلى تطور الفقه والشريعة والقانون الإسلامي، فأفضل الكتب التي قد توفّر للقارئ معلومة جيدة كتاب ن. ج. كولسون (N. J. Coulson) **تاريخ القانون الإسلامي**

(History of Islamic Law) (١٩٨٩)؛ في حين أن مؤلّف عبد الرحمن ضوي (A. Rahman Doi) **الشريعة: القانون الإسلامي** *(Shari'ah: The Islamic Law)*، يقدم إلينا وجهة نظر مسلمة حول الموضوعات نفسها تقريباً. وأخيراً، كتاب هاينز هالم (Heinz Halm) **الشيعية** *(Shiism)* (١٩٩١) وهي نظرة مجمعة ولكن واضحة عن تاريخ ومبادئ الشيعة؛ في حين أن موجان مومن (Moojan Momen)، يغطي الموضوع نفسه وإن كان بشكل أعمق في كتابه المتميز **مقدمة عن الإسلام الشيعي: تاريخ ومبادئ الإثني عشرية الشيعية** *(An Introduction to Shi'i Islam: The History and Doctrines of Twelver Shi'ism)* (١٩٨٥).



الملاحق

الملحق (أ)

أزمة الخلافة ومولد الشيعة

بما أننا نرغب في الالتزام بالموضوع الأساسي والأصلي، وذلك من خلال الحديث عما يخص أسس الإسلام فحسب، فإن مناقشة بزوغ الحضارة الإسلامية ذاك البزوغ الرائع السريع الذي تلا وفاة النبي محمد [ﷺ] بالتفصيل ليتجاوز للأسف حدود هذا العمل. وهو ما يؤسفنا بالفعل؛ فتاريخ توسع الإسلام خارج حدود شبة الجزيرة العربية لشيق ومثير للاهتمام، لذا اكتفينا أن نرشد القارئ الذي يستهويه هذا الأمر إلى أفضل ما نشر من كتب في هذه الموضوعات في قسم **«لمزيد من القراءة والاطلاع»** في مقدمة الكتاب ومع نهاية كل فصل.

إلا أن هذا العمل لن يكتمل من دون استعراض مبسط لنشأة وتطور أحد المذاهب في الإسلام والذي يعرف باسم المذهب الشيعي. ويبلغ عدد من يتبع المذهب الشيعي حوالى ١٠ في المئة من المسلمين. كما إن الشيعية أصبحت «دين الدولة الرسمي» لإيران، منذ بدايات القرن السادس عشر. أما في العراق، فيمثل الشيعة أكثر من ٥٠ في المئة من مسلمي العراق، كما يوجد العديد من الأقليات الشيعية في كل من باكستان ودول الخليج العربي.

وتشتق هذه الكلمة من الكلمة العربية «شيعة» والتي تعني «فرقة» أو «جمع»، ويضم هذا الجمع المعني من يؤيد حق ولاية علي [رضي الله عنه] ابن عم الرسول [ﷺ] كخليفة وقائد للمجتمع الإسلامي بعد وفاة محمد [ﷺ]؛ إذ كان لأزمة الخلافة التي ظهرت بعد وفاة محمد [ﷺ] أثر واضح في كل نواحي حياة المسلمين وتفكيرهم حتى يومنا هذا، ملقية بظلالها على وجهات النظر من حيث القوانين والشريعة وأصول الدين والتفسير، وبالأخص على النظرية السياسية؛ فدعونا نتطرق لهذا الموضوع بشكل أكثر عمقاً.

أولاً: أزمة الخلافة

انتهت النبوة بوفاة النبي محمد [ﷺ]: فهو «خاتم النبيين» وآخر الرسل الذين بعثهم الله وأولاهم مهمة توصيل رسالة توحيد الألوهية إلى الإنسانية، إلا أنه ظلت هناك الحاجة إلى من يقود المجتمع ليس سياسياً فحسب بل روحياً أيضاً.

وجاءت وفاة محمد [ﷺ] لتضع مجتمع المدينة المنورة الوليد أمام أزمة كبيرة، حيث ظنت الأغلبية أن محمداً [ﷺ] لم يعين من يخلفه في قيادة المسلمين.

إلا أن هناك من اعتقد أن محمداً [ﷺ] قد اختار من يصلح ليقود المسيرة من بعده كقائد ومرشد لدولة المجتمع الجديد. وما هذا الرجل إلا علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]، ابن عمه وزوج ابنته، فهو من أوائل من اعتنق الإسلام حينما بدأ محمد [ﷺ] بتلقي الوحي قبل وفاته بربع قرن. ووجد من اعتقد أن علياً [رضي الله عنه] هو الأحق بالخلافة في العديد من آيات القرآن؛ وما يؤيد معتقدهم أن آل الرسول وبخاصة الذكور من نسل علي وفاطمة، ابنة محمد، هم من لهم الأحقية الأولى في حكم المجتمع الإسلامي.

ولكن أهل مكة والمدينة اجتمعوا بعد وفاة الرسول واختاروا أبا بكر [رضي الله عنه] قائداً جديداً للأمة، وعلى هذا أعلن رسمياً أنه الخليفة. إلا أن مؤيدي خلافة علي [رضي الله عنه] ظلوا يزدادون عدداً، حيث تجاوزته الخلافة ثلاث مرات: عندما توفي أبو بكر تولى الخلافة عمر [رضي الله عنه]، وعندما توفي عمر تولى الخلافة بعده عثمان [رضي الله عنه]. وبعد اغتيال عثمان في عام ٥٥٦، تولى علي الخلافة وأصبح رابع الخلفاء الراشدين.

أرجع الكثيرون مولد المذهب الشيعي لفترة خلافة علي [رضي الله عنه] التي كانت مليئة بالاضطرابات والخلافات، وبالأخص بعد اغتياله في عام ٦٦١. وبعد وفاة علي، تولى الخلافة منافسه اللدود

معاوية الذي أسس الدولة الأموية (٦٦١ ـ ٧٥٠). وبموت علي [رضي الله عنه]، انقسمت السلطة في العالم الإسلامي، فظلت الخلافة في أيدي الخلفاء الأمويين، يحكمون من دمشق، ولكن في الشرق وبخاصة العراق كان هناك مجتمع منفصل لم يعترف بسلطة الأمويين، فكانوا يزعمون أن القادة الحقيقيين للأمة الإسلامية هم فقط الخلفاء من نسل علي [رضي الله عنه]. وأطلق على هؤلاء الخلفاء اسم «الإمام» والذي يعني القائد الروحي والديني في الوقت ذاته، على عكس ما يرتبط بمعنى كلمة «خليفة» أو «سلطان» مِن مدلولات وقتية أو دنيوية.

و في عام ٦٨٠، استشهد الحسين [رضي الله عنه]، أحد أبناء علي [رضي الله عنه]، وهو من وقف أمام الحكم الأموي الفاسد في كربلاء بالعراق، وكانت صدمة العالم الإسلامي بهذا الاغتيال الوحشي لحفيد الرسول وعائلته من الكبر حتى ليسمع صداها حتى الآن؛ ففي إيران، التي تسيطر عليها الأغلبية الشيعية، يحتفل الشيعة سنوياً بذكرى استشهاد الحسين [رضي الله عنه] كرمز للوقوف الصامد في مواجهة القمع. ومن هنا كان الاستشهاد، هذه التضحية بالنفس في مواجهة الطغيان، السمة الملحة للصراعات الاجتماعية قبل نشوب الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩.

ثانياً: الأئمة الإثني عشر

تُعدّ جماعة «الشيعة الإثني عشر» من أكبر الجماعات الشيعية التي تعتقد أن محمداً [صلى الله عليه وسلم] قد أجاز خلافة المسلمين لإثني عشر إماماً

أو قائداً، بدءاً من علي [رضي الله عنه]، ويتبعه الباقون من نسله حتى يصلوا إلى من يعرف باسم المهدي، وهو من يعتقد أنه اختفى وهو طفل إلا أنه سيعود في آخر الزمان لينشر السلام والخير في العالم الذي تعمّه المشكلات. إن دور المهدي الذي يشبه دور المسيح [عليه السلام] له كبير الأثر في الشيعة الذين يجدون الكثير من الراحة والقوة في الاعتقاد بأنه يوماً ما سيختفي الطغيان والقمع من على وجه الأرض.

لم يكن للشيعة باع كبير في الشؤون السياسية، إذ كانوا متقبلين للوضع القائم وظلوا في منأى عن السياسة. إلا أن ما عرف عن الشيعة من أعمال متطرفة في مواجهة القمع السياسي ليس إلا ظاهرة حديثة ساهم في تشكيلها بشكل كبير جيل جديد من مفكري الشيعة وقادتهم ممن أعادوا تفسير بعض المفاهيم مثل الاستشهاد والمهدية، وجعلوا لها إطاراً ثورياً نمت فيه هذه الروح التي مكنت آية الله الخميني من الإطاحة بنظام حكم الشاه محمد رضا بهلوي، وإقامة ما سمي بـ «أول جمهورية إسلامية» في العالم، وهو الأمر الذي يدور حوله الكثير من الجدل.

ويمثل الشيعة ١٠ في المئة تقريباً من مسلمي العالم، يعيش معظمهم في إيران والعراق (لمعرفة المزيد من الشريعة لدى الشيعة انظر الملحق (ج)).



الملحق (ب)

علم أصول الدين الإسلامي

كانت المناقشات والمجادلات المطلعة والعلمية بشأن أسس العقيدة حكراً لما يعرف باسم «علم الكلام» الذي عادة ما يترجم باسم «اللاهوت السكولاستي»، وقد شغل فكر المفكرين المسلمين منذ البدايات، المناقشات حول طبيعة الألوهية وأهمية النبوة والأدلة المنطقية حول وجود الآخرة (المعاد).

وتظل بدايات علم أصول الدين مبهمة، إلا أن أول ما دوّن من مناقسات حول أصول الدين كانت في أواسط القرن السابع نتيجة مخاوف أكثرها سياسية. وعندما تحدى معاوية علياً [رضي الله عنه]، مدعياً حقه في الخلافة، نشبت الصراعات وتبعتها حرب أهلية. وكان لعلي [رضي الله عنه] اليد العليا في المعركة، وكان لينتصر لولا ما اتبعه العدو من وسيلة وتكتيك حربي صدم الجميع؛ إذ طالبوا علياً [رضي الله عنه] وهم

يحملون القرآن الكريم عالياً على أسنة رماحهم أن يجعل من آيات الله حكماً بينهم في نزاعهم. وهو ما لم يسفر عن شيء إلا أن بعضاً من تابعي علي [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] هاجموه ونكروا عليه رضوخه للتحكيم، زاعمين أنه كان يجب عليه تجاهل ما تم من الجانب الآخر وإنهاء الأمر في ساحة المعركة؛ فوفقاً لهم هذه كانت إرادة الله ومن هنا انفصل هؤلاء عن علي [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] وكوّنوا فرقة خاصة بهم تدعى الخوارج (وهي تعني من خرج عن فرقة كان يتبعها).

وكانت بدايات الخوارج سياسية إلا أنها مع مرور الزمن ظهرت لها أفكارها العقائدية الخاصة بها، ومن أبرز هذه المعتقدات أن فعل الكبيرة ينقص الإيمان، وأن من فعل الكبيرة، كما هو الحال بالنسبة إلى علي [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] من وجهة نظرهم، فإنه خارج على الإسلام ويعد كافراً، وكان تمييز المؤمن من الكافر، وإلى أي مدى قد يفسد الذنب، صغيراً أو كبيراً، الإيمان أول ما تم التمحيص فيه، وبعد قرن من الزمان ظهرت فرقة أخرى تسمى بـ «المراجعة» وكان اهتمامها ينصب أيضاً على أسس العقيدة والإيمان. وقد رأت أن الإيمان ينفصل عن العمل، وأن ارتكاب الذنب لا يجعل المسلم خارجاً على الإسلام.

إلا أنه بعدها، ظهرت فرقتان لهما أهمية كبيرة هيمنتا على ساحة البحث في أصول الدين والعقيدة في أوائل العصور الوسطى من التاريخ الإسلامي، وهما **المعتزلة والأشاعرة**، وطغا صيت هاتين الفرقتين على أي من الفرق الأخرى ذات الاهتمام بأصول الدين وما

زال لجدالهما الصدى الكبير في حياة المسلمين حتى يومنا هذا. وقد عرف عنهما خطأً أنهما من مفكري الإسلام الأحرار وعقلانييه. وتبنت المعتزلة فكرتي التوحيد والعدل: أما عن التوحيد فهم يرون أن صفات كمال الله العدة لا تنفصل عنه بل هي جزء لا يتجزأ منه، أي هي عين ذاته؛ فعلى سبيل المثال، حينما يصف الله نفسه بأنه القدير والعليم والرحيم، فإنه لا يمتلك القدرة والعلم والرحمة كصفات منفصلة عن ذاته وهو الأمر الذي يجعلها تشاركه خلوده سبحانه وتعالى، وبالتالي فهي تشاركه وهو الواحد الأحد في ألوهيته. أما عن العدل، فرأى المعتزلة أن الأفعال تتصف بالخير أو بالشر لأنها كذلك وليس لأن الله قال ذلك عنها. فمن خلال منظورهم بشأن عدل الله المطلق يرون أن الإنسان خلق حر الإرادة ولديه القدرة على الاختيار ما بين الخطأ والصواب؛ ففي حين اعتقدت فرق أخرى أن الله هو من يُقدر كل أفعال عباده، وبالتالي ليس أمام العبد سوى القليل من حرية الاختيار، رأى المعتزلة أن الله لا يجبر عبده على شيء، فالله عادل لن يعاقب المرء على خطايا لم يختر القيام بها بإرادته الحرة.

ومن القضايا التي ناقشها المعتزلة أيضاً، «أن القرآن مخلوق»، كان المعتقد الساري هو أن القرآن خالد باعتباره كلام الله، إلا أن المعتزلة وجدوا أنهم باعترافهم بخلود القرآن فهم بذلك يشاركون الله الواحد في أمر من أموره وهو ما ينقص من وحدانيته. وبالمثل، رفضوا فهم فكرة ما ورد بالقرآن من «أيادي» الله و«وجه» الله بالمعنى الحرفي له، فهذه المصطلحات لا تستخدم إلا مجازاً، فكلمة «يد

الله» ما هي إلا تعبير عن عظيم قدرته، أما «وجه الله» فليس إلا دلالة على صفات الله الواضحة والظاهرة في خلقه.

وتتمحور أفكار المعتزلة كافة على إيمانهم الراسخ بالعقل البشري، فهم يعدونه المعيار الأعلى في الحكم ليس على الأمور العقائدية فحسب، بل أيضاً في ما يخص تفسير الوحي ذاته.

وظهرت على الساحة في القرن العاشر فرقة جديدة جاءت لتكون من أكبر منافسي المعتزلة؛ إنهم **الأشاعرة** الذين ما زالت تعاليمهم تحتل مكانة مهمة في العديد من الدوائر المختصة بالعقيدة وأصول الدين حتى يومنا هذا. وظهر فكر الأشاعرة كرد فعل لما رآه بعض الباحثين من آراء غير تقليدية للمعتزلة والذي اعتبر البعض اعتمادهم الزائد على العقل البشري أمراً مثيراً للقلق.

جادل الأشاعرة المعتزلة حجة بحجة؛ ففي مسألة التوحيد، زعموا أن ذات الله وصفاته منفصلان، فتبعاً لهم، فإن لم يكونا كذلك كان يمكن القول إن «المعرفة» و«القدرة» هما الله وليس هو سبحانه وتعالى الله، إلا أنهم أقروا ما يتصف به الله من معرفة يختلف عما يتصف به البشر، وهكذا فإننا يجب أن نخلص أنه في حين أن المعرفة ليست عين ذات الله، فهي لا تنفصل عنه كلية على الأقل ليس على النحو الذي تنفصل به المعرفة الإنسانية عن ذات الإنسان.

وفي مسألة العدل، وافق الأشاعرة أن عدل الله عدل مطلق، إلا أنهم زعموا أن ماهية الأفعال من خير أو شر لا يحدده طبيعة

الأمور أو الأفعال ذاتها ولكن الله هو من يحددها، فالله هو الذي خلق الخير وسمح للشر ليختبر الإنسان، فما أطلق عليه الشر من أفعال عرف كذلك لأن الله صنفه كذلك وليس لأنه في الأصل مجرد من الخير، فلقد ادعوا إذا ما كان الله يحرم أمراً لسوئه، فهذا يعني ضمناً إن إرادة الله تتبع شر الفعل المعني وعلى هذا النحو فإن تحريم الله له مشروطاً به. أما الأشاعرة المتأخرون، فالشر بالنسبة إليهم أمراً نسبياً، فما هو سوى وصف لافتقاد الخير في فعل ما، أي إن الشر مسألة نسبية وليست مطلقة؛ فمثلاً ما قد يحدث من زلازل على سطح القمر لا يعد شراً، حيث لا توجد خسائر، لكن إذا كان الأمر في اليابان فهو يختلف: الأمر يعد شراً لوجود خسارة كبيرة في الأرواح، أي لأن الشر هو فقدان للخير أو فقدان للرحمة، فهو يعد حقيقة واقعة إلا أن هذه الحقيقة ليس لها إطار خارجي.

أما في ما يتعلق بالإرادة الحرة، رأى الأشاعرة أن للإنسان حرية اختيار الفعل فقط وبمجرد اختياره للأمور، كل ما يفعله يعد خلقاً من الله. إلا أنه في حين أن الله يخلق أفعال العباد، فإنه لا يجبرهم على فعلها. إذاً، إن الاختيار بيد الإنسان. أما نتيجة هذا الاختيار فخلقه بيد الله؛ أي إن النية للإنسان والقدرة بيد الله. إن الله يخلق أفعال الشر، ولكن يجب على الإنسان أن يتحمل مسؤوليتها، فهو من اختارها. ولقد مثل أحد العلماء ذلك بمن يجلس على كتف آخر، فعندما يقول الأول خذني إلى الأمام، يأخذه الآخر إلى الأمام، وإذا طلب الأول أن يجلس يجلسه الثاني، فإذا ما قال الأول «أطح بي أرضاً»، فهل له الحق أن يتذمر إذا ما أطيح به أرضاً؟

أما في مسألة «القرآن كمخلوق»، وفقاً للأشاعرة، بينما يظهر القرآن في ورق ويكتب باستخدام الحبر وبالتالي فهو مخلوق، فإن ما حفظ به من كلمات الله فهو خالد. وللاستدلال على ذلك، استشهدوا بالآية القرآنية الشهيرة حيث قال الله تعالى: ﴿**إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾(*).

هذه الآية تعني ضمناً خلود كلمة الله، وبما أن القرآن ليس إلا كلمات الله، فهو بالتأكيد خالد وغير مخلوق.

نوقشت العديد من المسائل في الدوائر المختصة بأصول الدين والعقيدة عبر العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى. إلا أن أصول الدين الإسلامي لم يكن لها الصيت نفسه الذي تمتع به الفقه الإسلامي، فلم يظهر بعد الأشاعرة من فرق قد تنافسهم في الشعبية والتأثير سوى القليل. واليوم نرى معظم الأغلبية السنيّة تتبع تعاليم الأشاعرة، ما يثبت أن أمور أصول الدين لم يطرأ عليها الكثير من التغيرات في العالم الإسلامي خلال الألف سنة الماضية.

(*) **القرآن الكريم**، «سورة النحل،» الآية ٤٠.

الملحق (ج)

مفهوم «الشريعة الإسلامية»

تمثل «الشريعة الإسلامية» لأغلبية المسلمين المعاصرين مجموع الشعائر والشرائع والوصايا التي فرضها الله على الإنسان حتى يتبعها وينظم بها كل أفعاله وسلوكه، سواء أكانت للفرد أم للمجتمع، تبعاً لمشيئة الله، وبذلك تعد «الشريعة الإسلامية» شاملة؛ فلا يوجد مظهر من مظاهر السلوك الإنساني الشخصي لم يفرد له ويغطيه أمر إلهي، فما من ناحية من نواحي حياة الإنسان الاجتماعية أو السياسية لم تتناولها شريعة الله. ويسود بين الناس هذا الاعتقاد بأنه ليس هناك مظهر من مظاهر الوجود الإنساني لم يُفرَد له قانون أو تشريع من خلال هذه المنظومة الشاملة، ومن هنا يأتي الشعار الخالد «الإسلام ليس ديناً فحسب بل طريقة حياة».

وكما رأينا في الفصول السابقة، لا يوجد ما قد يُعدّ مقدساً أو دينياً أو إسلامياً من فعل أو ممارسة في حد ذاته، فالفعل لا يُعدّ خيراً

أو شراً أو مقدساً أو دنيوياً، إلا بحسب النية المقصودة منه والسلوك الذي يميزه. وهو ما ينطبق على تلك القواعد والشرائع المنظمة والمشرعة المعروفة باسم «الشريعة الإسلامية»، ولكن مع اختلاف بسيط في الأسباب؛ فمعظم هذه القواعد والتشريعات ما هي إلا من خلق الإنسان بالكامل وكثير منها ليس له علاقة كبيرة بما جاء في تعاليم القرآن. استمرت مجموعة الممارسات كافة، التي تعد محور اهتمام الصحافة الصفراء في الغرب، بدءاً من رمي الزانيات بالحجارة، إلى الممارسات العادية كالحجاب والختان، على أنها أفعال «إسلامية»، إلا أنها لم نجد لها ذكراً في القرآن.

وقد يأتي وقع مفاجأة حقيقة أن معظم ما جاء في هذه التشريعات التي عمل المسلم جاهداً على تطبيقها لتنظيم حياته، ما هي إلا تدبير بشري كبير، على معظم القراء بل وصدمة لكثيرين وبخاصة للمسلمين منهم المتمسكين بالتقاليد والآراء الإسلامية. ولكن فكرة أن الشريعة الإسلامية في الحقيقة من صنع البشر، ليس بالصدمة المفجعة، بل إن الصدمة الحقيقية تكمن في استمرار اعتبار هذه المنظومة أمراً مقدساً لفترة طويلة لاتخاذها هذا الإطار الزائف، وهو ما منع الجميع من انتقادها، ووقف عائقاً منيعاً أمام أي إصلاح سواء أكان تشريعياً أم اجتماعياً أم سياسياً.

وفي الحقيقة إن ما قد عرف في معظم المجتمعات الإسلامية بـ«الشريعة الإسلامية»، ليس إلا مجموعة من التعاليم القرآنية والنظم الأخلاقية والمواثيق الاجتماعية التي جاءت نتاج التطبيق الشخصي

للرسول [ﷺ] سُنّته، إضافة إلى أحكام الفقهاء التي تعتمد بشكل كبير على تفسيرهم الخاص لما يسمى بـ «مصادر الشريعة»، والتي من أهمها القرآن والسنة. أما تعاليم محمد [ﷺ] أو سُنّته والتي لا تعد سوى أقاويل وسلوك إنساني لا أكثر، فهي بالنسبة إلى المسلمين نابعة من الوحي الإلهي. إلا أن السُنّة قد تُعد مصدراً مشكوكاً فيه بالنسبة إلى الشريعة نظراً إلى أنها تأتي في صورة الأحاديث، وهناك تلك الإشكالية الخاصة بالأحاديث حيث قد يكون منها ما قد لفّق بعد الرسول [ﷺ]. ويتبقى أمامنا أحكام الفقهاء، كما سنرى لاحقاً، وما هم سوى بشر، وبالتالي عرضة للخطأ كالجميع. ومن كل ما سبق، فإن القرآن هو المصدر الوحيد للوحي الإلهي، إلا أنه عند المقارنة بينه وبين المصدرين الآخرين، نجد أن إسهاماته في الشريعة الإسلامية قليلة بالنسبة إليهما، وعلى هذا إن مصطلح الشريعة الإسلامية ما هو على أفضل توصيف إلا مصطلحاً مضللاً وعلى أسوأه محاكاة ساخرة، ولكن القول إنه تشريع استخلصه المسلمون نتاجاً من المصادر الإلهية والإنسانية، قد يكون ثقيلاً وصعب التطبيق إلا أنه هو الأقرب إلى الحقيقة.

أولاً: «الشريعة الإسلامية» في عين المسلمين

قبل أن نعود إلى الفترة التي كان يعيش فيها الرسول [ﷺ] وإلى المجتمعات الإسلامية الأولى لمتابعة التطور التدريجي الذي طرأ على الشريعة الإسلامية، دعونا أولاً نوضح بعض الأجزاء المبهمة التي

تحتاج إلى تفسير وتعريف والنظر إلى الشريعة الإسلامية ولو نظرة سطحية، كما يراها ويفهمها المسلمون.

أطلق اسم «الشريعة» على مجموع ما أنزله الله من أوامر للبشر لاتباعها من أجل تنظيم حياتهم وضبطها. ذاع صيت الشريعة على نطاق واسع على مر الثلاثين عاماً الماضية، حتى إنك لتجد كلمة الشريعة في معظم القواميس الإنكليزية المعروفة. وقد يكون القارئ سمع أو قرأ عن المساعي والحملات التي قام بها المسلمون في أنحاء العالم المختلفة للعمل على عودة الشريعة أو إعادة العمل بها. وفي بعض الأحيان كانت تبذل مثل هذه الجهود لإحياء الشريعة بشأن إحدى نواحي الحياة الاجتماعية السياسية: على سبيل المثال إعادة شرائع الإسلام في ما يخص الجرائم أو الميراث والتي حلت محلها التشريعات العلمانية بالشكل التي كانت تطبق به حين كانت تطبق الشريعة في المجتمعات الإسلامية، وجاءت مساعٍ أخرى لإعادة تطبيق الشريعة بهدف تطبيق المنظومة الإلهية بالكامل، وبالتالي تحويل الدولة أو المجتمع إلى نظام إسلامي يعتمد فقط على المبادئ الشرعية التي يزعم أنها تنبثق مباشرة من تعاليم القرآن الكريم. والمثال الأكبر على ذلك بالطبع إيران التي عدّلت حكمها لتصبح «الجمهورية الإسلامية» بعد ثورة عام ١٩٧٩.

ولنعد بالتاريخ إلى أوائل أيام تطبيق الشريعة الإسلامية لكي نلقي بعض الضوء على تطور هذه الظاهرة المعقدة التي كنا نحاول التعرف إليها في الفقرات السابقة.

ثانياً: الشريعة ـ تطور الفقه الإسلامي و«الشريعة الإسلامية»

تعني كلمة شريعة في اللغة العربية «الطريق أو السبيل إلى منبع مياه»، أما معناها التقني فيعني القواعد والتشريعات التي أمر بها الله بشكل مباشر أو غير مباشر. يهدف الفقه إلى التعريف كيف يمكن للقوانين العملية أن تنبثق من مصادرها، أي من القرآن والسُنّة النبوية. ولأسباب معقدة كان الفقه دائماً هو أشهر وأهم فرع من فروع العلم في الحياة العلمية الإسلامية.

يتكوّن الفقه من عنصرين أساسيين: **أولهما** فروع الفقه، و**ثانيهما** أصول الفقه. أما بالنسبة إلى **فروع الفقه**، فهو يتكوّن من مختلف التشريعات التي تندرج تحت عنوانين: العبادات (وهي الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج وما إلى ذلك)؛ والمعاملات التي تشمل قانون الأسرة والقانون التجاري والقانون الجنائي. أما **أصول الفقه** فهي أوسع نطاقاً، حيث تشمل الفئات والقيم المختلفة من التشريع (ما يجب وما يجوز والذي لا حرج فيه والمستحب والمحرم)، إضافة إلى مصادر الشريعة (التي تختلف باختلاف مختلف المدارس الفقهية وإن كانت كلها تتضمن أيضاً القرآن والسُنّة وإجماع العلماء)، وقواعد استنتاج الأحكام من المصادر، وأيضاً مبدأ الاجتهاد وهو حق إطلاق الأحكام بناء على الشريعة بشكل مستقل.

ثالثاً: المدارس الفقهية الإسلامية الرئيسة

على الرغم من ورود بعض المواد التشريعية بالقرآن، فهو ليس بكتاب قانون ولن نجد به ما قد يعد سنناً منظمة للقوانين؛ ففي حين أن القرآن يعلّم من اعتنق الإسلام ما يجب عليه القيام به كتعبير عملي عن استسلامهم لإرادة الله (أي من خلال الصلاة والصوم وما إلى ذلك)، فإن ذلك يتم بشكل شديد العمومية. على الرغم من أن أسس الطريق القويمة الواجب على المسلم اتباعه نجدها واضحة في القرآن، إلا أن كيفية الوصول إلى هذه الطريق يرد لنا من القرآن بشكل مبهم وعام؛ ففي حال الصلاة مثلاً هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تؤكد أهمية الصلاة وتذكر الأوقات التي يجب أن يصلي فيها المسلمون، ولكن لا يوجد من الآيات ما يذكر بدقة متى وكيف تؤدّى الصلوات، وفي ذلك يجب أن ترجع إلى السُنّة النبوية. ومن الأمثلة الأخرى على ذلك عقوبة السارق. وقد ذكر القرآن بالفعل أن يد السارق يجب أن تقطع ولكنه ترك العديد من التساؤلات حول هذا الموضوع بلا إجابة، فعلى سبيل المثال هل يطبق القانون على السرقات الصغيرة مثلما يطبق على الكبيرة؟ وهل يجب أن يطبق القانون أيضاً إذا كان السارق شيخاً أو امرأة حامل أو به مس من الجنون؟ هل هناك ظروف تخفف فيها العقوبة بسبب الفقر مثلاً؟ وهل تؤخذ طبيعة ما سرق في الحسبان؟ وما هو الدليل المطلوب لإدانة شخص بالسرقة؟

لم يكن سكوت القرآن عن هذه الأمور بمشكلة إبان حياة الرسول [ﷺ]: ففي بعض الأحيان كان ينزل عليه الوحي مرات ليلقي

الضوء على ما يصعب من الأمور، إلا أن الأمر غالباً ما يكون وفقاً لحكمه الشخصي أو اعتماداً على القانون العرفي في المدينة. ولكن بعد وفاته، تغير الموقف تماماً، لم يعد هناك وحي، ولم يوجد من يقوم بدور محمد [ﷺ] كمشرع له الأحقية منفرداً في ذلك. وقد طبق الخلفاء الراشدون الأربعة العدالة طبقاً لما جاء في القرآن الكريم وما صدر من أحكام عن النبي [ﷺ]. كما قاموا مثله بإصدار أحكام في ما لم يرد عن الرسول [ﷺ] اعتماداً على القانون العرفي في المدينة. ومع ذلك، أثبت العنصران السابقان صعوبة متزايدة في تبريرهما؛ فعلى سبيل المثال في مجال الحكم، أُنتقد عثمان، ثالث الخلفاء الراشدين، انتقاداً لاذعاً بسبب مخالفته لكثير من السياسات التي انتهجها من سبقوه. والأهم من ذلك، ومع وصول الإسلام إلى النصف الآخر من العالم بفضل فتوحاته، أصبح من الصعب الاعتماد على القانون العرفي للمدينة. وفي فترة الحكم الأموي (٦٦١ ـ ٧٥٠)، وقعت تطورات فاصلة عندما قام حكّام الولايات الأموية في بقاع مختلفة من الامبراطورية الإسلامية بتعيين قضاة، وأحالوا إليهم ما لهم من سلطة قضائية. وكان للحكام الحق في الحكم في أي قضية بأنفسهم إذا ما أرادوا ذلك، ويمكنهم بالطبع إقالة أي من القضاة إذا ما ارتأوا ذلك. ومع ذلك تولى القضاة مهمة الإدارة اليومية للأمور المتعلقة بالعدالة. وقد صوّرتهم المصادر التاريخية مسلمين ورعين حرصوا على اتباع ما جاء في القرآن والأحاديث النبوية في حكمهم، إلا أنهم اعتمدوا أيضاً على الأعراف المحلية، إضافة إلى ما ارتأوه مناسباً. ودمجت الكثير من أحكامهم في التشريع. وأدى تعيين القضاة ممن لهم خبرة في مجال

القانون، خلال فترة الحكم العباسي الأولى (٧٥٠ ـ ٩٠٠)، إلى ظهور «مدارس فقهية» واضحة في مختلف أنحاء الامبراطورية، واستمرت حتى الآن أربع مدارس فقهية عند السنيين وهي : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية؛ أما الشيعة، فلهم مدرستهم الفقهية الخاصة، وهي المدرسة الجعفرية التي سُمّيت على اسم مؤسسها جعفر الصادق وهو من نسل الرسولِ [ﷺ] مباشرة.

١ ـ المذهب الحنفي

سميت هذه المدرسة على اسم أبي حنيفة (ت. عام٧٩٧ م) وهو من الكوفة في العراق. وكان محامياً جامعياً، ولم يعمل أبداً كقاضٍ، وتُعدّ المدرسة الحنفية أكثر المدارس تحرراً ومرونة بين المدارس السنية الأربع.

اعتمد أبو حنيفة على القرآن في المقام الأول في وضع مسائل التشريع، ثم على القياس الذي اعتبره مصدراً أكثر أهمية من الأحاديث النبوية على الرغم من اعتماده عليها أيضاً. ويعتمد ما يقوم به الفقيه من قياس لمدى الحكم القرآني في قضية ما ليتناسب مع قضية جديدة من نوعها على قدرته على قياس العلة المقصودة للحكم الأصلي؛ فعلى سبيل المثال: طبقاً لما جاء في القرآن، بعد رفع الأذان لصلاة الجمعة، يُحرم البيع والشراء حتى تنتهي الصلاة. السبب الظاهر لذلك أن البيع والشراء من شأنهما إلهاء الناس عن الصلاة. وقياساً على ذلك، تحرم كل المعاملات الأخرى أثناء الصلاة لأنها تعتبر أيضاً بمثابة إلهاء عن الصلاة.

ولجأ أبو حنيفة إلى مبدأ «الاستحسان»، وهو ما يعني حرفياً تفضيل أمر على آخر ليبرر عدم الالتزام الحرفي بنص الشريعة في الحالات التي قد يتسبب التشدد في تطبيقها إلى شيء ما من الظلم؛ فعلى سبيل المثال يأمر القرآن النساء والرجال بارتداء الملابس المحتشمة حين وجود الجنس الآخر من غير المحارم. إلا أن الحنفية أجازوا عدم الالتزام بذلك في حال المرض الشديد والحاجة إلى الفحص الطبي. وهناك أيضاً مبدأ مشابه وهو الاستصلاح الذي يعطي الحق في نقض حكم من أحكام الشريعة لا يتفق والمصلحة العامة حتى ولو كان ذلك الأمر ملزماً ويحتسب فرضاً. وكان هذان المبدآن ـ اللذان منحا الفقهاء إمكانية واسعة النطاق للتجديد والإبداع في المسائل الفقهية وبالتالي في التشريع ـ سبباً في هجوم الأغلبية من الفقهاء المحافظين. وهو الأمر الذي أدى إلى عدم استمرار العمل بهما، ما تسبب في مزيد من الأسى لدى الإصلاحيين المعاصرين من المسلمين.

إلى جانب فتحه المجال لإعمال العقل، اعتمد أبو حنيفة أيضاً على الإجماع في وضع مسائل التشريع. وأكد أن السلطات القانونية المؤهلة فقط هي من يؤخذ بإجماعها، إلا أن فقهاء المدرسة الحنفية كانوا غالباً ما يأخذون بإجماع الفقهاء المحليين، وهو ما قد يعني في بعض الأحيان القليل من آراء العلماء.

كان المذهب الحنفي المذهب السائد في الدولة العباسية، وبالتالي أصبح المذهب الرسمي للامبراطورية العثمانية، وهو ما كان

سبباً بشكل كبير في استمرار هذا المذهب ليصبح أكثر المذاهب انتشاراً؛ فهو المذهب الذي تبعه أغلب مسلمي سوريا والأردن وتركيا وشمال الهند وباكستان والصين ووسط آسيا، أي إن حوالى ثلث المسلمين في العالم يتبعون المذهب الحنفي.

٢ ـ المذهب المالكي

أسس المذهب المالكي مالك بن أنس (ت. عام ٧٩٦ م)، الذي ولد وتوفي في المدينة، وكان هذا المذهب بمثابة رد فعل للمحاولات المنهجية الاستنتاجية الأولى لوضع الشريعة. ومن أهم وأعظم مؤلفاته **الموطأ** الذي يُعد كتاباً تشريعياً في الأصل، يعتمد على الحديث النبوي. يستشهد مالك في تناوله لأي موضوع في كتابه بما ورد من أحاديث للرسول [ﷺ] في هذا الموضوع، ثم يتبعه بآثار الصحابة والتابعين من كبار مسلمي المدينة، ويبحث بعدها في ذلك كله، فكان إما يقبلها أو يرفضها تبعاً لتوافقها مع ما ساد في المدينة من سوابق شرعية (عمل أهل المدينة)، ووفقاً لما يراه. ويتضح من تحليلنا السابق أن ما كان يهم مالك هو عمل أهل المدينة؛ ففي رأيه، أن عمل أهل المدينة يمثل ما تناقله أهلها من وصايا الرسول [ﷺ] كما فهمها الصحابة؛ ففي حين كان الإجماع بالنسبة إلى أبي حنيفة يخص أهل السلطة الشرعية المؤهلة لجيل، ما كان الأمر يخص أهل المدينة بالنسبة إلى مالك.

تميز مالك أيضاً بدعمه لمبدأ الاستصلاح أو أخذ المصلحة العامة في الاعتبار، فكان في رأيه أنه يمكن أن نأتي بتشريعات

جديدة ليست لها أصول نصيّة في القرآن أو السُنّة، شريطة أن يكون الغرض منها تقديم الفائدة أو منع الضرر، وفي الوقت نفسه تتفق مع أهداف الشريعة. وكان مبدأ الاستصلاح ذريعة الحكام ممن أرادوا فرض ضرائب أو اتخاذ إجراءات اجتماعية أو سياسية أخرى اشتبه في صحتها إسلامياً. وساد المذهب المالكي في مصر وشمال أفريقيا، لكنه لم يلقَ استحساناً في المدينة حيث ساد هناك فقه أكثر تحفظاً.

٣ ـ المذهب الشافعي

جاء هذا المذهب على يد محمد بن إدريس الشافعي (ت. عام ٨٢٠ م)، الذي درس في مكة والمدينة والعراق وسوريا. وكان على دراية واسعة بمختلف المذاهب التشريعية التي وجدت في عصره، إلا أنه رفض أن يتبع أياً منها، بل كان هدفه ومسعاه في حياته أن يجعل منها وحدة واحدة من خلال نظرية سليمة للمصادر التي استخلص منها التشريع. وكانت مصادر الشريعة بالنسبة إلى الشافعي متسلسلة تسلسلاً هرمياً؛ فالقرآن يمثل أهم وأول المصادر، ثم ركن الشافعي إلى أدلة من القرآن ليؤكد أن على المسلمين اتباع سنة النبي [ﷺ]، حيث إن أحكامه الشرعية ما هي إلا وحي من الله. وهكذا جاءت السنة، متمثلة في الأحاديث النبوية، كثاني أكبر مصدر للتشريع. إلا أن الأحاديث كانت في نظر الكثيرين متضادة، لذا حاول الشافعي أن يوضح أن هذا التناقض الظاهر قد يرجع إلى

أن أحد الأحاديث قد ينسخ ما قبله، أو أن حديثاً يوضح استثناءً لقاعدة واردة في آخر.

وجاء الإجماع في المرتبة الثالثة من تسلسل مصادر التشريع عند الشافعي، والذي أقر المذهبان الحنفي والمالكي على أنه من مصادر التشريع، وإن اختلفا حول مدى نطاقه وتطبيقه، وكان الحل الذي أوجده الشافعي هو إعادة تعريف هذا المصدر ليمثل اتفاق المجتمع الإسلامي كله من فقهاء وعامة على حد سواء. وكان هذا يعني في الواقع أن قيمة هذا المصدر كبيرة نظرياً، لكن أهميته تقل من حيث التطبيق. أما آخر مصدر من مصادر التشريع عند الشافعي فكان القياس، نظراً إلى اعتماده على السنة، كان اهتمام الشافعي بالقياس أقل بكثير من أبي حنيفة، كما رفض مبدأي الاستصلاح والاستحسان كمبادئ شرعية للفقه. وتجد اليوم أن من اتبع المذهب الشافعي متفرقين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وإن كان العدد الأكبر منهم يتمركز في شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا.

٤ ـ المذهب الحنبلي

رأى الكثير أن المذهب الحنبلي من أكثر المذاهب المحافظة وهو على اسم صاحبه أحمد بن حنبل (ت. عام ٨٥٥ م)، وكانت بغداد مسقط رأسه، إلا أنه سافر كثيراً بحثاً عن الأحاديث التي جمع الكثير منها في مجموعة كبيرة عرفت باسم **المسند**؛ ففي واقع الأمر لم يكتب ابن حنبل فعلياً بل كان جامعاً للأحاديث أكثر من كونه فقيهاً؛ إذ سافر

هنا وهناك لجمع أحاديث الرسول [ﷺ] التي تأسس **المسند** على الكثير منها. وكان الحنبلي تلميذاً للشافعي ومن مريديه، وكان يولي السُنّة أهمية أكبر مما وجهه لها الشافعي، وأكد أن القرآن والسُنّة هما أولى مصادر التشريع ويجب فهمهما حرفياً. وأقر الحنبلي بعد ذلك أربعة مصادر للتشريع ورتبهم كالأتي: فتوى الصحابة على ألا تتعارض مع القرآن والسُنّة؛ أقوال الصحابة ما لم تتعارض مع القرآن والسُنّة؛ الأحاديث النبوية المسندة إسناداً ضعيفاً؛ وأخيراً القياس ولكن عند الضرورة المطلقة فحسب؟ وكان ابن تيمية من أبرز من اتبع فكر ابن حنبل (ت. عام ١٣٢٧ م)، والذي أثرت كتاباته تأثيراً عظيماً في مصلحي القرن الثامن عشر: «من الوهابيين»، وأدى نجاحهم إلى إقرار المذهب الحنبلي كمذهب التشريع الرسمي في المملكة العربية السعودية وقطر، كما إن هناك من يتبعه في العراق وسوريا.

رابعاً: غلق باب الاجتهاد

انتقد بعض العلماء مبدأ استخدام الاستدلال الحر لاستخلاص تشريعات جديدة «الاجتهاد»، حيث رأوا أنها تولي ثقة زائدة لدور العقل الإنساني؛ فمع نهاية القرن العاشر، تعددت المدارس وانتشرت حتى وصلت في وقت ما إلى تسعة عشر مذهباً، ما جعل العلماء يعتقدون أن ذلك قد يؤدي إلى تفتت الفقه الإسلامي، ما قد ينتج منه الفرقة والطائفية في بنية المجتمع الإسلامي؛ فظهرت على الساحة في بعض الأنحاء حتمية «غلق باب الاجتهاد»، وبدلاً من الاعتماد على

الاجتهاد في المستقبل، وجب على العلماء الاقتصار على دراسة القائم بالفعل وإعادة تفسيره. ومنذ ذلك الحين منع استخدام كل العناصر الأساسية للاستدلال الحر والاجتهاد، وهي: الاستصلاح والاستحسان والقياس. وكان على علماء الشريعة والفقه تقليد من سبقهم من كبار الفقهاء بدلاً من تبني آراء فقهية جديدة خاصة بهم.

يعتقد كثير من المفكرين المسلمين اليوم أن باب الاجتهاد لم يغلق قط، وأن المشرعين المسلمين ظلوا يمارسون الاجتهاد لقرون عديدة من أجل استخلاص أحكام تتناسب مع ما استجد من مواقف لم يسبق لها مثيل من قبل، وأقر الكثيرون أن ما زعم من «غلق باب الاجتهاد» هو السبب وراء تحجر الشريعة الإسلامية بعد القرن الثاني عشر.

خامساً: الشريعة عند الشيعة

اختلفت الشريعة عند الشيعة اختلافاً واضحاً عما عند السنيين، وهي تعتمد ليس على ما تناقلته الأجيال من أحاديث للنبي [ﷺ] فحسب، بل أيضاً من أحاديث للأئمة الذين خلفوه. ويرجع الفضل الأكبر في ظهور الشريعة الشيعية إلى جهود جعفر الصادق، سادس الأئمة الشيعة، الذي تعلم بالفعل على يديه العديد من فقهاء المذهب السُنّي ومنهم أبو حنيفة. ويختلف الشيعة عن أهل السُنّة اختلافاً طفيفاً من حيث مصادر التشريع، كما إن باب الاجتهاد لم يغلق أبداً عند الشيعة.

ومع نهاية نسل خلفاء محمد [ﷺ] من الأئمة الاثني عشر، كان آخرهم الإمام المهدي الذي زعم أنه «اختفى» ليظهر مرة أخرى في آخر الزمان، وفي غيابه انتقلت السلطة إلى أغنى فقهاء الشيعة علماً الذين تولوا الأمر باعتبارهم من الممثلين للإمام المحتجب. ووصلت النظرية الشيعية للشريعة إلى ذروتها في القرن التاسع عشر، حيث ساد مفهوم أن أفضل علماء الشيعة هم ممثلو الإمام المهدي في مختلف وظائفه الدنيوية والروحانية على حد سواء، ومن هنا جاء المبدأ المعروف باسم «ولاية الفقيه» التي تعني حق الفقيه في الحكم. وطور آية الله الخميني هذه النظرية ليجعلها حجر الأساس الذي بنى عليه الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

سادساً: الاختلافات ما بين «المذهب السُنّي» و«المذهب الشيعي»

لا يختلف السُنّة والشيعة كثيراً من الناحية العملية في ما يتعلق بشريعة وفقه معاملات الحياة اليومية، و«المذهب السُنّي» بالمعنى الدقيق للكلمة يعني اتباع سُنّة الرسول [ﷺ] وهو ما يزعم الشيعة القيام به أيضاً. إلا أن أهل السُنّة يتبعون سنة الرسول [ﷺ] فقط، في حين يتبع الشيعة، إلى جانب ذلك، تعاليم الأئمة الاثني عشر بصفتهم مصادر للإلهام الروحاني والإرشاد الاجتماعي والسياسي. ومع ذلك فإن الاختلافات بين المذهبين طفيفة وصغيرة إلى حد كبير. وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات العقائدية من حيث أسس الإيمان

الثلاثة: «التوحيد والنبوّة واليوم الآخر»، فهما على اتفاق كامل بوجه عام؛ وفي الحقيقة هناك اختلافات تشريعية أكثر قابلة للجدل بين أتبـاع المذهب السُنّي، أكثر منـهـا بين أتبـاع المذهب السُنّي والمذهب الشيعي.

تسلسل زمني للأحداث التاريخية
في العالم الإسلامي

عهد محمد

٥٧٠	مولد محمد في مكة.
٥٧٦	وفاة آمنة، والدة محمد.
٥٨٠	وفاة عبد المطلب، جد محمد.
٥٨٣	رحلات محمد إلى سوريا مع عمه أبي طالب حيث تنبأ الراهب المسيحي بحيرا بنبوّة محمد.
٥٩٥	زواج محمد من خديجة وهي سيدة أعمال وتاجرة مكية.
٦١٠	بدايات نزول الوحي على محمد أثناء اعتكافه في غار حراء.
٦١٣	الإعلان عن الدعوة للإسلام، حيث دعا محمد أهل مكة لاعتناق الإسلام.
٦١٥	إيذاء قريش للمسلمين ولجوء بعض المسلمين إلى الحبشة هرباً منها.

٦١٦ سفر مجموعة أخرى من المسلمين إلى الحبشة.

٦١٧ مقاطعة قريش للرسول وبني هاشم اجتماعياً واقتصادياً.

٦١٩ إلغاء المقاطعة ووفاة خديجة وأبي طالب.

٦٢٢ قيام محمد والمسلمين بالهجرة إلى يثرب والتي سميت في ما بعد بالمدينة.

٦٢٤ غزوة بدر، حيث هزم المسلمون أهل مكة.

٦٢٥ غزوة أُحُد.

٦٢٧ غزوة الخندق.

٦٢٨ معاهدة الحُديبية بين المسلمين وأهل مكة.

٦٣٠ فتح مكة.

٦٣٢ وفاة محمد واختيار أبي بكر كأول خليفة في الإسلام وبدايات الفتوحات العربية.

العالم الإسلامي بعد عهد الرسول: سرد تاريخي سياسي اجتماعي

٦٣٣ حروب الردة.

٦٣٤ وفاة أول الخلفاء الراشدين أبي بكر.

٦٣٥ فتح دمشق.

٦٣٧ معركة القادسية بين القوات العربية المسلمة والجيش الفارسي.

٦٣٨ فتح القوات العربية المسلمة لأورشليم (القدس).

٦٤١ غزو العرب المسلمين الامبراطورية الفارسية.

٦٤٤ وفاة ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب والذي تبعه في الخلافة عثمان بن عفان.

٦٤٥ سقوط الإسكندرية وانتهاء الموجة الأولى من غزوات العرب المسلمين.

٦٥٣ سقوط خراسان إعلاناً للفتح الكامل لبلاد الفرس.

٦٥٦ مقتل عثمان بن عفان؛ وتولي علي بن أبي طالب ابن عم الرسول الخلافة بعده؛ اشتعال نار الحرب بين علي وأرملة الرسول عائشة.

٦٥٧ معركة صفين بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

٦٥٨ موقعة النهروان بين علي بن أبي طالب والخوارج.

٦٦٠ تنصيب معاوية بن أبي سفيان لنفسه خليفة للمسلمين في دمشق.

٦٦١ مقتل علي بن أبي طالب؛ معاوية بن أبي سفيان يصبح أول خليفة أموي للمسلمين.

٦٦٧ بناء العرب لمدينة القيروان في شمال أفريقيا (تونس حالياً).

٦٨٠ استشهاد حفيد الرسول الحسين في كربلاء بأوامر من الخليفة.

٦٨٠ استيلاء فرع بني مروان من الأمويين على مقاليد الخلافة.

٦٩٢ هزيمة الثائر عبد الله بن الزبير في مكة والانتهاء من قبة الصخرة في القدس؛ أولى الإنجازات المعمارية العظيمة على يد المسلمين.

٧٠٥ بداية الموجة الثانية من الفتوحات العربية تحت خلافة الوليد بن عبد الملك.

٧١١ عبور العرب من شمال أفريقيا إلى جبل طارق والذي سُمي على شرف القائد العربي طارق بن زياد.

٧١٨ كسر الحصار العربي للقسطنطينية.

٧٣٢ تقدم القوات المسلمة داخل أوروبا حتى مدينة تورز في شمال فرنسا.

٧٥٠ ثورة العباسيين على الحكم الأموي وبداية عهد العباسيين

٧٥٦ تنصيب عبد الرحمن الداخل الأموي لنفسه حاكماً للأندلس.

٧٦٠ استعمال العرب للأرقام الهندية وتطوير علمي الجبر والمثلثات.

٧٦٢ بناء بغداد على يد أبو جعفر المنصور.

٧٦٥ وفاة سادس الأئمة الشيعة الإمام جعفر الصادق، مؤسس المدرسة الفقهية الجعفرية الشيعية.

٧٦٧ وفاة أبي حنيفة، مؤسس المدرسة الفقهية الحنفية.

٧٨٦ تولي هارون الرشيد الخلافة والخلافة العباسية في أزهى عصورها.

٧٩٥ وفاة مالك بن أنس، مؤسس المذهب الفقهي المالكي.

٨٠٠ بداية حكم الأغالبة لتونس والذي امتد مئة عام.

٨٠٩ وفاة هارون الرشيد.

٨١٩ استيلاء السامانيين على حكم شرق إيران (٨٩ ـ ١٠٠٥)؛ وفاة الإمام الشافعي، مؤسس المذهب الفقهي الشافعي.

٨٥٥ وفاة الإمام أحمد بن حنبل، مؤسس المذهب الفقهي الحنبلي.

٩٠٩ تأسيس الفاطميين لخلافة مستقلة في شمال أفريقيا دامت أكثر من ستين عاماً.

٩٢١ انفصال عبد الرحمن الثالث عن الخلافة في بغداد وتنصيبه لنفسه خليفة للأندلس.

٩٤٥ سيطرة البويهيين الشيعة على بغداد، وأصبح الخلفاء العباسيون في عصرهم مجرد دمى يسيطرون عليهم.

٩٦٩ فتح الفاطميين لمصر وتأسيس مدينة القاهرة.

١٠٢٠ وفاة الشاعر الفردوسي الذي أعاد اللغة الفارسية للحياة وألف الملحمة الإيرانية **الشاهنامة (كتاب الملوك)**.

١٠٣٧ وفاة الفيلسوف الفارسي ابن سينا.

١٠٥٥ استيلاء الحكم السلاجقي التركي على بغداد.

١٠٥٦ غزو المرابطين لشمال أفريقيا وجنوب إسبانيا.

١٠٦٦ إنشاء أول جامعة إسلامية (المدرسة النظامية).

١٠٧١ هزيمة السلاجقة للبيزنطيين في موقعة منزيكرت.

١٠٩١ تولي الإمام الغزالي، أشهر مفكري العالم الإسلامي، رئاسة المدرسة النظامية.

١٠٩٥ أولى الحملات الصليبية وغزو الفرنجة للأناضول وسوريا مع إقامة مدن صليبية هناك.

١٠٩٩ استيلاء الصليبيين على القدس.

١١٠٠ تأليف الرباعيات على يد الشاعر الفارسي عمر الخيام.

١١١١ وفاة الإمام الغزالي.

١١٣٥ سيطرة الموحدين على شمال شرق أفريقيا وقطاع إسبانيا المسلم.

١١٤٤ ثاني الحملات الصليبية.

١١٧١ هزيمة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي وفتح مصر.

١١٨٨ تدمير صلاح الدين الأيوبي الممالك الصليبية للفرنجة.

١١٨٩ ثالث الحملات الصليبية.

١٢٠٢ رابع الحملات الصليبية.

١٢٢٠ استيلاء قوات المغول على سمرقند وبخارى.

١٢٨٨ اجتياح بغداد على يد المغول الذي وضع كلمة النهاية لحكم الخلافة العباسية الذي امتد ٥٠٠ عام.

١٢٩٩ بداية توسعات الترك العثمانيين في الأناضول.

١٣٢٦ استيلاء القوات العثمانية على مدينة بورصة.

١٣٦٦ تأسيس أدرنة كعاصمة للعثمانيين في أوروبا.

١٣٩٢ بداية غزو تيمورلنك لإيران؛ وفاة الشاعر الغنائي الفارسي حافظ الشيرازي.

١٤٥٣ استيلاء العثمانيين على القسطنطينية، التي أطلقوا عليها اسم إسطنبول.

١٥٠١ تنصيب إسماعيل الأول نفسه شاهاً لإيران في طبريز وإعلانه المذهب الشيعي ديناً رسمياً للدولة.

١٥٢٠ تولي سليمان العظيم حكم الامبراطورية العثمانية.

١٥٣٠ بداية حكم المغول في الهند.

١٥٣٣ استيلاء العثمانيين على بغداد.

١٥٥٥ معاهدة أماسية التي وضعت نهاية للصراعات بين الدولتين العثمانية والصفوية.

١٥٥٦ تولي أكبر العظيم السلطة في الهند المغولية.

١٥٦٦ وفاة سليمان العظيم.

١٥٨٧ اعتلاء عباس الأول عرش الدولة الصفوية.

١٥٩٨ أصفهان عاصمة الدولة الصفوية.

١٦٠٠ تكوين شركة شرق آسيا البريطانية.

١٦٠٥ وفاة أكبر العظيم.

١٦٢٩ وفاة الشاه عباس.

١٦٩٩ معاهدة كارلويتز؛ إجبار العثمانيين على التنازل عن أراضي في البلقان.

١٧١٨ معاهدة بسارويتز؛ إجبار العثمانيين على التنازل عن صربيا.

١٧٢٢ سقوط أصفهان في يد القوات الأفغانية السُنّية.

١٧٣٦ تولي نادر شاه حكم إيران.

١٧٣٩ استيلاء نادر شاه على دلهي.

١٧٤٤ اتحاد القائد الإحيائي عبد الوهاب مع قوات محمد بن سعود.

١٧٦٤ تولي البريطانيين حكم البنغال وضعف سيطرة المغول.

١٧٩٤ بداية عهد الغجر في إيران.

١٧٩٨ احتلال نابليون مصر.

١٨٣٩ بداية تطبيق العثمانيين للإصلاحات الموسعة المعروفة باسم التنظيمات، وهي تُعدّ أولى محاولات التحديث في العالم الإسلامي.

١٨٨٤ تولي بريطانيا حكم مصر فعلياً.

١٩٠٥ إيران تشهد الثورة الدستورية.

١٩١٧ وعد بلفور يتعهد بوطن قومي لليهود في فلسطين.

١٩٢٢ إعلان مصر ملكية مستقلة تحت حكم فؤاد الأول؛ وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

١٩٢٣ نهاية الامبراطورية العثمانية.

١٩٢٨ تأسيس حركة الإخوان المسلمين على يد حسن البنا.

١٩٣٢ ظهور السعودية كدولة على الساحة تحت حكم عبدالعزيز بن سعود، واستقلال العراق.

١٩٤١ تأسيس المجتمع الإسلامي في باكستان على يد المودودي.

١٩٤٥ انضمام سوريا لعضوية الأمم المتحدة.

١٩٤٦ حصول كل من لبنان والأردن على استقلالهما.

١٩٤٧ تقسيم الهند وبداية دولة باكستان.

١٩٤٨ إقامة دولة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية؛ اندلاع أولى الحروب بين العرب وإسرائيل؛ مصر تحظر وجود حركة الإخوان المسلمين.

١٩٤٩	استقلال أندونيسيا.
١٩٥١	ليبيا تصبح ملكية مستقلة.
١٩٥٢	خلع ملك مصر الملك فاروق على يد جمال عبد الناصر.
١٩٥٦	استقلال تونس والمغرب والسودان؛ اندلاع ثاني الحروب بين العرب وإسرائيل؛ أزمة السويس والغزو الفرنسي الإنكليزي لمنطقة القنال.
١٩٥٧	حصول مالايا على الاستقلال.
١٩٦٠	حصول مالي وموريتانيا والنيجر ونيجريا والصومال وفولتا العليا (بوركينا فاسو) على الاستقلال.
١٩٦٢	حصول الجزائر على الاستقلال من فرنسا.
١٩٦٣	الشغب ضد الحكومة في إيران يؤدي إلى نفي القائد الديني الشيعي آية الله الخميني.
١٩٦٧	اندلاع ثالث الحروب بين العرب وإسرائيل.
١٩٧١	الحروب ما بين الهند وباكستان تؤدي إلى انفصال شرق باكستان (بنغلادش).
١٩٧٣	اندلاع رابع الحروب بين العرب وإسرائيل.
١٩٧٧	مباحثات السلام بين مصر وإسرائيل والتي انتهت بإبرام معاهدة كامب ديفيد للسلام.
١٩٧٩	عودة الخميني إلى إيران لقيادة الثورة الإسلامية؛ غزو روسيا لأفغانستان.
١٩٨١	اغتيال الرئيس المصري أنور السادات على يد المتطرفين الأصوليين الإسلاميين.

١٩٨٢ اجتياح إسرائيل للبنان.

١٩٨٩ وفاة الخميني.

١٩٩٠ هجوم صدام حسين على الكويت.

١٩٩١ إنطلاق عملية عاصفة الصحراء على يد قوات الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة ضد العراق؛ استعادة الكويت.

١٩٩٢ تولي الحكومة العسكرية الحكم في الجزائر لمنع جبهة الإنقاذ الإسلامية، الحزب الفائز بالجولة الأولى للإنتخابات، من تولي الحكم.

١٩٩٣ توقيع إتفاقية أوسلو بين الفلسطينيين وإسرائيل.

١٩٩٦ تولي طالبان الحكم في أفغانستان.

١٩٩٧ تولي محمد خاتمي رئاسة إيران، وتعهده بإجراء إصلاحات موسعة.

٢٠٠١ الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمية والبنتاغون في ١١ أيلول/سبتمبر؛ إعادة إنتخاب خاتمي رئيساً لإيران؛ هجوم الولايات المتحدة على أفغانستان الذي انتهى بسقوط طالبان.

٢٠٠٣ بدء الولايات المتحدة قصف بغداد لتغيير نظام الحكم فيها؛ سقوط بغداد والقبض على صدام حسين.

المراجع

Books

Chittick, William C. *Sufism: A Short Introduction*. Oxford: Oneworld Publications, 2000.

Coulson, N. J. *History of Islamic Law*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1989.

Esack, Farid. *The Qur'an: A Short Introduction*. [n. p.]: Oneworld Publications, [2002].

Esposito, John L. *Islam: The Straight Path*. New York: Oxford University Press, [1994].

Fakhry, Majid. *A Short Introduction to Islamic Philosophy, Theology and Mysticism*. Oxford: Oneworld Publications, 1997.

Al-Ghazali, Abu Hamid Muhammad Ibn Muhammad. *Inner Dimensions of Islamic Worship*. Translated by Muhtar Holland. [n. p.]: Islamic Foundation, 1983.

Halm, Heinz. *Shiism*. [Translated from the German by Janet Watson]. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1991. (Islamic Surveys)

Hart, Michael H. *The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History*. New York: Hart Pub. Co., 1978.

Lamartine, Alphonse de. *Histoire de la Turquie.*

Lings, Martin. *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources.* London: Islamic Texts Society; Allen & Unwin, 1983.

Momen, Moojan. *An Introduction to Shi'i Islam: The History and Doctrines of Twelver Shi'ism.* New Haven, CT: Yale University Press, 1985.

Mortimer, Edward. *Faith and Power: The Politics of Islam.* New York: Vintage Books, 1988.

Murata, Sachiko and William C. Chittick. *The Vision of Islam.* New York: Continuum International, 1995.

Nursi, Bediuzzaman Said. *Man and the Universe.* Istanbul: Sozler Publication, 1983.

Robinson, Neal. *Discovering the Qur'an: A Contemporary Approach to a Veiled Text.*

_____. *Islam: A Concise Introduction.* Surrey: Curzon Press, 1999.

Turner, Colin. *The Muslim World.* [n. p.]: Sutton Publishing, 2000.

Watt, W. Montgomery. *Islam and Christianity Today.* Forward by Shaikh Ahmed Zaki Yamani. London: Routledge and Kegan Paul, 1983.

_____. *Muhammad: The Prophet and Statesman.* [London]: Oxford University Press, 1961.

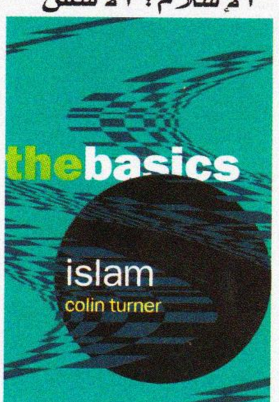
Yusuf, Hamza. *Purification of the Heart: Signs, Symptoms, and Cures of the Spiritual Diseases of the Heart: Translation and Commentary of Imam Mawlud's Matharat al-Qulub.* [n. p]: Starlatch Books, 2004.

Conference

Sacred Journeys: The Anthropology of Pilgrimage. Edited by Alan Morinis; Foreword by Victor Turner. Westport, CT: Greenwood Press, 1992. (Contributions to the Study of Anthropology; no. 7)

هذا الكتاب

الإسلام: الأسس



إن كتاب **الإسلام: الأسس** هو مقدمة موجزة نشر في الوقت المناسب وتحديداً بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ليقدم «الإسلام»، أحد أهم الديانات في العالم، من خلال معتقداته، ممارساته، مبادئه وأهدافه.

إنه محاولة، هدف من خلالها المؤلف إلى تقديم صورة واقعية وموضوعية عن «الإسلام» باعتباره أكثر الديانات إثارةً للجدل خصوصاً بعد أحداث أيلول/سبتمبر التي جعلت من الدين الإسلامي ديناً يرمز إلى الأصولية والإرهاب والهجمات الانتحارية.

في هذا الكتاب مقاربة جديدة لاستكشاف «الإسلام» من خلال الوحي القرآني من جهة، وعقائد الإسلام من جهة أخرى. وهذه المقاربة نابعة من تفسيرات شخصية اكتسبها المؤلف من دراسته الأكاديمية للقرآن والدين الإسلامي تارةً، ومن خبرته العملية وسط أناس يدّعون الإسلام تارةً أخرى.

كولين تيرنر: محاضر في معهد الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية، جامعة درم.

ISBN 978-9953-533-09-4



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
بناية «سادات تاور»، شارع ليون، ص.ب: ٥٢٨٥ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٣٧ ٤٠٠١ - لبنان
هاتف: ٧٨٩٤٥٣ (١-٩٦١)
فاكس: ٧٨٩٤٥٤ (١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com